

تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان

تحقيق

همفري ديفيز



تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان

محمّد بن عمر التونسيّ



تحقيق

همفري ديفيز

تُطلب النسخة الكاملة للشراء —
بنصّ الكتاب المحقّق مع الترجمة الإنجليزيّة والمقدّمة وكلمة
عن المخطوطات المستعملة والحواشي والمصادر —
من المكتبة العربية
(www.libraryofarabicliterature.org)

المكتبة العربيـة

تهدف المكتبة العربيّة التي أُنشِئَت بموجب منحة مقدَّمة من معهد جامعة نيويورك أبوظبي، وبالتعاون مع دار النشر التابعة لجامعة نيويورك، إلى نشر أبرز آثار التراث العربيّ باللغتين العربيّة والإنجليزيّة. إذ تُعِدُّ مجموعة من الباحثين المرموقين في مجال الدراسات العربيّة والإسلاميّة النصوص بحيث يُعرض المتن العربيّ المحقّق وترجمته الإنجليزيّة في صفحات متقابلة من المجلّد الواحد. وتعود أقدم النصوص التي تصدرها المكتبة العربيّة إلى حقبة ما قبل الإسلام في حين تعود أحدثها إلى مستهلّ العصر الحديث. وتضمّ المكتبة نماذج من مختلف مجالات العلوم والفنون بينها كتب الدين وعلومه والفقه وأصوله والفلسفة والعلوم الطبيعيّة وكتب الأخبار والتاريخ والشعر ونقده وأدب القصّة والحكاية.

تدير المكتبةَ العربيّة مجموعةٌ من الباحثين العاملين في مختلف أنحاء العالم، منهم أعضاء لجنة التحرير، وهم فيليب كينيدي من جامعة نيويورك الذي يعمل محرّرًا عامًّا، وجيمس مونتغمري، أستاذ اللغة العربيّة في جامعة كامبريدج، وشوكت محمود تراوا، أستاذ اللغة العربيّة في جامعة ييل، اللذان يعملان محرّرين تنفيذيّين، وتضمّ لجنة التحرير: شون أنثوني (جامعة ولاية أوهايو)، وهدى فخر الدين (جامعة بنسلفانيا)، ولارا حرب (جامعة برينستون)، ومايا كسرواني (جامعة نيويورك أبوظبي)، وإيناس خنسه (الجامعة الأمريكيّة في بيروت)، وبلال الأرفه لي (الجامعة الأمريكيّة في بيروت)، وموريس بوميرانتز (جامعة نيويورك أبوظبي)، ومحمّد رستم (جامعة كارلتون). ويشترك المحرّرون في اختيار النصوص وتفويض المترجمين ومراجعة المخطوطات والتدقيق النهائيّ للنصوص المترجمة. بالإضافة إلى ذلك، يعمل الأعضاء المؤسّسون للجنة التحرير - جوليا براي (جامعة أكسفورد) ومايكل كوبرسون (جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس) وجوزيف لوري (جامعة بنسلفانيا) وطاهرة قطب الدين (جامعة شيكاغو) وديفين ستيوارت

(جامعة إيموري) - محرّرين استشاريّين، وذلك من خلال تقديم النصح والإرشاد للسلسلة بشكلٍ عامّ.

تُعدّ المكتبة العربيّة الأسبق في نوعها، حيث تهدف إلى إنشاء مكتبة كبرى تضمّ نصوصاً عربيّة ذات قيمة مرجعيّة تصاحبها ترجمات إنجليزيّة تتّصف بحداثة الصياغة وسلاسة الأسلوب، سعياً بذلك إلى تعريف الباحثين والطلّاب وجمهور القرّاء غير المتخصّصين بموروث الأدب العربيّ.

كلمة عن إثبات النص العربي

اعتمدت في اثبات النص على طبعتي أحمد محمد شاكر ورفعت فوزي عبد المطلب كما شرحت تفاصيله في المقدمة للترجمة والتحقيق الأصلي. ولا يستغني الباحث عنهما في الدراسة الأكاديمية الحديثة للرسالة.

المحتويات

هذا كتاب

تشحيذ الأذهان

بسيرة بلاد العرب والسودان

لمؤلّفه

محمّد بن عمر التونسيّ

عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً. يا من سيّر أقدام الأنام بإرادته السنيّة وجعل ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ بحكمته البهيّة نحمدك حمد من تلذّذ بحلاوة الراحة بعد مرار مشقّة السفر ونشكرك شكر من تنعّم بالإقامة بعد كدّ الرحلة والكدر ونسألك يا مالك الأملاك بما قدّرت من سير الكواكب في الأفلاك أن تُهْطِل شآبيب رحمتك ورضوانك وتُنْزِل غيث صلاتك وسلامك على أفضل من ارتحل وأقام وسافر من مكّة إلى الشام سيّدنا ومولانا محمّد الشفيع يوم العرض في المُذْنِبين الذي أُنزلت عليه ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وعلى آله الذين رحلوا من أوطانهم في حبّه وأصحابه الذين هاجروا للمدينة رغبة في قربه وسلّم تسليماً كثيراً ١،١

وبعد فيقول الفقير إلى رحمة ربّه المنّان محمّد بن السيّد عمر التونسيّ بن سليمان لمّا وفّقني الله تعالى لقراءة علوم العربيّة وأترع كأسي من بينها بالفنون الأدبيّة حتّى حُسِبْتُ من بني الأدب وذويه وعشيرته التي تؤويه أناخ الدهر بكلكله على ما بيدي من العين فغادره أثراً بعد عين[1] وكانت همّتي إذ ذاك مصروفة بتحصيل العلوم وجمع المنثور منها والمنظوم وحين شاهدت معاندة الزمان لمقتي تمثّلت بقول العلّامة الصفتيّ [كامل] ٢،١

هَبَطَتْ ثُرَيَّا الشَّارِدَاتِ لِهِمَّتِي ... وَصَعِدْتُ فِي ٱلْعِرْفَانِ كُلَّ سَمَاءِ
وَفَقَهْتُ غَيْرِي فِي ٱلْعُلُومِ وَإِنَّمَا ... بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْمَالِ كُلُّ تَنَائِي
فَعَجِبْتُ إِذْ عُقِدَ ٱللِّوَاءُ لِجَاهِلٍ ... وَٱلْفَقْرُ عَمَّ عَمَائِمَ ٱلْفُقَهَاءِ

١ الأصل: العبن.

٣،١ ولمّا صفِرت الراحة وقرعت الساحة ومال المال وحال الحال وغار المَنْبَع ونبا[١] المَرْبَع أنشدت من مقالي على شرح حالي شعرًا [كامل]

مَا حِيلَتِي وَلِذَا ٱلزَّمَانِ مَتَاعِبٌ   يُؤْذِي ٱلشَّرِيفَ وَلِلْوَضِيعِ يَصُونُ
زَمَنٌ لَهُ حَرْبٌ عَلَى أَهْلِ ٱلتُّقَى   بِإِزَائِهِ حَرْبُ ٱلْبَسُوسِ يَهُونُ
فَتَرَاهُ يَرْفَعُ كُلَّ غَمْرٍ جَاهِلٍ   وَيُسِيءُ كُلَّ مُهَذَّبٍ وَيُهِينُ

وتمثّلت بقول القائل [وافر]

تَبِيتُ ٱلْأُسْدُ فِي ٱلْغَابَاتِ جَوْعَى   وَلَحْمُ ٱلضَّانِ يُلْقَى لِلْكِلَابِ
وَخِنْزِيرٍ يَنَامُ عَلَى حَرِيرٍ   وَذِي عِلْمٍ يَنَامُ عَلَى ٱلتُّرَابِ

٤،١ ثمّ ناجتني القرونة أن أسأل من بعض الناس المعونة فتذكّرت أن ليس كلّ أحمر لحمة ولا كلّ أبيض شحمة وربّما يريق الإنسان ماء وجهه ولا يحظى بقصده وأنّ إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيّا سيّما إذا وقع التعس والنَكس وكان الطلب من نَحس قال الشاعر [منسرح]

لَقَلْعُ ضِرْسٍ وَضَنْكُ حَبْسٍ   وَنَزْعُ نَفْسٍ وَوِرْدُ رَمْسِ
وَلَفْحُ[٢] نَارٍ وَحَمْلُ عَارٍ   وَبَيْعُ دَارٍ بِرُبْعِ فَلْسِ
وَقَوْدُ قِرْدٍ وَفَرْطُ بَرْدٍ   وَدَبْغُ جِلْدٍ بِغَيْرِ شَمْسِ
وَفَقْدُ إِلْفٍ وَضِيقُ خَسْفٍ   وَضَرْبُ أَلْفٍ بِأَلْفِ قَلْسِ
أَهْوَنُ مِنْ وَقْفَةٍ لِحُرٍّ   يَرْجُو نَوَالاً بِبَابِ نَحْسِ

لا سيّما وقد وُجد على بعض الأحجار بقلم قدرة العزيز الجبّار كلْ مِنْ كدّ يمينك وعرق جبينك وإن ضعف يقينك اسأل الله يعينك

١ الأصل: نبأ.   ٢ الأصل: ولفع.

٥،١ فدخلت في خدمة من تزيّنت بلطائفه صفحات الأيّام ونارت بعوارفه حوالك الظلام ظِلّ الله الظليل على البلاد والأمصار حامي ذِمار الإسلام وقامع الفجّار، من أنام الأنام في وارف حلمه وإحسانه وأذاقهم حلاوة الأمن بنجدته وأمانه [خفيف]

مَـلِكٌ مَـاجِـدٌ حَـلِيمٌ كَرِيـمٌ   جُودُهُ نَاسِخٌ لِكُـلِّ ٱلْجُودِ[1]
نَاشِرُ ٱلْعَـدْلِ وَهْوَ لِلْجَوْرِ طَـاوٍ   وَاقِفٌ فِي ٱلْأَحْكَامِ عِنْدَ ٱلْحُدُودِ
صَالِحُ ٱلْفِعْلِ صَادِقُ ٱلْقَوْلِ وَافٍ   بِوَفَـا ٱلْعَهْـدِ مُنْجِـزٌ لِلْوُعُودِ
هَمُّـهُ ٱلْقَطْـعُ لِلْفَسَـادِ وَإِصْـلَا   حُ جَـمِيعِ ٱلْبِـلَادِ وَٱلتَّمْـهِـيدِ
نَحْنُ مِنْ رَوْضِ أَمْنِ دَوْلَتِـهِ فِي   خَـفْضِ عَيْشٍ بِهِ وَظِـلٍّ مَـدِيدِ
أَيُّهَـا ٱلْمَـالِكُ ٱلَّذِي يَحْـتَمِي عَنْ   حَـدِّ أَوْصَـافِهِ ٱلْعُـلَى بِحُـدُودِ
أَنْتَ مِنْ حِصْنِ رَبِّنَا فِي أَمَـانٍ   مِنْ عُيُونِ ٱلْعِدَى وَكَيْدِ ٱلْحَسُودِ

ألا وهو فاتح الحرمين الشريفين بجيشه المنصور ومالك الأقطار الشاميّة بإبراهيمه البطل الغضنفر المشهور، أمير المؤمنين الحاجّ محمّد عليّ باشا وليّ النعم أعلى الله سُرادِق عزّ دولته وأبّد ملكه بمجده وصولته

٦،١ وكان أوّل خدمتي بوظيفة واعظ في الآلاي الثامن من المشاة وسافرت معه إلى المورة وكابدت المشقّات وكنت قبل ذلك سافرت إلى بلاد السودان ورأيت فيها من العجائب ما إذا سطر يكون كزهر بستان ثمّ استخدمت في مدرسة أبي زعبل لتصحيح الكتب الطبيّة وخصّصت منها بتصحيح كتب الأجزاجيّة ومكثت على ذلك حتّى اجتمعت بأبرع أهل زمانه حذاقة وفهماً وأذكى أهل عصره صناعة وعلماً معلّم الكيميا الحكيم بيرون الفرنساويّ وقرأ عليّ كتاب كليلة ودمنة باللغة العربيّة فذكرت له بعض ما عاينته في أسفاري من العجائب البهيّة فحملني على أن أزيّن وجه الدفتر بأيضاح ما شاهدته من العجائب وأخبره بما حصل لي في تلك الأسفار من الغرائب فامتثلت أمره لما له عليّ من اليد البيضا ورأيت أنّ ذلك أجمل بي أيضاً لقول صاحب المقصورة

١ الأصل: الوجود.

[رجز مع كسر]

إِنَّمَا ٱلْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ   فَكُنْ حَدِيثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَى

فشرعت في إبراز فرائدها من صدف الأذهان وكشف حجاب خرائدها الحسان إلى العيان وضممت لذلك من النوادر ما سمعته من الثقات أو نقلته من الكتب على سبيل الاستطراد للمناسبات لتكون هذه الرحلة روضة يانعة الأزهار لمن تأمّل فيها وحديقة دانية الثمار لمن تصفّح معانيها ولم آلُ جهداً في أيضاح معانيها للمتأمّلين ولم أتعمّق في غريب اللغة ليسهل فهمها على السامعين

٧،١ ورتّبتها على مقدّمة ومقصد وخاتمة وفي كلّ منها أبواب كما يُعلم من الفهرسة وسمّيتها تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان والله أسأل أن ينشر عليها حلّة القبول ويقيها شرّ حاسد يطعن فيما فيها من المقول [وافر]

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحًا   وَآفَتُهُ مِنَ ٱلذِّهْنِ ٱلسَّقِيمِ

على أنّي وإن أتقنتها وهذّبتها وفي أحسن قالب سبكتها لا أقول إنّها عارية عن الخلل بريئة من الزلل لأنّي إنّما أنا بشر من الإنسان محلّ للخطأ والزلل والنسيان لكن إنّما أتعوّذ من غمر يرمقها بعين الحسد ويندّد بأنّها من الخرافات عند كلّ أحد [وافر]

وَهَبْنِي قُلْتُ هذَا ٱلصُّبْحُ لَيْلٌ   أَيَعْمَى ٱلْعَالَمُونَ[1] عَنِ ٱلضِّيَاءِ

٨،١ فرحم الله امرأً رأى الزلل فستره وشاهد الخلل فجبره [رمل]

إِنْ تَجِدْ عَيْباً فَسُدَّ ٱلْخَلَلَا   جَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا

وبالله أستمدّ التوفيق إلى أقوم طريق وهو حسبي ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير

١ الأصل: اتعمى المعالمون.

المقـدّمـة

وفيها ثلاثة أبواب

الباب الأول

في السبب الباعث لرحلتي لبلاد السودان

١،١،٢ حكى لي والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان أنّ جدّه كان من عظماء أهل تونس وكيلاً من طرف سلطان المغرب المولى الأكمل الملك المظفّر العادل المرحوم الشريف محمّد الحسنيّ فاجتمع له بذلك مال جزيل حتّى صار من أغنى أهل زمانه ولمّا مات كان قد خلف من الولد ثلاثة بنين فتنازعوا تراث أبيهم وباعوا دارهم التي كانت تؤويهم وسكن كلّ منهم على حدته بأولاده وزوجته فاتّفق أنّ أباه كان من أهل العلم جيّد الخطّ ينسخ الكتاب فيبيعه بضعف ما يبيع به غيره وكان يعرف صباغة الثياب بالألوان فكان أرفه إخوته معاشاً وأحسنهم ارتياشاً فاتّفق له أنّه اشتاق لرؤية البيت الحرام وزيارة قبر نبيّه عليه السلام فباع بعض عقار كان له وتأهّب للسفر واشترى معه أحرمة وطرابيش وأعطاه الناس أموالاً كثيرة يتّجر لهم فيها لما يعلمون من صدقه وأمانته حتّى أنّه وسق من السفينة جانباً عظيماً

٢،١،٢ وحين توجّه ودّعه إخوانه حتّى وصل إلى السفينة فركبها وأقلعت بهم بريح طيّبة ثمّ اختلفت الرياح على السفينة حتّى أنّهم أخذوا طريقاً غير طريقهم وذلك أنّهم جاءوا على طريق رودس وبينما هم آمنين مطمئنّين إذ هبّ عليهم قاصف ريح وكانوا إذ ذاك بجانب رودس فتلاطمت عليهم أمواج البحر وبدّل الصفو بالكدر على حدّ قول الشاعر شعر [بسيط]

حَسَّنْتَ ظَنَّكَ بِٱلْأَيَّامِ مُذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ ٱلْقَدَرُ
وَسَالَمَتْكَ ٱللَّيَالِي وَٱغْتَرَرْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ ٱللَّيَالِي يَحْدُثُ ٱلْكَدَرُ

وكان بسفينتهم خلل فلمّا تلاطمت عليها الأمواج وسطت عليها سطوة الحجّاج تحلّل تركيبها وفسد ترتيبها وتفرّقت أجزاؤها وانفصلت أفلاذها وغرق من فيها ولم ينج إلّا القليل من راكبيها وكان ممّن نجا معهم جدّي المذكور فخلص بعد غصّ الريق إلى البلد المذكور [طويل]

إِذَا سَلِمَتْ هَامُ ٱلرِّجَالِ مِنَ ٱلرَّدَى فَمَا ٱلْمَالُ إِلَّا مِثْلُ قَصِّ ٱلْأَظَافِرِ

٣،١،٢ فمكث في رودس مدّة ونفعه فيها هِمْيان كان في وسطه فيه بعض ذهب فكان ينفق منه مدّة إقامته ثمّ اشترى زاداً وركب في سفينة إلى ثغر إسكندريّة وكان ذلك إبّان الحجّ والذهاب إلى العجّ والثجّ فتوجّه في الحال من غير إهمال إلى ان وصل إلى تلك البقاع وبلغ مأموله جهد ما استطاع وكان لسان حاله يقول قبل بلوغ المأمول [رمل]

أَبْرَكُ ٱلْأَيَّامِ يَوْمٌ قِيلَ لِي هٰذِهِ طَيْبَةُ هٰذِي ٱلْكُثُبُ
هٰذِهِ رَوْضَةُ طٰه ٱلْمُصْطَفَى هٰذِهِ ٱلزَّرْقَاءُ لَدَيْكُمْ فَٱشْرَبُوا

والياء في هذي بدل عن الهاء

٤،١،٢ ولمّا قضى ما وجب عليه وتملّى بزيارة الحبيب وصاحبيه أفاق من دهشته وفاء إلى سكينته وافتكر في ضياع ماله وتشتّت حاله وافتضح من دخوله إلى تونس ذا عسر وفاقة بعد أن كان ذا يسر وإفاقة وكيف يصبر بعد الرفاهية على الكدّ أو يراه على هذه الحالة أهل البلد ولمّا تذكّر ما قد حدث أنشد على وجه الجدّ لا العبث [طويل]

سَأَضْرِبُ فِي ٱلْآفَاقِ شَرْقًا بِغَرْبِهَا وَأَكْسِبُ مَالًا أَوْ أَمُوتُ غَرِيبَا
فَإِنْ تَلِفَتْ نَفْسِي فَلِلَّهِ رَدُّهَا وَإِنْ سَلِمَتْ كَانَ ٱلرُّجُوعُ قَرِيبَا

٢،١،٥ ومن المعلوم أنّه لا[١] يسهل على المرء أن يعيش في تعب ونصب وكدّ في بلد لا يعرفه فيه أحد خصوصاً في هذا الزمن الذي يكرم به اليهوديّ لماله ويهان الشريف لفقره وسوء حاله ورحم الله القائل [كامل]

يَغْدُو ٱلْفَقِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ضِدَّهُ وَٱلْأَرْضُ تُغْلِقُ دُونَهُ أَبْوَابَهَا
وَتَرَاهُ مَمْقُوتًا وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ وَيَرَى ٱلْعَدَاوَةَ لَا يَرَى أَسْبَابَهَا
حتّى ٱلْكِلَابُ إِذَا رَأَتْ ذَا ثَرْوَةٍ مَالَتْ إِلَيْهِ وَحَرَّكَتْ أَذْنَابَهَا
وَإِذَا رَأَتْ يوماً فَقِيرًا عَارِيًا نَبَحَتْ عَلَيْهِ وَكَشَّرَتْ أَنْيَابَهَا

٢،١،٦ ولذا قال الإمام عليّ كرّم الله وجهه الفقر داء لا دواء له إن أذعته فضحني وإن كتمته قتلني وقد قيل إذا افتقر الإنسان خوّنه من كان يأمنه وأساء فيه الظنّ من كان يحسنه وأبعده من كان يقربه وملّه من كان يحبّه شعر [بسيط]

إِنْ قَلَّ مَالِي فَلَا خِلٌّ يُسَاعِدُنِي وَإِنْ غَنِيتُ فَكُلُّ ٱلنَّاسِ خِلَّانِي

وليت الإنسان إذا افتقر يُترك هو وشأنه ولا يُحتقر لا والله بل يُكذّب في المقال وإن كان صوابا ويُهان وإن لم يكن عابا شعر [كامل]

مَنْ كَانَ يَمْلِكُ دِرْهَمَيْنِ تَعَلَّمَتْ شَفَتَاهُ أَنْوَاعَ ٱلْكَلَامِ فَقَالَا
وَتَقَدَّمَ ٱلْإِخْوَانَ فَٱسْتَمَعُوا لَهُ وَرَأَيْتَهُ بَيْنَ ٱلْوَرَى مُخْتَالَا
لَوْلَا دَرَاهِمُهُ ٱلَّتِي فِي كِيسِهِ لَرَأَيْتَهُ أَسْوَأَ ٱلْبَرِيَّةِ حَالَا
إِنَّ ٱلْغَنِيَّ إِذَا تَكَلَّمَ بِٱلْخَطَا قَالُوا صَدَقْتَ وَمَا نَطَقْتَ مُحَالَا

١ أضيف للسياق: لا.

وَإِذَا ٱلْفَقِيرُ أَصَابَ قَالُوا كُلُّهُمْ   أَخْطَأْتَ يَا هذَا وَقُلْتَ ضَلَالَا
إِنَّ ٱلدَّرَاهِمَ فِي ٱلْمَوَاطِنِ كُلِّهَا   تَكْسُو ٱلرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَمَالَا
وَهْيَ ٱللِّسَانُ[1] لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَةً   وَهْيَ ٱلسِّلَاحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالَا

وإذا كان كذلك فالموت خير لذوي الأحساب من أن تلتصق أيديهم بالتراب شعر [مجزوء الكامل]

اَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى   مِنْ أَنْ يَعِيشَ بِغَيْرِ مَالِ
وَٱلْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْكَرِيـ   ـمِ مِنَ ٱلتَّضَرُّعِ وَٱلسُّؤَالِ

٧،١،٢ ولما علم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ الفقير يهان بعد الإكرام ويذلّ بعد العزّ والاحترام قال أكرموا عزيز قوم ذلّ وغنيّ قوم افتقر لكن كلّ ذلك بحسب ما سطر في أمّ الكتاب وقدره في علمه العزيز الوهّاب وإلّا فكم من فقير أسعفته الأقدار وكم من غنيّ أصبح لا يملك ربع دينار ومن ذلك ما حكي أنّ الوزير المهلّبيّ كان في أوّل أمره فقيرًا لا يملك نقيرًا واتّفق أنّه سافر راجلًا من بغداد إلى مكّة في قافلة وقد أضرّ به الجوع وأحرمه الهجوع فأنشد يقول [وافر]

أَلَا مَوْتٌ[2] يُبَاعُ فَٱشْتَرِيهِ   فَهٰذَا[3] ٱلْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
أَلَا رَحِمَ ٱلْمُهَيْمِنُ رُوحَ عَبْدٍ   تَصَدَّقَ بِٱلْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ

فسمعه أحد التجّار فأعطاه رغيفًا ودرهمًا ثمّ تغيّرت الأحوال فترقّى المهلّبيّ للوزارة وافتقر التاجر حتّى صار لا يملك قوت يومه وبلغه أن المهلّبيّ ترقّى للوزارة فذهب إليه وكتب له في رقعة ما صورته [وافر]

١ الأصل: اسلاح. ٢ الأصل: موتا. ٣ الأصل: فهذ.

أَلَا قُلْ لِلْوَزِيرِ فَدَتْهُ[1] نَفْسِي مَقَالًا مُذْكِرًا مَا قَدْ نَسِيهِ
أَتَذْكُرُ إِذْ تَقُولُ لِضَنْكِ عَيْشٍ أَلَا مَوْتٌ[2] يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ

وأرسلها له مع بعض خدمه فلمّا قرأها بكى واستعبر وتذكّر ما قد سلف وأمر له بعمل وسبعمائة درهم وكتب له على رقعة ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ[3] سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ الآية فعُلِمَ من ذلك أنّه ينبغي إكرام من افتقر بعد غناه وذلّ بعد أن بلغ في العزّ منتهاه وإذا عنت للإنسان حاجة وأراد يسأل فيها الناس فإن كان عاقلًا لا يسأل إلّا من كان ذا فضل ومروّة ولا يسأل من تموّل بعد فقره وعزّ بعد ذلّه قال الشاعر [طويل]

سَلِ ٱلْفَضْلَ أَهْلَ ٱلْفَضْلِ قِدْمًا وَلَا تَسَلْ غَنِيًّا رُبِي فِي ٱلْفَقْرِ ثُمَّ تَمَوَّلَا

٨،١،٢ ثمّ إنّ المال تميل إلى صاحبه القلوب وتنضمّ عليه أزرار الجيوب. به تتمّ الإرادات وتقضى جميع الحاجات ولقد أجاد الحريريّ في مدح الدينار حيث قال [مشطور الرجز]

أَكْرِمْ بِهِ أَصْفَرَ رَاقَتْ صُفْرَتُهْ جَوَّابَ آفَاقٍ تَرَامَتْ سَفْرَتُهْ
مَأْثُورَةٌ سُمْعَتُهُ وَشُهْرَتُهْ قَدْ أُودِعَتْ سِرَّ ٱلْغِنَى أَسِرَّتُهْ
وَقَارَنَتْ نُجْحَ ٱلْمَسَاعِي خَطْرَتُهْ وَحُبِّبَتْ إِلَى ٱلْأَنَامِ غُرَّتُهْ
كَأَنَّمَا مِنَ ٱلْقُلُوبِ نُقْرَتُهْ بِهِ يَصُولُ مَنْ حَوَتْهُ صُرَّتُهْ
وَإِنْ تَفَانَتْ أَوْ تَوَانَتْ عِتْرَتُهْ يَا حَبَّذَا نُضَارُهُ وَنَضْرَتُهْ[4]
وَحَبَّذَا مَغْنَاتُهُ وَنُصْرَتُهْ كَمْ آمِرٍ بِهِ ٱسْتَتَبَّتْ إِمْرَتُهْ
وَمُتْرَفٍ لَوْلَاهُ دَامَتْ حَسْرَتُهْ وَجَيْشِ هَمٍّ هَزَمَتْهُ كَرَّتُهْ
وَبَدْرِ تِمٍّ أَنْزَلَتْهُ بَدْرَتُهْ وَمُسْتَشِيطٍ تَتَلَظَّى جَمْرَتُهْ
أَسَرَّ نَجْوَاهُ فَلَانَتْ شِرَّتُهْ وَكَمْ أَسِيرٍ أَسْلَمَتْهُ أُسْرَتُهْ

---

١ الأصل: فداته. ٢ الأصل: موتا. ٣ في كل - الأصل: وكل. ٤ الأصل: ونُضْرَتُهْ.

أَنْقَذَهُ حتّى صَفَتْ مَسَرَّتُهْ وَحَقَّ مَوْلًى أَبْدَعَتْهُ فِطْرَتُهْ
لَوْلَا ٱلتُّقَى لَقُلْتُ جَلَّتْ قُدْرَتُهْ

٩،١،٢ ولقد شوهد أنّ الألكن إذا استغنى يصير فصيحًا والأعمش إذا تموّل يعود بصره صحيحًا ومصداق ذلك أنّي رأيت في سفرتي هذه رجلًا يسمّى محمّد المكّنيّ وكان خادمًا على باب يوسف باشا صاحب طرابلس الغرب وكان أعمش العينين مُسْلَق الجفنين ترشح دموعه ويقلّ هجوعه ودام كذلك إلى أن تولّى حاكمًا على إقليم فزّان فبرئ عمشه ونبت رمشه وذهب وجعه وبطل دمعه وصار أجمل أهل عصره وأوجه أهل قطره قلت ولعلّ الأمراض إنّما تعتري الفقراء لما يرونه من الذلّ والمسكنة والعري والمسغبة فيهتمّون لضيق معاشهم وعدم ارتياشهم فتتشوّش أذهانهم وتسقم أبدانهم والغنيّ ليس كذلك نعم وإن كانت له هموم لكنّها من جهة أخرى شعر [طويل]

وَمَنْ يَحْمَدُ ٱلدُّنْيَا لِشَيْءٍ يَسُرُّهُ فَسَوْفَ لَعَمْرِي عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُهَا
إِذَا أَدْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى ٱلْمَرْءِ حَسْرَةً وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيرًا[1] هُمُومُهَا

لكنّ الغنيّ إذا بذل الدينار يبلغ الأوطار

١٠،١،٢ ومن ذلك ما حكي أنّ عليّ باشا الأوّل صاحب تونس كان قبل ولايته فارًّا بالجزائر مستجيرًا بحاكمها أن يمدّه بعساكر ليأخذها من ابن عمّه حسين باشا وكان صاحب الجزائر يعدّه بذلك والأخبار تردّ على حسين باشا بذلك فكان يغتمّ إذا سمع شيئًا من ذلك لما يعلم ممّا يطرأ عليه من انحطاط شأنه وذهاب ملكه وسلطانه فاتّفق أن ورد عليه خبر أقلقه وأهمّه وأحزنه وأغمّه فركب وهو ضيّق الصدر كثير الفكر وشقّ في وسط تونس بموكبه وكان أحد وزرائه محاذيًا له يتحدّث معه فرآه على تلك الحالة فسأله عن سبب تغيّره فأخبره بما سمع من الخبر فقال الوزير أيّد الله مولانا ونصره أتهتمّ بأمر لا أصل له على أنّي أقول إنّك ما دمت موجودًا لا تقوم له قائمة والتفت عن يمينه

---

١ الأصل: كثير.

وكان بمحلّ يسمّى سوق البلاط فرأى ساق شجرة يابساً ملقى على الأرض فقال له إن كان هذا الساق يعود شجرة خضراء يملك عليّ باشا تونس ويصير حاكماً عليها وأراد بذلك اطمئنان صاحبه

١١،١،٢ فما مرّت إلّا أيّام قلائل حتّى جاء عليّ باشا بجيش كثيف من الجزائر وقتل حسين باشا واستوزر الوزير المذكور مدّة حتّى تمهّدت له الأمور فاتّفق أنّه ركب يوماً في موكبه ودخل تونس والوزير المذكور محاذياً له كما كان محاذياً لحسين باشا فتماديا في سيرهما حتّى وصلا إلى سوق البلاط فالتفت عليّ باشا فرأى ساق الشجرة ملقى بمكانه فقال للوزير إن عاد هذا الساق شجرة خضراء يعود عليّ باشا حاكماً على تونس وكان بعض أعداء الوزير ألقى إليه ذلك فأسرّه في نفسه إلى ذلك الوقت ثمّ أعرض عنه ولم يحادثه بعد ذلك فعلم الوزير أنّه مقتول لا محالة لما يعلم من أخلاق عليّ باشا لأنّه كان سفّاكاً للدماء حتّى أنّه كان يقتل على الهفوة الصغيرة فضلاً عن مثل هذه وتماديا على ذلك حتّى وصل الباشا الى محلّ سلطنته وإيوان أبّهته فتقدّم إليه الوزير قبل أن يأمر فيه بأمر وقال أيّد الله مولانا إنّ ابن عمّك حسين باشا حين سمع بقدومك أودع عندي أموالاً جمّة خبأتها فى محلّ لا يعرفه غيري وأنا محقّق أنّك قاتلي وأخاف إن أنا متّ وهى بمكانها لا ينتفع بها مولاي فأنّ رأى سيّدنا أن يسرّحنى لآتيه بها فليفعل

١٢،١،٢ ففرح عليّ باشا وظنّ صدقه وأمره بالتوجّه وأن تصحبه عشرة حوانب والحوانب فى لغة تونس هم القوّاصة[١] بلغة أهل مصر وقبل توجّههم قال للحوانب إن فرّ منكم قتلتكم أجمعين فتوجّهوا معه حتّى وصل لداره فأوقفهم أسفل الدار وصعد ليبعد الحريم عن الطريق فوقفوا وحال صعوده لم يكن له همّ إلّا أنّه قصد خزانة أمواله فملأ منها جيوبه ذهباً وأخذ معه صندوقاً صغيراً يسمّى فى عرف أهل تونس بالفنيق مملوءا ذهباً أيضاً وصعد على السطح وتسوّر من دار أخرى وخرج الى الشارع وتوجّه الى دار قونصل الإنجليز فدخل عليه وأخبره أنّه مستجير به وأعلمه بالقصّة وأعطاه الصندوق بما فيه

---

١ الأصل: القواص. ٢

وقال له أريد أن تأمر بإحدى سفائنك تتوجّه[1] بي في هذه الساعة الى إنجلاتيره فكتب له القونصل فى الحال كتّاباً إلى أحد قبوداناته أن سافر الى الإنجلاتيره حال حلول جوابنا هذا إليك ولا تتأخّر دقيقة واحدة وأعطاه الكتّاب ورافقه بترجمانه ونزلا البحر حتّى وصلا الى السفينة فحين قرأ مدير السفينة كتّاب القونصل أقلع عن المرسى وأطلق مدفعاً علامة للقونصل بتوجّهه واستبطأه الجوانب فنادوا يا فلان انزل فقال الحريم انّه نزل من وقت صعوده فكذّبوهنّ وهجموا الدار فلم يـروا فيها أحداً وعلم عليّ باشا بإفلاته فاغتاظ وعرف أنّها حيلة وتمّت عليه فانظرْ رحمك الله الى هذه القضيّة أترى أنّ هذا الوزير لو لم يبذل هذه الدنانير أكان يبلغ مأمنه لا والله بل كان يقتل ويؤخذ ماله ولا ينفعه بشيء لأنّ الدرهم والدينار إذا لم يبذلا لم ينفعا ولا تقضى لصاحبهما حاجة بل إن كان والياً عُزل وإن كان تاجراً احتقر

وفى هذا المعنى أنشد شيخ مشايخنا العلامة الشيخ محمّد الأمير الكبير حين عُزل خورشيد باشا والي مصر سابقاً وتولّاها صاحب السعادة لعدم إعطاء مرتّبات العساكر شعراً [مجزوء الكامل] ١٣،١،٢

عَـزَلُوكَ لَمَّا قُـلْتَ مَـا   أُعْـطِي وَوَلَّوْا مَنْ بَـذَلْ
أَوَمَـا عَـلِمْتَ بِأَنَّ مَـا   حَـرْفٌ يَكُفُّ عَنِ ٱلْعَمَـلْ

ولقد أجاد أبو القاسم الحريريّ فى ذمّ الدينار من حيث انّه لا ينفع صاحبه إلّا إذا فرّ من يده حيث قال [مشطور الرجز]

وَشَـرُّ مَـا فِيهِ مِنَ ٱلْخَـلَائِقِ   أَنْ لَيْسَ يُغْنِي عَنْكَ فِي ٱلْمَضَايِقِ[2]
إِلَّا إِذَا فَـرَّ فِـرَارَ ٱلْآبِقِ   وَاهـًا لِمَنْ يَقْـذِفُـهُ مِنْ حَـالِقِ
وَمَنْ إِذَا نَاجَـاهُ نَجْوَى ٱلْوَامِقِ   قَـالَ لَهُ قَوْلَ ٱلْمُحِقِّ ٱلصَّـادِقِ
لَا رَأْيَ[3] فِي وَصْـلِكَ لِي فَفَـارِقِ

١ الأصل: يتوجه. ٢ الأصل: المضائق. ٣ الأصل: ارى.

وفي الأمثال التونسيّة إذا وضعت الدينار على فم البلا أسكته وفي الأمثال المصريّة حبيب ماله حبيب ماله أي من أحبّ ماله وخزنه لا حبيب له

١٤،١،٢ ومن هذا القبيل حكاية وقعت بتونس وهي[١] أنّ المرحوم الأمجد أبو محمّد حمّودة باشا برّد الله ثراه كان له وزير يسمّى يوسف صاحب الطابع ومعناه المُهُرْدار أي الذي في يده الخاتم الذي تختم به الأوامر وكان يوسف المذكور قبل ذلك مملوكاً لقائد صفاقس المسمّى محمّد الجلّولي وكان على جانب[٢] من الجمال والأدب والحياء فنمى خبره إلى الباشا فأرسل إلى الجلّولي يقول له إنّه قد بلغني أنّ عندك مملوكاً صفته كذا واسمه يوسف فإذا وصلك كتابي هذا أرسله صحبة حامله والسلام فلمّا قرأ الجلّولي الكتاب لم يجد بدّاً من إرساله فلمّا صار في حيازة الباشا أعجبه حسنه وذكاؤه وفطنته وصدقه وأمانته

١٥،١،٢ واتّفق أنّ بعض المماليك اتّفقوا على قتل الباشا ودخلوا عليه وهو نائم ووضعوا الشفرة على مذبحه فاستغاث منهم ولبخت يوسف المذكور كان خلاص الباشا منهم على يده فنزل عنده منزلة عظيمة وأحلّه محلّ ولده وقلّده الولايات العظيمة وصارت الألوية تخفق على رأسه حتّى صار يشار إليه بأطراف البنان وكان يوسف المذكور سعيد الطالع جيّد التدبير مظفّراً في الحروب ميمون الحركة سخيّ الكفّ يجذب القلوب بلطفه حتّى أنّ الباشا جعله رئيساً على العساكر البرّيّة في محاربة صرّاط وهي محاربة وقعت بين حاكم تونس وصاحب الجزائر فَبِيُمْن صاحب الطابع كانت الدائرة على أهل الجزائر واغتنم عسكر تونس أخبية الجزائريّ وخيله وإبله وسلاحه وأسر من عسكر الجزائر في هذه الواقعة جمّ غفير ثمّ صار مدبّر الجيوش البرّيّة والبحريّة بحلق الواد وذلك حين قدم أسطول الجزائر لمحاربة تونس أيضاً فكان مقيماً ببرج حلق الواد يدبّر أمر الجيش والسفن والشواني والعسس على الشاطئ وكانت أكابر تونس تأتي إليه لقضاء أشغالهم بحلق الواد لأنّ زمام الأمور كلّها بيده

١٦،١،٢ وكان من جملة من يحضر ديوانه محمّد الجلّولي ابن سيّده سابقاً لكن كان يأتي بتيه وخفر مع عدم سلوك طريقة الأدب اللائقة بأمثاله وكان صاحب الطابع يرى منه

---

[١] الأصل: هو. [٢] أضيف للسياق: جانب.

ذلك ويتغافل عنه حتّى أنّ أكابر ديوانه تكلّموا معه في شأن ذلك وذكروا له أموراً كثيرة حتّى قالوا إنّه يراك إلى الآن مملوك أبيه وقد صرّح بهذا مراراً فنقم ذلك عليه وتحيّل في طريق الانتقام منه فأخبر أنّه يدخل داره راكباً ولا ينزل خارج الدار كبقيّة الأمراء وأنّ سائسه يأخذ بغلته ويربطها في مربط دوابّه فدعا برئيس السيّاس وقال له قد بلغني أن سائس الجلّولي يربط بغلته في مربط دوابّي. إن بلغني أنّه ربطها في مربط خيلي بعد اليوم لا تلومنّ إلّا نفسك فقال سمعاً وطاعة ثمّ إنّ الجلّولي جاء ونزل على عادته وأخذ سائسه البغلة والسائس كان غائباً وصعد هو إلى مجلس صاحب الطابع وجلس وبينما هو جالس إذ سمع هيصة[1] وصياحاً فنظر من أحد الشبابيك فرأى بغلته تركض عائرة وسائسه مضروباً والدم ينبع من رأسه فانزعج ونزل فأخبره سائسه أنّ كبير السيّاس[2] جاء ووجد البغلة مربوطة فأطلقها وضربها فخرجت عائرة فسمعت بذلك فقلت له لِمَ تطلق بغلة سيّدي فشتمني وشتمك فرددت عليه فضربني وترك حالي كما ترى

١٧،١،٢ فرجع الجلّولي إلى صاحب الطابع وهو مغضب وقال له أتطلق بغلتي ويضرب خادمي وأنت موجود فلم يلتفت إليه ولم يردّ عليه جواباً فزاد حنقه وعلم أنّ الخادم لا يفعل مثل هذا الفعل إلّا بإذن سيّده فنزل وركب من ساعته وتوجّه إلى الحضرة ودخل على المرحوم حمّودة باشا وشكا له جميع ما قد جرى عليه من صاحب الطابع فما أشكاه ولا التفت إليه فكاد يتميّز من الغيظ ونزل من الحضرة وتوجّه لداره كئيباً حزيناً لا يدري ماذا يصنع فاجتمع عليه بعض أصحابه ورآه على تلك الحالة فسأله عن سبب حزنه فأخبره الخبر فلام عليه فيما صنع لا سيّما في شكواه للباشا وقال له أما تعلم أنّ صاحب الطابع هو المقبول وكلمته هي المسموعة أتريد أن تعاديه وتشكوه للباشا ويسمع لك عليه دعوى بئسما فعلت وساء ما توهّمت أدرك نفسك وتلافَ أمرك وإلّا حلّ بك ما يحلّ من التلف وأنت المذموم أما سمعت قول الشاعر [كامل]

١ الأصل: هيضة. ٢ الأصل: السايس.

وَإِذَا ٱلْعِنَايَةُ صَادَفَتْ عَبْدَ ٱلشِّرَا تَمْشِي عَلَى سَادَاتِهِ أَحْكَامُهُ

١٨،١،٢ فقال الجلّولي والخروج من هذا الأمر والحيلة في الخلاص منه ؟ قال له صاحبه اعلم أنّ المال إذا لم يبذله صاحبه في مثل هذا المهمّ كان هو وحجارة[١] الدار سواء والحيلة أن تحتفل في هديّة سنيّة وتقدّمها بين يدي صاحب الطابع وتتوسّل إليه بأعزّ أحبابه عليه لحضرة ابن أبي الضِيَاف وقاسم البوّاب وصالح أبي غُدَيِّر وأضرابهم وتبذل لهم من المال ما يرضيهم وينشطهم للشفاعة لأنّ المال لا يطلب إلّا لمثل هذا المهمّ فأخذ الجلّولي نصيحته بقبول واحتفل في هديّة عظيمة منها سيف لا يُقوَّم بمال لحسن جوهره وخاتم من الماس عظيم لا يقوّم أيضاً وخنجر مرصّع بماس وياقوت وعلبة نشوق وساعة مرصّعتين وعشرة آلاف محبوباً وأخذ مالاً جزيلاً غير هذا وتلطّف حتّى اجتمع بأصحاب صاحب الطابع وأخبرهم أنّه متوسّل بهم إليه أن يتوسّلوا له في العفو وبذل لهم ما أرضاهم وسلّمهم الهديّة فأخذوها وذهبوا إلى صاحبهم وأخبروه أنّ الجلّولي جاء معتذراً يطلب عفو سعادته وأطلعوه على الهديّة وزيّنوا له أمر الصلح والعفو عنه وترك الانتقام منه إلّا إن عاد لمثلها

١٩،١،٢ فشرهت نفسه الهديّة وقبلها وعفا عنه وأمرهم بإحضاره وأن يبالغوا في وصيّته على سلوك طريق الأدب وأن يترك ما كان عليه من التكبّر ولا يرى لنفسه على غيره فضلاً بل يقف على قدم العبوديّة لأنّه هو وأحد القوّاد عندنا على حدّ سواء وإن عاد إلى مثلها لا يلومنّ إلّا نفسه فامتثلوا أمره وأحضروه وبالغوا في وصيّته ثمّ أدخلوه على صاحب الطابع فلمّا رآه بشّ في وجهه وأمره بالجلوس وأجلّ مجلسه واعتنى به ولم يفاوضه في شيء ممّا كان ثمّ إنّ صاحب الطابع كتب إلى مخدومه الباشا وأعلمه بما وقع من الجلّولي ومنه وأنّ الجلّولي استرضاه بهديّة وأنّه رضي عنه وأرسل الهديّة صحبة الكتاب فلمّا وصله الكتاب قرأه وأحضر الهديّة ونظرها ثمّ ردّها إليه وكتب له ما صورته قد بلغنا كتابك وفهمنا ما انطوى عليه ووقعت منّا الهديّة أحسن موقع

---

١ الأصل: كان حجارة.

لكنّا رأينا كلّ ما فيها يصلح لك لا لنا فقد رددناها عليك وسامحناك فيها لأنّك شابّ وتحبّ الزينة ونحن بمَعْزَل عن ذلك وأمّا العشرة آلاف فاصرفها في مصالح العسكر وقد رضينا عن الجلّولي لرضاك عنه والسلام ولمّا كان من الغد دخل الجلّولي على الباشا فأعظم ملقاه ورحّب به وأضاف له عملاً على ما بيده من الأعمال وصار في أحسن حال فتأمل رحمك الله في هذه القضيّة بعين الاعتبار. أترى أنّ الجلّولي لو لم يبذل هذا المال أكان يرجع لحاله الأوّل لا والله بل تؤخذ من يده الأعمال وربّما قُتِلَ في الحال

٢٠،١،٢ وإذ قد انجرّ الكلام إلى سيرة المرحوم حمّودة باشا ووزيره المرحوم يوسف صاحب الطابع فلنذكر نبذة من سيرتهما لأنّ المقصد ألّا تخلو رحلتنا عن الفوائد الجميلة ولا أجمل من ذكر الملوك العادلين الذين حسنت سيرتهم فتنعّمت بهم رعيّتهم ونبدأ بذكر الباشا فنقول هو المولى الأجلّ الفاضل العادل الفطن الحازم أبو محمّد حمّودة باشا بن عليّ باشا بن حسين باشا بن عليّ ولد ليلة السبت الثامنة عشر من ربيع الثاني سنة ١١٧٣ وبويع له يوم وفاة أبيه سنة ١١٩١ وتوفّي ليلة عيد الفطر ١٢٢٩. كان من الحزم وحسن الرأي والعدل بمكان شجاعًا مهابًا عفيف النفس عالي الهمّة. أنشأ بستان منوبة المشهور الآن الذي أخفى ذكر بستان أبي فِهْر الذي قال فيه أبو عبد الله محمّد الوِرغيّ [بسيط]

وَقِفْ هُنَا بِأَبِي فِهْرِ ٱلْجَمِيلِ فَقَدْ ... مَضَتْ بِهِ دَوْلَةُ ٱلشُّمِّ ٱلْعَرَانِينِ
تَرَى ٱلْحَنَايَا كَسَطْرِ ٱلنَّخْلِ مَدَّ بِهِ ... بَعْضٌ لِبَعْضٍ بِمَحْنِيِّ ٱلْعَرَاجِينِ
أَوْ خُرَّدٍ نَهَضَتْ لِلرَّقْصِ فَٱعْتَنَقَتْ ... كَيْلَا تَجِيءَ بِرَقْصٍ غَيْرِ مَوْزُونِ

٢١،١،٢ وسوّر على تونس السور العظيم وحصّنها بالأبراج والمدافع وشحن الأبراج بالعسكر ورفع التلال التي كانت بين تونس والبحيرة وقد كانت مثل الجبال العظيمة مانعة لجودة الهواء يخشى على البلد منها وهي من مدّة دولة بني حفص فاجتهد في نقلها في مدّة سبع سنين حتّى ترك محلّها مزرعة عظيمة وكشف بذلك غمّة أهل تونس وأنشأ

محلاًّ لإنشاء المدافع العظيمة وحصّن حلق الواد بالأبراج والأبنية العجيبة بحيث صار لا تدخله فلوكة إلّا ويفتح لها بابان وبنى قلعة الكاف وأخرج تونس وأعمالها من ربقة الرقّ من أهل الجزائر إلى الحرّيّة المطلقة وكان مظفّرًا ميمونًا لا يعاديه أحد إلّا خذل فلم تقدر له أهل الجزائر على شيء ومن سعادته أنّه استوزر يوسف صاحب الطابع المذكور وأطلق يده في جميع الأمور كما قدّمناه فكان يوسف المذكور جيّد الرأي حسن التدبير عالي الهمّة محبًّا للعلماء وأهل الفضل مجبولاً على فعل الخير جوادًا مهابًا

٢٢،١،٢ بنى الجامع المشهور به الآن بسوق الحلفاوين[1] بتونس وبنى بإزائه مدرسة عظيمة لطلب العلم ورتّب فيها وفي الجامع رواتب جليلة منها أنّه جعل نظر المدرسة لأوحد أهل زمانه علماً وديانة المولى الأجلّ الأديب البارع سيّدي الشيخ إبراهيم الرِياحيّ شيخنا وشيخ المشايخ الآن بتونس وشرط عليها قراءة درسين في كلّ يوم درس في الفقه ودرس في التفسير وزاد الشيخ من نفسه درساً في الحديث ودرساً في النحو وصرف صاحب الطابع على بناية الجامع والمدرسة المذكورين مالاً جزيلاً حتّى أنّ جامعه الآن في الحسن والإتقان أعظم جامع يوجد بتونس بل يمكن ألّا يوجد أتقن منه ولا أعجب منه وإن كان صغيرًا إلّا فيما لم نشاهده ولقد رأيت عدّة جوامع بالقاهرة وبطرابلس الغرب وبالمورة والحجاز فلم أر أتقن منه اللّهمّ إلّا أن يقال إنّ الجامع الأمويّ بدمشق أو جامع القرويّين بفاس أو جامع أياصوفيا بقسطنطينيّة أعظم منه وبنى أمام الجامع سوقاً عظيماً للتجّار وبنى فوقه سراية عظيمة لجلوسه وأنشأ عدّة مكاتب وموارد في جملة مواضع

٢٣،١،٢ ولقد رأيت أحد الموارد التي أنشأها مكتوب عليها تأريخ لشيخنا العلامة الشيخ إبراهيم الرياحيّ وصورته [مجزوء الرجز]

ذَا مَوْرِدٌ جَـادَ بِـهِ   رَاجِي ثَوَابِ رَبِّـهِ
يُوسُفُ خُوجَةُ ٱلرِّضِي   صَاحِبُ طَابِعِ ٱلْبَهِي

[1] الأصل: الحَلَفَاوِيِّين.

فَخْرِ ٱلْعُلَى حَمُّودَةٍ بَاشَا وَذَا مِنْ سَيْبِهِ
يَا وَارِدًا أُدْعُ وَقُلْ تَارِيخَهُ بِشُرْبِهِ
١٢٠٩

وهو على طريقة أيقش أي طريقة حساب المغاربة قلت وهذا التأريخ أعني قوله بشربه غير بليغ أي ليس فيه من المعنى شيء حسن وأين هذا من تأريخ الأديب البارع المولى الشيخ محمّد شهاب الدين المصريّ في السبيل الذي أنشأه محمود أفندي بالمحروسة الكائن بين الأزهر والمقام الحسينيّ وصورته [بسيط]

يَا وَارِدًا سَلْسَبِيلًا رَاقَ مَنْهَلُهُ اِشْرَبْ هَنِيئًا فَهَذَا ٱلْعَذْبُ مَوْرُودُ
وَٱنْظُرْ إِلَى حُسْنِهِ وَٱلسَّعْدُ أَرَّخَهُ سَبِيلُهُ عَاطِفٌ لِلْخَيْرِ مَحْمُودُ
١٠٧ ١٦٠ ٨٧٠ ٩٨
١٢٣٥

ومن بعض تواريخ أديب زمانه الشيخ عليّ الدرويش في كسوة البيت الحرام ونصّه ٢٤،١،٢ [مجزوء الرجز]

يَا نُورَ نَاظِرٍ كِسْوَةٍ يَزْهُو بِهَا خَزٌّ وَبَزْ
بُشْرَى خَلِيلٍ نَاظِرًا فَلَهُ بِهَا سَعْدٌ نَجَزْ
وَٱلسَّعْدُ قَالَ مُؤَرِّخًا سِتْرٌ لِبَيْتِ ٱللهِ عَزْ
٦٦٠ ٤٤٢ ٦٦ ٧٧
١٢٤٥

وأين هذا التاريخ من تاريخَيَّ اللذين[1] نظمتهما للمرحوم السيّد محمّد المحروقيّ حين أنشأ الزاوية التي تجاه زاوية الشيخ العفيفيّ بالقرافة الصغرى والمورد الذي أنشأه ببركة الرَطْليّ بالمحروسة ونصّ الأوّل [كامل]

أُنْظُرْ لِزَاوِيَةٍ تَكَامَلَ حُسْنُهَا وَصَبَا إِلَيْهَا لُبُّ كُلِّ مَشُوقِ
وَبَدَتْ بِإِتْقَانٍ فَأَعْجَزَ وَصْفُهَا ذَا ٱلنُّطْقِ بِٱلْمَفْهُومِ وَٱلْمَنْطُوقِ
وَقَدِ ٱسْتَضَاءَتْ بِٱلسِّيَادَةِ أَرِّخُوا مَلِئَتْ بِنُورِ ٱلسَّيِّدِ ٱلْمَحْرُوقِي

٤٨٠ ٢٥٨ ١٠٥ ٣٩٥

١٢٣٨

ونصّ الثاني [طويل]

تَأَمَّلْ لِمَا شَادَتْ يَدُ ٱلْعِزِّ وَٱلْبَهَا تَرَى مَوْرِدًا بِٱللُّطْفِ وَٱلْحُسْنِ قَدْ زَهَا
وَقَدْ شَادَهُ مِنْ نَسْلِ أَكْرَمِ مُرْسَلٍ هُمَامٌ لَهُ مَجْدٌ عَلَا[2] ذُرْوَةَ ٱلسُّهَا
مُحَمَّدُ ٱلْمَحْرُوقِيُّ أَنْشَاهُ رَاجِيًا ثَوَابَ إِلٰهٍ حَدُّهُ مَا لَهُ ٱنْتِهَا
وَمُذْ تَمَّ قَالَ ٱلسَّعْدُ لِلشَّرْبِ أَرِّخُوا زُلَالٌ شِفَاءٌ جَيِّدٌ وَهْوَ مُشْتَهَى

٦٨ ٣٨١ ١٧ ١٧ ٧٥٥

١٢٣٨

توفّي المرحوم يوسف خوجة صاحب الطابع في شهر صفر سنة ١٢٣٠ ومات قتيلاً وطيف بِشِلْوِهِ يُجَرّ في الأسواق بعد أن كان البصر يخشى أن يمتدّ إليه فسبحان المعزّ المذلّ ورثاه شيخنا العلاّمة الشيخ إبراهيم الرياحيّ بأبيات كتبت على قبره وهي هذه [مجزوء الكامل] ٢٥،١،٢

لله قَدْ وَجَبَ ٱلدَّوَامْ وَسِوَاهُ نَهْبٌ لِلْحِمَامْ
سِيَّانِ فِي تَنْغِيصِهِ عَالٍ وَمُنْخَفِضُ ٱلْمَقَامْ
أَيْنَ ٱلْمُلُوكُ وَأَيْنَ مَنْ كَانَتْ لَهُمْ تُرْعَى ٱلذِّمَامْ
لَمْ يَظْفَرُوا بِسِوَى ٱلَّذِي عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ فَدَامْ
هٰذَا ٱلَّذِي بِصَنِيعِهِ قَدْ رَامَهُ هٰذَا ٱلْهُمَامْ
مِنْ فِعْلِ خَيْرٍ عَزَّ أَنْ يُغْنَى ٱلْأَنَامُ عَنِ ٱلْغَمَامْ

وَجَوَامِعٍ وَمَكَاتِبٍ وَمَوَارِدٍ تَسْقِي ٱلْأُوَامْ
اَللهُ يَرْحَمْ يُوسُفًا خَتْمَ ٱلْكِرَامِ بِلَا كَلَامْ
لَا غَرْوَ أَنْ أَرَّخْتُهُ بِمَمَاتِهِ يَتِمِّ ٱلْكِرَامْ

٤٨٨ ٤٥٠ ٢٩٢

١٢٣٠

٢٦،١،٢ ولنرجع إلى ما نحن بصدده ثمّ إنّ جدّي خرج من مكّة المشرّفة إلى بندر أي مرسى جدّة ومكث ينسخ الكتب بالأجرة وكان جميل الخطّ كما قدّمنا فاتّفق أنّه اجتمع في تلك المدّة بأناس من أهل جزيرة سِنّار وتودّد إليه بعضهم وارتبطت بينهم صحبة فسأله من أيّ البلاد أنت فقال من تونس فسأله عن سبب إقامته بجدّة فأخبره بقصّته وما جرى عليه فقال له السنّاريّ ألا تتوجّه معنا إلى مدينة سنّار ويحصل لك العزّ والافتخار لأنّ مَكّنا أي مَلِكَنا رجل مبسوط اليد لا يبالي بلجين ولا عسجد. يحبّ الفضل وأهله ويحلّ كلاًّ منهم محلّه وينيل الأشراف بما يقدر عليه من الإسعاف وأنا ضامن لك إن ذهبت معنا أن يجبر كسرك ويسدّ خللك وتصبح ذا مال ونوال ورقيق وجمال فطمع جدّي في نوال الملكّ المذكور وتوجّه معهم يأمل الفرح والسرور وحين وصل معهم إلى جزيرة سنّار قابلوا به الملكّ وأعلموه أنه رجل من أهل العلم غريب الديار قد انكسرت سفينته وضاع ما كان حيلته فرحّب به وأعظم ملقاه وبشّره باليسر وهنّاه وأنزله دار إكرامه وأمر له بجزيل إنعامه فكان فيما أنعم عليه به جارية مَكاديّة بهيّة سنيّة غالية القيمة تسمّى حليمة فتسرّاها جدّي لجمالها فجاءت بغلام وجارية مثالها وأجرى عليه رزقًا فاستقرّ جدّي بسنّار ونسي أهله بتونس وأولاده الصغار

٢٧،١،٢ وكان حين خروجه من تونس ترك ثلاثة أولاد مع أمّهم أكبرهم عمّي المرحوم السيّد محمّد كان عمره تسع سنين وأوسطهم المغفور له والدي وكان عمره ستّ سنين وأصغرهم عمّي المرحوم السيّد محمّد طاهر وعمره ثلاث[1] سنين هكذا سمعت من

[1] الأصل: ثلاثة.

والدي وجدّتي عليهما سحائب الرحمة والعهدة عليهما فانحنى عليهم خالهم المولى الأجلّ الأكمل الأمثل الفقيه المحدّث العالم الفاضل السيّد أحمد ابن العلاّمة الرُحَّل السند السيّد سليمان الأزهريّ صاحب التصانيف العديدة والتآليف المفيدة.
كان السيّد أحمد عالماً فاضلاً ثقة حجّة في المنقول عرض عليه منصب القضاء بتونس فامتنع منه وكان مشتغلاً بالتدريس وولي وظيفة التدريس بمدرسة عليّ باشا الأوّل فلازمها وأصيب في آخر أمره بداء أزمنه فكان يقرأ الدروس في داره وتحضره أكابر طلبة العلم والفضلاء ولم يزل كذلك حتّى شبّ والدي وبلغ مبلغ الرجال وكان حفظ القرآن وحضر بعض دروس في العلم على خاله وغيره وبينما هو كذلك إذ تحرّك شوقه إلى الحجّ فاستشار خاله في السفر فتحرّك شوقه هو أيضاً فتجهّزا للسفر معاً وركبا البحر من تونس إلى إسكندريّة ومنها إلى مصر ومن مصر توجّها إلى القُصَيْر وكان ذلك قبل أشهر الحجّ

٢٨،١،٢ وبينما هما سائران في القافلة إذ عرضت لهما قافلة قادمة من سنّار فناداهما مناد يا أيّها المغاربة هل فيكم أحد من تونس فقال أبي نعم نحن منها فقال هل تعرفون السيّد أحمد بن سليمان فقال أبي نعم نعرفه ومن أنت قال أنا نسيب أحمد قد خرجت من تونس منذ كذا وكذا وتركت أولادي وأهلي ولا أدري أهم أحياء أم أموات وكان خال أبي في شِبْرِيَّة مرخى عليها ستر فسمع ذلك كلّه فقال لأبي يا عمر سلّم على أبيك فأكبّ والدي يسلّم على أبيه ويقبّل يده وأعلمه أنّه خاله في الشبرية فجاء جدّي وسلّم على نسيبه[1] وبعد انقضاء السلام قال أبي لوالده أيسوغ لك أن تتركنا هذه المدّة بدون نفقة ونحن صغار ولولا أنّ الله سخّر لنا خالنا كنّا ضائعين فقال والده[2] ما حيلتي والقضاء والقدر يجريان على وفق الإرادة العليّة مفرد [كامل]

إِنَّ ٱلْمُقَــدَّرَ كَائِنٌ لَا يَنْـمَحِي   وَلَكَ ٱلْأَمَانُ مِنَ ٱلَّذِي مَا قُدِّرَا

---

١ الأصل: ان. ٢ الأصل: والدي.

فقال أبي لوالده ألم يَأْنِ لك أن ترجع إلى بلدك وتقرّ أعيننا برؤيتك فقال يكون ذلك إن شاء الله قال له والدي متى قال أنا الآن متوجّه إلى القاهرة أبيع ما معي من الرقيق وأرجع إلى سنّار وآخذ متاعي وأولادي وآتي إلى القاهرة وأنتما تتوجّهان للحجّ وترجعان إلى القاهرة فنجتمع هناك وكلّ من سبق صاحبه انتظره هناك ثمّ ودّعهما وتوجّه كلّ منهم إلى سبيله على حدّ قول الشاعر [كامل]

لَمْ أَسْتَتِمَّ سَلاَمَهُ لِقُدُومِهِ   حتّى ٱبْتَدَأْتُ سَلاَمَهُ لِوَدَاعِهِ

٢،١،٢٩ فتوجّه والدي وخاله إلى الحجّ وتوجّه جدّي إلى المحروسة أمّا جدّي فباع رقيقه وتسوّق ورجع إلى سنّار وأمّا والدي وخاله فتوجّها إلى الحجاز ومكثا بالطائف حتّى جاء وقت الحجّ فقدما مكّة وحجّا وبعد انقضاء الحجّ توفّي خاله في مكّة المشرّفة ودفن بباب المُعَلّى ثمّ رجع والدي إلى القاهرة فما وجد أباه فأقام ينتظره مدّة فلم يأت وكان أبي في هذه المدّة يحضر دروساً في[1] العلوم بالجامع الأزهر ولمّا أعياه الانتظار توجّه إلى سنّار مع قافلة أتت فلمّا وصل إليه وجدّه قارًّا في داره مغتبطاً بأولاده وعياله لا يسأل عن غيرهم ولا يخطر له السفر على باله فسأله عن سبب خُلْف الوعد ولِمَ جعل الهزل مكان الجِدّ فاعتذر بعذر ساقِط لا يجد له لاقِط فقال له يا بنيّ إنّ لي ديوناً على بعض الناس ماطلوني في دفعها ولا يمكنني الارتحال إلّا بعد خلاصها على كلّ حال ليستقيم بها أودي ويقوى في السفر عضدي فمكث معه نحو ستّة أشهر وبعد ذلك تجهّزت قافلة إلى الأقطار المصريّة فسأل أبي والده في أحد أمرين بأن قال له هذه القافلة متوجّهة فإمّا أن تتوجّه بنا صحبتها أو تأذن لي بالتوجّه معها فأبى عليه فيهما[2] وقال أمّا الذهاب فلا سبيل إليه لما عليّ في تونس من الأموال لا سيّما وقد أُخْبِرْتُ بأنّ أمّك تزوّجت وأمّا الإذن لك فيكون لكن في قافلة أخرى إن شاء الله تعالى حتّى أجمع لك ما تسافر به من الرقيق والجمال والذهب والأحمال بحيث أنّك لا تعود إلّا مجبور الخاطر فأبى والدي المكث واستطالة[3] اللبث وقال إنّي مشتاق أطلب العلم

١ أضيف للسياق: دروس في. ٢ الأصل: فيها. ٣ الأصل: استطال.

وفي إقامتي هنا ضياع زمن بغير فائدة فاختلف رأيهما وحصلت بينهما وحشة فخرج والدي مغضباً وتوجّه مع القافلة لا يملك شيئاً فألحقه والده بعد ثلاثة أيّام بثلاثة جمال وأربع جواري وعبدين وعلى الجمال أهبة السفر من مؤونة وماء وعلى أحد الجمال حمل صمغ فأخذها والدي وسار صحبة القافلة وبينما هم سائرون إذ ضلّوا عن الطريق وأدركهم العطش وطال عليهم الأمد فمات الرقيق والجمال ورجع إلى مصر فقيراً كما كان مفرد [طويل] ٣٠،١،٢

إِذَا أَقْـبَلَتْ كَانَتْ تُقَـادُ بِشَعْـرَةٍ   وَإِنْ أَدْبَـرَتْ كَانَتْ تَقُدُّ ٱلسَّلَاسِـلَا

فمن لطف الله عزّ وجلّ مرض خبير القافلة بصداع أحرمه الهجوع وعجز عن شفائه الجموع وبلغ والدي هذا الخبر فكتب رقعة وأخذها الخبير باعتقاد ووضعها على محلّ الألم فبرئ لوقته فاعتقد في والدي الصلاح وأمر أن يُحمل ويُحمل له عِدْل صمغ على إبله

فوصل والدي إلى القاهرة بعد غصّ الريق وباع عدل الصمغ بخمسة وسبعين فُنْدُقْلِيّ ودخل الجامع الأزهر لطلب العلم وتزوّج والدتي إذ ذاك ومكث معها نحو سنتين جاءت منه بولد سمّاه أحمد عاش سنة وثلاثة أشهر ثمّ مات فحزن عليه وتمثّل بقول الشاعر مفرد [الشطر الأول من الطويل والشطر الثاني من الرجز] ٣١،١،٢

لَقَدْ خَانَتِ ٱلْأَيَّامُ فِيكَ فَقَرَّبَتْ   يوِمَ ٱلرَّدَى مِنْ لَيْـلَةِ ٱلْمِيـلَادِ

وبقول الآخر [كامل]

عَجَباً لِمَوْلُودٍ قَـضَى مِنْ قَبْلِ أَنْ   يَقْـضِي لِأَيَّامِ ٱلصِّـبَا مِيـقَـاتَا
فَكَأَنَّهُ مِنْ نُسْكِهِ وَصَـلَاحِـهِ   وَهَبَ ٱلْحَيَـاةَ لِوَالِدَيْـهِ وَمَـاتَا

وبقول التهاميّ في ولده [كامل]

يَا كَوْكَبًا مَا كَانَ أَقْصَرَ عُمْرَهُ وَكَذَا تَكُونُ كَوَاكِبُ ٱلْأَسْحَارِ

٣٢،١،٢ ثمّ إنّ والدي توجّه إلى تونس وأخذ أمّي وأمّها معه وكنت إذ ذاك حملاً فلمّا وصل إلى تونس نزل بدار أخيه المرحوم السيّد محمّد وكان من مشاهير المعلّمين بسوق الشواشيّة أي الطرابيشيّة[١] فولدت بعد ذلك بخمسة أشهر في الساعة الثالثة من يوم الجمعة منتصف ذي[٢] القعدة سنة ١٢٠٤ ومكث بعد ذلك نحو ثلاث سنين ثمّ حصلت بينه وبين أخويه وحشة فقفل بنا إلى القاهرة سنة ١٢٠٧ فصار يطلب العلم في الأزهر ويحضر[٣] درس العلاّمة المرحوم الشيخ عرفة الدسوقيّ المالكيّ وشيخ مشايخنا العالم الأوحد المرحوم الشيخ محمّد الأمير الكبير وتولّى نقيباً بـرواق السادة[٤] المغاربة وكان في عيش متوسّط وما زال كذلك إلى أن دخلت سنة ١٢١١ وورد عليه كتاب من أخيه لأبيه من سنّار مع القافلة مضمونه بعد السلام إنّ والدنا توفّي إلى عفو الله تعالى وترك جملة من الكتب فسرقها منّا رجل يسمّى بأحمد البَنْزَرْتيّ أمّنّاه على بيتنا لأنّه ادّعى القرابة لوالدنا وبقينا في حالة تسرّ العدوّ وتسيء[٥] الصديق فإذا وصلك كتابي هذا عجّل بالقدوم علينا لتأخذنا معك نعيش بما تعيش به والسلام فلمّا قرأ الكتاب بكى واستعبر وأخذته الشفقة على أخويه فتعجّل وسافر إليهما وكنت إذ ذاك ابن سبع سنين قد ختمت القرآن بداية ووصلت في العيادة[٦] آخر آل عمران وكان لي أخ عمره أربع سنين وترك لنا نفقة تكفينا ستّة أشهر فمكثنا سنة باعت فيها والدتي أشياء كثيرة من نحاس وحليّ

٣٣،١،٢ ثمّ جاء عمّي الصغير المسمّى بالطاهر فانحنى علينا يربّينا وكان قد جاء للحجّ والتجارة ومعه ولد كالشمس الضاحية في السماء الصاحية اسمه محمّد وكان أسنّ منّي بنحو سنة ونصف فكان يذهب معي إلى المكتب لقراءة القرآن حتّى سافر به والده إلى الحجّ آخر سنة ١٢١٢ ثمّ دخلت الفرانسيس القاهرة وملكوها في أوّل سنة ١٢١٣ وكان عمّي إذ ذاك مع الحجّاج فهربت الغُزّ وتمزّقوا كلّ ممزّق ودخل الحجّاج فوجدوا

١ الأصل: طرابيشة. ٢ الأصل: ذا. ٣ الأصل: تحضر. ٤ الأصل: لسادة. ٥ الأصل: تسيء. ٦ الأصل: العبادة.

الفرنسيس في مصر وأعمالها ومكثوا كذلك إلى أوّل سنة ١٢١٦ ثمّ جاء الوزير بالعساكر وخرجت الفرنساويّن وكان ابن عمّي المذكور قد حفظ القرآن وابتدأ يحضر دروس العلم وكان من الحياء والأدب بمكان فوقعت في تلك السنة أمراض وبائيّة وألمّت بابن عمّي المذكور فأخرجته من القصور إلى القبور بل للملاعبة مع الحور ولمّا قضي عليه حزن عليه والده أشدّ الحزن حتّى كاد يهلك أسفاً ويدخل رمسه توجّعاً ولهفاً ورحم الله القائل [رجز]

اَلنَّاسُ لِلْمَوْتِ كَخَيْلِ ٱلطِّرَادْ فَٱلسَّابِقُ ٱلسَّابِقُ مِنْهَا ٱلْجَوَادْ
وَٱلْمَوْتُ نَقَّادٌ عَلَى كَفِّهِ جَوَاهِرٌ يَخْتَارُ مِنْهَا ٱلْجِيَادْ وكره

المقام بمصر لخلوّها من ولده وفلذة كبده وفى ذلك قلت [وافر]

إِذَا رَحَلَ ٱلْحَبِيبُ مِنَ ٱلدِّيَارِ كَرِهْتُ لِبُعْدِهِ تِلْكَ ٱلدِّيَارَ

فأراد أن يبرّد ناره ويوارى أواره بحجّ بيت الله الحرام ورؤية قبر نبيّه عليه الصلاة والسلام ولله درّ من قال [كامل]

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ ٱلْهَوَى مَا ٱلْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ ٱلْأَوَّلِ

وفى هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي فانّها أعظم المصائب [كامل]

اِصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
وَإِذَا أُصِبْتَ بِفَقْدِ مَنْ أَحْبَبْتَهُ فَٱذْكُرْ مُصَابَكَ بِٱلنَّبِي محمّد

فتوجّه الى الحجاز وتركنى بمصر لطلب العلم بالأزهر وأبقى لى نفقة تكفينا أربعة أشهر ومكث هو أكثر من ذلك فنفدت وضاق ذرعي لذلك وأنا إذ ذاك فى شرخ الشباب ٣٤،١،٢

فبقيت متحيّرًا لا أدري ما أصنع واستنكفت أن أترك طلب العلم وأتعلّم إحدى الصنائع وبينما أنا متحيّر فى طلب المعاش وضيق الصدر لعدم الارتياش إذ بلغنى أنّ قافلة وردت من بلاد السودان من دارفور وكان قبل ذلك بلغنا أنّ والدى توجّه من سنّار إليها صحبة أخيه فلمّا استقرّت بوكالة الجلاّبة توجّهت إليها لأسأل عن أبي أهو حيّ يُتوقّع أم أودع اللحد البلقع فلقيت على سبيل المصادفة رجلا من أهل القافلة مسنًّا ذا هيبة ووقار يسمّى السيّد أحمد بدويّ فقبّلت يده ووقفت أمامه برهة فسألنى بلطف وقال لى ماذا تريد قلت أسأل عن رجل غائب لي في بلدكم لعلّ يعرفه منكم أحد يدلّنى عليه فقال من هو وما أسمه فقلت اسمه السيّد عمر التونسيّ وهو رجل من أهل العلم فقال على الخبير به سقطت هو صاحبي وأنا أعرف الناس به وأرى بك شبهاً له فكن ابنه فقلت أنا هو على تغيّر حالي وتبلبل بالي فقال يا بنيّ ما يقعدك عن اللحاق بأبيك لترى عنده ما يهنّئك قلت قلّة ذات يدي واعتدادي وعُدَدي فقال إنّ أباك من أعظم الناس عند السلطان وأكرمهم عليه دون أهل الديوان وإن أردت التوجّه إليه فأنا عليّ مؤونتك ومركوبك وراحتك حتّى تصل إليه وتقف بين يديه فقلت أحقّ ما تقوله فقال إي وحياة الرسول لأنّ أباك فعل معي معروفاً لا أقدر على مكافأته فيه ولو بذلت جميع ما تملكه يدي وتحويه فقلت أنا أطوع لك من نعلك وأتبع من ظلّك فعاهدته على ذلك واستوثقت منه هنالك وجعلت أتردّد عليه حتّى تأهّب وقال لي السفر غداً فإن شئت بتّ عندنا لنصبح على السفر مُبَكِرين فقلت على الرأس والعين

٣٥،١،٢ فبتّ عنده في ألذّ عيش وأهناه وأحسن حال وأصفاه إلى أن لاح ابن ذُكا والتحف الجوّ بالضيا. نهضنا للمكتوبة فأديناها وأبرزنا الحمول وأخرجناها وجيء حينئذ بالجمال وحُمّلت عليها الأحمال فما ذَرَّ قرن الغزالة إلّا وقد تمّ التحميل وأخذت العيس في الذَّمِيل ولا زالت كذلك حتّى أنيخت بالفسطاط على شاطئ النيل وابتدئ في شحن الفُلْك بها حتّى تمت كلّها ثمّ صبرنا حتّى صلّينا الجمعة خلف الإمام ونزلنا الفلك وودّعنا مصر بسلام

الباب الثاني[1]

الرحلة من الفسطاط إلى دارفور[2]

١،٢،٢ لمّا امتطينا الدهماء لهذا السفر العظيم قلنا ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولمّا أقلعنا عن ساحل الفسطاط ناويين البعد والشطاط تذكّرت متاعب الأسفار وما يحصل فيها من الأخطار خصوصاً لمن كان حاله كحالي في الفقر المُدْقِع والعسر المُصْقِع وتوسوس صدري وانزعج وبقيت في مشقّة وحرج لا سيّما وقد وجدت نفسي مع غير أبناء جنسي بل بين أقوام لا أعرف من حديثهم إلّا القليلْ ولا أرى فيهم وجهاً صبيحاً جميلْ فقلت ودمعي بادي [وافر]

فَجِسْمُكَ مَعْ ثِيَابِكَ وَٱلْمُحَيَّا سَوَادٌ فِي سَوَادٍ فِي سَوَادِ

وندمت على تغريري بنفسي مع أبناء حام وتذكّرت ما بينهم من العداوة لأبناء سام فداخلني من الهلع ما لا أقدر على وصفه حتّى كدت أن أطلب الرجوع إلى الربوع

٢،٢،٢ ثمّ أدركتني ألطاف الله الخفيّة وتذكّرت ما مُدحت به الأسفار على ألسنة البلغاء الأدبيّة خصوصاً ما ورد في الأثر عن خالق البشر سافِرْ أُحْدِثُ لك رزقاً جديداً وإنّ أفضل الأنام سافر من مكّة إلى الشام وقد قالت العلماء إنّ السفر يسفر عن أخلاق الرجال وهو المميّز للذكور عن ربّات الحجال وقد قيل إنّ الدرّ لو لم ينقل من معدنه

١ الأصل: الباب الثاني من المقدمة. ٢ أضيف للسياق: الرحلة من الفسطاط إلى دارفور.

لما رُصعت به التيجان ولو لم يسر البدر لكان في غاية النقصان قال الشاعر [كامل]

سافِرْ تَنَلْ رُتَبَ ٱلْمَكارِمِ وَٱلْعُلى فَٱلدُّرُّ سارَ فَصارَ فِي ٱلتِّيجانِ
وَٱلْبَدْرُ لَوْلا سَيْرُهُ فِي أُفْقِهِ ما كانَ إِلَّا زائِدَ ٱلنُّقْصانِ

وقال الآخر [طويل]

تَغَرَّبْ عَنِ ٱلْأَوْطانِ فِي طَلَبِ ٱلْعُلى وَسافِرْ فَفِي ٱلْأَسْفارِ خَمْسُ فَوائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ وَٱكْتِسابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَآدابٌ وَصُحْبَةُ ماجِدِ
وَإِنْ قِيلَ فِي ٱلْأَسْفارِ ذُلٌّ وَغُرْبَةٌ وَتَشْتِيتُ شَمْلٍ وَٱرْتِكابُ شَدائِدِ
فَمَوْتُ ٱلْفَتى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَياتِهِ بِأَرْضِ هَوانٍ بَيْنَ واشٍ وَحاسِدِ

ولله درّ الطُغرائيّ حيث يقول [بسيط]

إِنَّ ٱلْعُلى حَدَّثَتْنِي وَهْيَ صادِقَةٌ فِيما تُحَدِّثُ أَنَّ ٱلْعِزَّ فِي ٱلنُّقَلِ
لَوْكانَ فِي شَرَفِ ٱلْمَأْوى بُلُوغُ مِنًى لَمْ تَبْرَحِ ٱلشَّمْسُ يوماً دارَةَ ٱلْحَمَلِ

٣،٢،٢ على أنّي لوكنت أقمت بالقاهرة في هذا الحال ماكنت أرى فيها إلّا الوبال وحينئذ تمثّلت بقول الطغرائيّ المفضال حيث قال [بسيط]

فِيمَ ٱلْإِقامَةُ بِٱلزَّوْراءِ لا سَكَنِي فِيها وَلا ناقَتِي فِيها وَلا جَمَلِي

وبقول الآخر [بسيط]

اِرْحَلْ بِنَفْسِكَ مِنْ أَرْضٍ تُهانُ بِها وَلا تَكُنْ مِنْ فِراقِ ٱلْأَهْلِ فِي حُرَقِ
أَلَمْ تَرَ ٱلتِّبْرَ تُرْبًا فِي مَعادِنِهِ وَفِي ٱلتَّغَرُّبِ مَحْمُولاً عَلَى ٱلْعُنُقِ

فوطّنتُ نفسي على الأسفار ولوكنت أُكْوى بالنار

وكنّا قد أقلعنا بريح طيّب ظلّ معنا يومه وسفينتنا تميس به عجباً وتمايل بحسنه طرباً وقد ملأ شراعها وأطال في المسير باعها وعلى ذكر السفينة ووصف سيرها تذكّرت لغزي الذي كنت سألت فيه العلاّمة الشيخ مصطفى كسّاب شيخ مدرسة الطبّ البيطريّ التي أنشأها صاحب السعادة بإزاء مدرسة الطبّ البشريّ بأبي زعبل وهو هذا [طويل] ٤،٢،٢

أَمَوْلَايَ يَا كَسَّابُ لِلْعِلْمِ وَٱلتُّقَى ... وَيَا بَحْرَ عِرْفَانٍ لَدَى ٱلنَّاسِ يَعْذُبُ
سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ ثُلَاثِيِّ أَحْرُفٍ ... بِهِ كَلِفَ قَلْبُ ٱلشَّقِيِّ[١] مُعَذَّبُ
لَقَدْ جَاءَ فِي ٱلتَّنْزِيلِ وَٱلْأَمْرُ وَاضِحٌ ... وَمِثْلُكُمُ يَتْلُوهُ دَوْمًا وَيَكْتُبُ
وَأَيْضًا لَهُ إِسْمٌ خُمَاسِيٌّ قَدْ أَتَى ... مُؤَنَّثَ لَفْظٍ لِلْبَرِيَّةِ يُعْجِبُ
يَهِيمُ بِهِ ٱلْمُضْنَى وَتَجْرِي دُمُوعُهُ ... وَمَادَّتُهُ يُشْتَقُّ مِنْهَا ٱلْمُهَذَّبُ
كَذَالِكَ لَهُ إِسْمٌ شَهِيرٌ لَدَى ٱلْوَرَى ... رُبَاعِيُّ حُرُوفٍ وَهْوَ مِنْهَا مُرَكَّبُ
مُسَمَّى ٱلَّذِي قَدْ قُلْتُ يَا حَبْرُ وَاحِدٌ ... وَأَنْتَ لَبِيبٌ لَيْسَ ذَا عَنْكَ يُحْجَبُ
مَطِيَّةُ عَزْمِي ٱلْآنَ دَهْمَاءُ قَدْ أَتَتْ ... إِلَيْكَ فَرِيدَ ٱلْعَصْرِ وَٱلْحَلَّ أَطْلُبُ
وَأَوْصَافُ مَا قَدْ قُلْتُ أَضْحَتْ شَهِيرَةً ... لِجَارِيَةٍ حَسْنَاءَ لِلُّبِ تَسْلُبُ
تَمِيسُ مَتَى تُكْسَى وَيَكْثُرُ سَعْيُهَا ... وَإِنْ جُرِّدَتْ لِلسَّعْيِ تَخْشَى وَتَرْهَبُ
وَتَحْمِلُ مَا يَعْسُرُ عَلَى ٱلنَّاسِ حَمْلُهُ ... وَمَحْمُولَةً يَا قَوْمُ مِنْهَا تَعَجَّبُ
وَفِي سَعْيِهَا تَمْشِي عَلَى حُرِّ ظَهْرِهَا ... وَأَرْجُلُهَا لِلْبَطْشِ قَدْ تَتَجَنَّبُ
تُطِيعُ ٱلْهَوَى تَخْشَى ٱشْتِدَادَ عُصُوفِهِ ... وَلَكِنْ بِهِ تَزْهُو وَتَلْهُو وَتَلْعَبُ
وَحَسْبُكَ تَوْضِيحِي فَهَاتِ جَوَابَهُ ... فَلَا زِلْتَ يَا مِفْضَالُ لِلْحَلِّ تُطْلَبُ

فأجاب[٢] حفظه الله بما نصّه [طويل] ٥،٢،٢

١ الأصل: السقى. ٢ الأصل: فاحاب.

أَيَا عَالِماً بِٱلْعِلْمِ مِنْهُ وَبِٱلنُّهَى وَبِٱلْفَضْلِ عِنْدَ ٱلْعَالِمِينَ مُحَبَّبُ
وَمَنْ حِذْقُهُ قَدْ شَاعَ شَرْقاً وَمَغْرِباً وَمَنْ هُوَ بِٱلشِّعْرِ ٱلْمُهَذَّبِ يُغْرِبُ
وَلِمْ لَا وَقَدْ حَازَ ٱلْقَرِيضَ[1] بِأَسْرِهِ وَطَاوَعَهُ مَا قَدْ يَضِلُّ وَيَعْزُبُ
وَأَنَّى لِقُسٍّ وَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ مِثْلُهُ كَلَامٌ يُثِيرُ ٱلْعَاشِقِينَ وَيُطْرِبُ
أَتَيْتَ بِشِعْرٍ كَٱلنَّسِيمِ لَطَافَةً فَمَنْ يَدَّعِيهِ فَهْوَ لَا شَكَّ كَاذِبُ
وَأَلْغَزْتَ فِي ٱسْمِ عَمَّ فِي ٱلْبَحْرِ نَفْعُهُ وَيَحْمِلُ أَثْقَالاً تُكِلُّ وَتُتْعِبُ
وَنُوحٌ تَوَلَّاهُ وَأَبْدَعَ صُنْعَهُ وَنُجِّيَ مِنَ ٱلطُّوفَانِ وَٱلْمَوْجُ لَاعِبُ
وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا فَبِاللهِ مَجْرَاهَا كَذَلِكَ مُرْسَاهَا فَلَا تَتَرَسَّبُ
وَقَدْ حُلَّ لُغْزُ ٱلتُّونُسِيِّ مُحَمَّد إِمَامٌ لَهُ ٱلْعَلْيَاءُ تُنْمَى وَتُنْسَبُ ٦،٢،٢
فَلَا زَالَ يُبْدِي مِنْ نَتَائِجِ فِكْرِهِ نَفَائِسَ دُرٍّ تَنْبُ عَنْهَا ٱلْمَطَالِبُ

وقد ألغزت في لفظ بحر فقلت [طويل]

أَلَا قُلْ لِنِحْرِيرِ[2] ٱلْعُلُومِ وَمَنْ غَدَا لَهُ ٱللُّغْزُ طَوْعاً قَدْ يَزُولُ نِقَابُهُ
فَدَيْتُكَ مَا ٱسْمٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ مُسَمَّاهُ يَسْطُو بِٱلْأَنَامِ عُبَابُهُ
وَفِي قَلْبِهِ مَعْنَى ٱتِّسَاعٍ لِمَنْ أَتَى وَإِنْ شِئْتَ فِعْلاً مَاضِياً لَا تَهَابُهُ
وَأَوَّلَ حَرْفٍ مِنْهُ إِنْ كُنْتَ حَاذِفاً فَسَمِّ بِضِدِّ ٱلْبَرْدِ وَهْوَ ٱنْقِلَابُهُ
بِتَشْوِيشِهِ تَبْدُو مَعَانٍ ثَلَاثَةٌ تَأَمَّلْ لَهَا فَهْوَ ٱلْعَجِيبُ عُجَابُهُ
إِمَامُ عُلُومٍ وَٱلْمِدَادُ وَثَالِثُ ٱلْ مَعَانِي أَمْرٌ لَا يَسُرُّ مُصَابُهُ[3]
وَإِنْ تَحْذِفِ ٱلثَّانِي فَضِدٌّ لِإِسْمِهِ يَصِيرُ فَلَا يَعْسُرْ عَلَيْكَ جَوَابُهُ

وقلت مُلْغِزًا في مصباح [طويل] ٧،٢،٢

١ الأصل: جاز الفريض. ٢ الأصل: لتحرير. ٣ الأصل: مصبابه.

أَلا قُلْ لِمَنْ حازَ ٱلْبَلاغَةَ وَٱلْفَهما وَأَعْطاهُ رَبُّ ٱلْعَرْشِ بَيْنَ ٱلْوَرَى عِلْما
فِداكَ أَبِي ما ٱسْمٌ خُماسِيُّ أَحْرُفٍ بِهِ ٱلنَّفْعُ يا حَبْرُ ٱلْبَرِيَّةِ قَدْ عَمّا
صَغِيرٌ كَأُنْمُلَةٍ إِذا قِسْتَ جِسْمَهُ وَيَمْلأُ بَيْتاً وَهْوَ فِي جِسْمِهِ جَزْما
إِذا ما نَسِيمٌ هَبَّ مالَ صَبابَةً وَمَهْما تَقَوَّى ماتَ مِنْ وَجْدِهِ حَتْما
فَرِيدٌ بِأَوْصافٍ حِسانٍ سَما بِها وَأَحْسَنُها إِرْشادُ شَخْصٍ لَهُ أَمّا
وَيَمْرَضُ مَهْما طالَ يا صاحِ أَنْفُهُ وَإِنْ قُطِعَتْ يَصْحُو وَلا يَذْكُرُ ٱلْغَمّا
وَيَزْهُو مَتَى حَلَّ ٱلْبَهِيمُ وَإِنْ رَأَى ٱلْغَ زالَةَ ذَرَّتْ نالَ مِنْ ضُعْفِهِ وَصْما
وَمِنْ إِسْمِهِ حَرْفانِ شَيْءٌ مُحَبَّبٌ إِذا كانَ مِنْ حُلْوِ ٱلْمَراشِفِ أَيْ أَلْمَى
وَباقِيهِ فِعْلٌ ماضٍ كُنْ مُتَفَطِّناً وَفاعِلُهُ فِي ٱلنَّاسِ يَسْتَوْجِبُ ٱلذَّمّا
وَأَوَّلَ حَرْفٍ مِنْهُ فَٱحْذِفْ تَرَ[1] ٱلَّذِي تَبَقَّى رَدِيفاً لِلْغَداةِ فَكُنْ شَهْما
وَحَسْبِي لَقَدْ أَوْضَحْتُ هاتِ جَوابَهُ وَقَدْ جاءَ فِي ٱلتَّنْزِيلِ فَٱنْظُرْهُ قَدْ تَمّا

وقلت ملغزا في السماء [بسيط] ٨،٢،٢

يا مَنْ رَقِيَ لِسَماءِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْحُكْمِ وَفَضْلُهُ قَدْ غَدا يَنْهَلُّ كَٱلدِّيَمِ
بَيِّنْ لَنا ما ٱسْمُ شَيْءٍ راقَ مَنْظَرُهُ وَحُسْنُهُ قَدْ بَدا لِلْعُرْبِ وَٱلْعَجَمِ
لٰكِنَّهُ ذُو ٱرْتِفاعٍ لا يَحُلُّ بِهِ إِلّا ٱلَّذِينَ حُبُوا مِنْ بارِئِ ٱلنَّسَمِ
مِنْهُ ٱلْمَصابِيحُ تَبْدُو وَهْيَ زاهِيَةٌ بِها ٱلْهِدايَةُ فِي داجٍ لَنا بَهِمِ
وَحُسْنُهُ ٱلْباهِرُ ٱلزّاهِي نَقَرُّ بِهِ لِأَنَّهُ جاءَ فِي ٱلتَّنْزِيلِ ذِي ٱلْحِكَمِ
مُرَكَّبٌ مِنْ حُرُوفٍ أَرْبَعٍ رُسِمَتْ فِي ٱلنَّظْمِ كُنْ فاهِماً لِلنَّظْمِ وَٱلْكَلِمِ
قَدْ تَمَّ أَرْجُو جَواباً شافِياً حَسَناً لا زِلْتَ يا حَبْرُ فِي عالٍ مِنَ ٱلْهِمَمِ

٩،٢،٢ وقد تذكّرت بهذه الألغاز ما ألغز[2] به خاتمة المحقّقين الإمام ابن حجر الشافعيّ رحمه الله في لفظة مُدام ونصّه [وافر]

---

١ الأصل: ترى. ٢ الأصل: للغز.

وَمَا شَيْءٌ حَشَاهُ فِيهِ دَاءٌ وَأَوَّلُهُ وَآخِرُهُ سِوَاءُ
إِذَا مَا زَالَ آخِرُهُ فَجَمْعٌ[1] يَكُونُ ٱلْحَدُّ فِيهِ كَذَا المَضَاءُ[2]
وَإِنْ أَهْمَلْتَ أَوَّلَهُ فَفِعْلٌ لَهُ بِٱلرَّفْعِ وَٱلنَّصْبِ ٱعْتِنَاءُ

ولنمسك عنان القلم عن جريه في هذا الميدان إذ لو تتبّعت ما قلته من الأشعار والألغاز لطال الحال وجلب الملال ونرجع إلى ما نحن بصدده

١٠،٢،٢ فنقول وعند المساء سكن الهواء وبطل هبوبه وفقد شماله وجنوبه وقد جئنا مقابل المِنْيا[3] وكان فيها جماعة من الغُزّ الذين ابتزّ الله منهم حلّة العزّ فأخذونا بالقوّة والقهر وأمالوا سفينتنا إلى جانب البرّ وكان معسكرهم مخيّمًا في عرض البلد على النيل وكانوا مقيمين هناك لنهب السفّار المارّين فغرموا صاحبنا جملة من المال وبعد الخلاص أقلعنا عنهم في الحال

١١،٢،٢ وفي اليوم الثالث حللنا منفلوط فأخذنا منها ما احتجنا[4] إليه ثمّ أقلعنا حتّى دخلنا بني عديّ فأقمنا فيها حيثما[5] تأهّبت القافلة وخرزوا أسقيتهم وصنعوا زادهم ثمّ جيء بالمطيّ فحملت أحمالها وضربنا مَهْمَهًا قَفْرًا حتّى وصلنا إلى الخارجة في عشيّة اليوم الخامس فوجدناها قد دار بها النخيل دورة الخلخال بالساق أو التفاف يدي العاشق على معاطف المعشوق للعناق وفيها من التمر ما تشتهيه الأنفس وتلذّ به الأعين مع رخص الأسعار وحسن تلك الأثمار[6] فأقمنا بها مدّة خمسة أيّام وفي صبيحة اليوم السادس ارتحلنا وسرنا نحو يومين وفي الثالث حللنا بلدة يقال لها أَبِيرِيس وهي بلد قد استولى عليها الخراب من ظلم الحكّام وتمزّق شمل أهلها بعد الانتظام ففسد ما به من النخيل وذهب رونقه بعد أن كان جميل

١٢،٢،٢ فأقمنا بها يومين حتّى أفاقت دوابّنا وزال عنها العنا ثمّ سافرنا يومين ونزلنا في ثالثهما بلدًا يقال لها بولاق وهي[7] من الساكن في إملاق قد درست معالم أكثرها وتصدّع بناء أقومها وأشهرها ومن العجائب أنّ نخلها في غاية القصر وهو حامل للتمر لا يتكلّف

---

١ الأصل: بجمع. ٢ الأصل: المعناء. ٣ الأصل: المنية. ٤ الأصل: احتاجنا. ٥ الأصل: ريثما. ٦ الأصل: التمار.
٧ الأصل: وهو.

جانيه القيام بل يتناول منه ولو في هيئة النيام فتذكّرت باسمها بولاق مصر المحميّة حرسها الله من كلّ آفة وبليّة فانهملت دموعي وهاج وجدي وولوعي فأنشدت أقول شعرًا [طويل]

تَـذَكَّرْتُ بُولَاقـًا وَمِـصْرَ وَأَهْلَهَـا   وَأَذْكَرَنِي هـذِي ٱلَّتِي تُـدْعَى بُولَاقَا
فَبِـاللهِ يَا عَيْـنِي ٱسْـعِفِينِي بِأَدْمُعٍ[1]   عَسَى يَبْرُدُ ٱلْقَلْبُ ٱلَّذِي زَادَ إِحْرَاقَا

ثمّ سافرنا مجدّين من غير لبس حتّى نزلنا عشيّة النهار على بلد يسمّى المَقّس مفرد ١٣،٢،٢ [رجز]

وَبَلْدَةٍ لَيْسَ بِهَـا أَنِيسُ   إِلَّا ٱلْيَعَافِرُ وَإِلَّا ٱلْعِيسُ

قيل إن هذا البلد كان أعمر من كلّ بلد فأخنى عليه الذي أخنى على لبد وتمزّق شمل أهله ولم يبق به أحد وليس به من الأشجار إلّا ما قلّ وهو بعض أَثَل وعَبَل فأقمنا فيها يومين وملأنا القرب وارتحلنا وللمفازة الحقيقيّة دخلنا فمكثنا خمسة أيّام في مهامه[2] قفرا وبيداء غبرا ليس فيها من الحشائش إلّا عاقول قليل كما لا يوجد بها شجر يصلح للمقيل وكان يطبخ لنا في تلك المدّة بما تلتقطه الخدم من بعر الإبل الجافّ لقلّة الوَقَد الذي يحصل به الإسعاف وفي عشيّة اليوم الخامس وردنا محلاّ يقال له الشبّ وهو محلّ بين غرود من الرمل عليه ريح الوحشة قد هبّ فأرحنا فيه يومين وارتحلنا وللمفازة الثانية دخلنا

فقطعناها عَنَقًا وذَمِيلاً في مدّة أربعة أيّام نزلنا في ضحى خامسها[3] ببئر يقال له سليمة ١٤،٢،٢ وبهذا البئر رسوم أبنية قديمة وهو في عرض جبل يسمّى بهذا الاسم أيضاً فمكثنا فيه يومين حتّى قضينا منه غرضاً ومن خواصّ[4] هذا المحلّ أنّ الحالّ به يستأنس به ولا يستوحش منه ومن العجائب أنّ الشبّان من أهل القافلة يصعدون على الجبل

---

١ الأصل: يا دمع. ٢ الأصل: مهمه. ٣ الأصل: خاسسها. ٤ الأصل: خواض.

الذي هناك ويضربون الحجارة بعصيّ صغار كما يضربون الطبول فيسمع لها صوت كالطبل ولا يعرف سبب ذلك أهو تجاويف في الحجر أو هي موضوعة على خلوّ فسبحان من يعلم حقيقة ذلك وأخبرني أهل القافلة أنّ في بعض الليالي وأظنّهم قالوا في ليلة كلّ جمعة يسمع من الجبل أصوات طبول وكأنّه عرس ولا يعرفون حقيقته

١٥،٢،٢ ثمّ ارتحلنا صبيحة اليوم الثالث بعد ملء أدوات الماء ودخلنا مفازة سافرنا فيها خمسة أيّام وصلنا في ضحى سادسها إلى محلّ يقال له لَقِيَّة فوجدنا هناك آباراً محاطة بالرمل وماؤها عذب زلال وقبل وصولنا لهذا المحلّ عرضت لنا قافلة صادرة من بئر النطرون المسمّى بالزغاويّ وأهلها من عرب يقال لهم العمايم فقابلونا بالسلام ثمّ انصرفوا عنّا بسلام فمكثنا في لقيّة يومين وفي صبيحة اليوم الثالث ارتحلنا للزغاوي قاصدين وإذا[١] بهجّان أقبل من ناحية دارفور يخبر بوفاة المرحوم الملك العادل المجيد السلطان عبد الرحمن الرشيد ملك دارفور وما والاها وسلطان أقصاها وأدناها وأنّه ذاهب إلى مصر لتجديد الخاتم الذي تختم به الأوامر السلطانيّة لعدم من يتقنه هناك لابنه السلطان محمّد فضل وذلك لليال مضت من رجب الفرد سنة ١٢١٨ فحزن أهل القافلة على موت سلطانهم وخافوا من وقوع الفتن في أوطانهم لأنّه كان سلطاناً عادلاً كريماً محبّاً للعلم وذويه مبغضاً للجهل ومن يليه وسنتكلّم على عدله وأحكامه فيما يأتي بأبسط عبارة إن شاء الله تعالى

١٦،٢،٢ ثمّ سافرنا من هناك خمسة[٢] أيّام أنخنا في سادسها ببئر الزغاويّ وهو بئر النطرون وبينه وبين دارفور مسيرة عشرة أيّام كاملة فأقمنا به أحد[٣] عشر يوماً نصلح شؤوننا ونرتاح وترعى دوابّنا[٤] لتقوى على قطع هذه المفازة الدهماء ونُحرت في إقامتنا تلك عدّة جُزُر وفُرّق لحمها على أهل القافلة واجتمعنا هناك بأعراب البادية من دارفور وأتونا بلبن الإبل وسمنها فاشترينا منهم ما احتجنا إليه وكانوا أتوا لهذا البئر ليأخذوا[٥] منه ملحاً ونطروناً لدارفور لأنّ النطرون وأكثر الملح لا يُجلب لها إلّا من هناك وكنّا قبل حلولنا بالزغاويّ أرسلت أهل قافلتنا هجّاناً لدارفور بأوراق إلى الدولة وإلى أهاليهم تعلمهم

١ الأصل: واذ. ٢ الأصل: ثم سافرنا من هناك ثم سافرنا خمسة. ٣ الأصل: احدى. ٤ الأصل: دوبنا. ٥ الأصل: لياخذون.

بالمجيء وأنّهم قد قفلوا سالمين وكنت قد كتبت معهم كتابًا لوالدي ونصّه

إلى حضرة والدي وأعزّ الناس عندي السيّد عمر التونسيّ أبقاه الله آمين بعد تقبيل أياديه الشريفة إنّي قد أتيت مع قافلة الخبير فرج الله صحبة السيّد أحمد بدويّ صاحبكم وحبيبكم وفعل معنا من المعروف من أجل خاطركم ما لا نقدر على وصفه لسعادتكم والسلام كاتبه ولدكم محمّد عمر ابن سليمان

١٧،٢،٢ فأخذها الهجّان وارتحل من وقته ولم أر في أسفاري التي سافرتها أهون منها لأنّي كنت فيها في غاية الراحة وذلك أنّ حال خروجنا من بني عديّ أمر السيّد أحمد بدويّ عبيده أن يضعوا الخيمة على أهدأ جمل وأن يوطّئوها للركوب توطئة حسنة ففعلوا وأخذ بيدي إلى أن سلّمني خطام الجمل وأمر أن يأتوا بزمزميّة ملآنة ماء فجيئت وعلّقت على الجمل وقال هذا جملك تركبه مهما أردت وتنزل عنه مهما أردت وهذه الزمزميّة تشرب منها كلّما احتجت إلى الشرب وكلّما فرغت مُرْ أحد العبيد يملأها لك وأمر جميع العبيد والخدمة بطاعتي في ذلك

١٨،٢،٢ وكان معه من العبيد الكبار سبعة وعبد صغير وثمانية من الخدمة ومعه من الجمال ثمانية وستّون جملاً قد أعدّ منها ثمانية للماء وأربعة للزاد وفي وقت الدخول إلى المفازة كان يعلّق على كلّ جمل قربتين وكان معه من السراري خمسة وسادستها ابنة عمّه السيّدة جمال وكانت من أجمل النساء[1] وكان معه حصان دنقلاويّ أسود لا يُقوّم بمال لحسنه وعليه سرج غشاؤه قطيفة خضراء يقوده عبد خاصّ به وكان السيّد أحمد يلاطفني ملاطفة الوالد لولده فكنت إذا نزلت القافلة ربّما نمت من تعب الركوب وهزّ الجمل وحرّ الشمس فكان يدثّرني وإذا جيء بالعشاء يوقظني بلطف ويطلب ماء ويغسل وجهي ويدي ويأمرني بالمضمضة لأفيق من النوم ويأخذ

---

١ الأصل: نساء.

يدي ويضعها في الإناء وربّما أخذ الطعام ووضعه في فيّ ولم يزل هذا دأبه معي حتّى وصلنا بالسلامة

١٩،٢،٢ ثمّ ارتحلنا من بئر الزغاويّ. سافرنا عشرة أيّام سفر المُجِدّ نأخذ من أوّل الليل قِطْعَة ومن آخره دَلَجَة حتّى وصلنا ضحى حادي عشرها إلى المزروب وهو بئر في أوّل أعمال دارفور وقبله بنحو ثلاث ساعات أو أربع جاءتنا أعراب بقرب من الماء واللبن فاستبشرنا بالسلامة ثمّ نزلنا البئر المذكور فأقمنا فيه يومنا وفي صبيحته ارتحلنا نحو أربع ساعات ووردنا بئرًا يقال له السُوينة وهناك قابلنا قائد الولاية وحاكمها وكان يسمّى الملك محمّد سَنجَق وهو قائد الزغاوة وهي قبيلة عظيمة من السودان وأهل السودان يسمّون القائد مَلِكًا ومعه جيش كثيف أظنّه نحو خمسمائة فارس فسلّم على أهل القافلة وهنّأهم بالسلامة فأقمنا في هذا المحلّ يومين ثمّ ارتحلنا وتفرّقت الناس فكلّ أناس أخذوا طريق بلادهم لأنّ أهل القافلة كلّهم ليسوا من بلدة واحدة فأكثرهم من بلدهم المشهور المسمّى كُوبَيَه وبعضهم من كَبْكَابِيَّة وبعضهم كالسيّد أحمد بدويّ صاحبي من سَرَف الدجاج وبعضهم من الشَعِيرِيَّة وبعضهم من جديد كَرْيُو وبعضهم من جديد السَّيل

٢٠،٢،٢ فذهب كلّ منهم في مذهبه وأخذنا طريق سرف الدجاج فسافرنا سفرًا هيّنًا نحو ثلاثة أيّام ونزلنا في رابعها قرب الظهر في ظلّ جبل بقرب بئر فقِلْنا هناك وجاءت أناس كثيرون يهنّوننا بالقدوم وجاء هناك بدويّ ابن السيّد أحمد ومعه عبيد وخدم بأطعمة كثيرة فسلّم على والده وهنّأه بالسلامة وتغدّينا وأقمنا حتّى أنهر النهار وأخذ الشمس الطَفَل والاصفرار ثمّ[1] حُمّلت الأحمال[2] ورُفعت الأثقال فلم يأت المغرب إلّا ونحن على ظهر رواحلنا[3] مُقلّون وعلى[4] الجادّة سائرون فدخلنا سرف الدجاج بعد العشاء مفرد [طويل]

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَٱسْتَقَرَّ بِهَا ٱلنَّوَى ‌ ‌ كَمَا قَرَّ عَيْـنًا بِٱلْإِيَابِ ٱلْمُسَافِرُ

---

١ أضيف للسياق: ثم. ٢ الأصل: الاحملا. ٣ أضيف للسياق: رواحلنا. ٤ الأصل: علي. ٥

وبتنا تلك الليلة في مشقّة من كثرة المُسلّمين وازدحام الداخلين والخارجين ومع ذلك لم يتهاون السيّد أحمد بأمري ولا شغله ما هو فيه عنّي بل أفرد لي حجرة وجعل فيها من الفرش والآنية ما أحتاج إليه وأنا لا أعلم ذلك بل حين طال عليّ السهر دخلت عليه وقلت له أين أنام فنادى بأحد العبيد وقال له أَرِ[1] سيّدك حجرته فأخذني وأدخلني حجرة رأيت فيها سريرًا وفرشاً وآنية بل وجميع ما أحتاج إليه وبتّ بأنعم ليلة حتّى إذا أصبحت لبست ثيابي ودخلت عليه فوجدته جالساً في أبّهة عظيمة بين خدمه وجواريه وأولاده قارًّا سارًّا كأنّه لم يكن مسافرًا

٢١،٢،٢ فرحّب بي وأكرمني فقبّلت يده وجلست معه ثمّ قال لي إنّ ابن أخي السيّد أحمد الصغير قد صنع في هذا النهار وليمة القدوم والتمس منّي أن تتوجّه إليه وتشرّف مجلسه بحضورك فإن رأيت بك نشاطاً وأردت جبر خاطره فذاك إليك وما أريد أن أشقّ عليك فقلت سمعاً وطاعة لكنّي لا أعرف منزله فأمر أحد غلمانه أن يعرّفني منزله فذهبت وحضرت ضيافته فأعظم ملقاي ورحّب بي وكان يوماً عظيماً ثمّ إنّ جميع أهل القافلة صاروا يصنعون الولائم فتوالت وكلّ وليمة يدعونني فأحضرها حتّى جاء عمّي وتوجّهت صحبته إلى والدي

٢٢،٢،٢ وذلك أنّي كنت في ضيافة بعض الأصحاب وأتيت قرب المساء فدخلت الحجرة المعدّة لي فرأيت فيها رجلين وعبدين أمّا الرجلان فأحدهما أسمر قصير ذو هيئة حسنة جميل البزّة يقرب لونه من لون الحبشة والآخر أسود رثّ الهيئة فسلّمت عليهما فردّا عليّ السلام وجلست متعجّباً كيف دخلا في حجرتي بغير إذني فرأيتهما يتغامزان ويقول أحدهما للآخر أهو هو فيقول الآخر نعم هو ولا أعرف علام يقولان ذلك ثمّ سألني الرجل الأوّل وقال لي أنت من هنا فقلت لا أنا من مصر جئت ملتمساً لأبي فقال ومن أبوك فقلت أبي السيّد عمر التونسيّ

٢٣،٢،٢ فقال لي السودانيّ سلّم على عمّك السيّد أحمد زرّوق فسلّمت عليه حينئذ وبعد السلام أخرج لي مكتوباً فيه

[1] الأصل: أري.

بعد السلام إنّه قد جاءنا كتاب من ولدنا السيّد محمّد أخبرنا فيه أنّه قدم صحبتك وفعلت معه من المعروف ما أنت أهله فجزاك الله عنّا خيرًا وهذه منّة لا أكاد أقوم بشكرها وصنيعة لا أقدر على مكافأتها ومن المعلوم أنّ المهاداة سنّة من أوّل الزمان وقد قبل الهديّة سيّد ولد عدنان لذا قال عليه صلاة ربّنا المنّان تهادوا تحابّوا وتذهب الشحناء من قلوبكم وقد أرسلت لحضرتك صحبة أخي السيّد أحمد زرّوق عبدين سُداسيّين ومُهْرًا أحمر أرجو من سعادتكم قبولهم وهم على قدر مقامي لا على قدر مقامك ولله درّ[1] القائل شعرًا [بسيط]

جَاءَتْ سُلَيْمَانَ يَوْمَ ٱلْعَرْضِ هُدْهُدَةٌ   أَتَتْ لَهُ بِجَرَادٍ كَانَ فِي فِيهَا
وَأَنْشَدَتْ بِلِسَانِ ٱلْحَالِ قَائِلَةً   إِنَّ ٱلْهَدَايَا عَلَى مِقْدَارِ مُهْدِيهَا
لَوْكَانَ يُهْدَى إِلَى ٱلْإِنْسَانِ قِيمَتُهُ   لَكَانَ قِيمَتُكَ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

ومنّا السلام عليكم وعلى أولادكم وأهل منزلكم ومن يحويه مجلسكم السعيد

٢٤،٢،٢ وقال لي خذ هذا الكتاب واقرأه على عمّك السيّد أحمد فذهبت به وقرأته عليه وأحضرت الهديّة فرآها وبارك فيها ثمّ قال إنّي قبلتها ووهبتها لابني هذا يعنيني فألحت عليه أنا وعمّي في قبولها فأبى إلّا ذلك وقال إنّي لو أفنيت أموالي كلّها في مرضاته لما كان ذلك جزاء له بما صنع معي من المعروف فتجاسرت عليه حينئذ وسألته بالله العظيم إلّا ما أخبرني عن هذا المعروف الذي صنعه معه فقال لي اعلم يا ولدي أنّ أعدائي وشوا بي إلى حضرة السلطان بأنّي أبيع الأحرار[2] وزخرفوا له القول حتّى استقرّ في ذهنه أنّ الأمر صحيح فغضب لذلك وقال تاجر مثل هذا في غنائه يفعل هذا الفعل الفقر أولى به فأحضرني من داري على غير صورة وحين دخلت عليه وبّخني وقرّعني بالكلام المؤلم وطلبت تحقيق ما قيل فيّ فلم أتمكّن من ذلك ولا سمع لي

١ أضيف للسياق: در. ٢ الأصل: الاحرارا.

قول بل أمر بالقبض عليّ وأن توضع الأغلال في عنقي ويُضيَّق عليّ في الحبس

٢،٢،٢٥ وكان من لطف الله تعالى أنّ أباك حاضر بالمجلس فلم يتجاسر أحد على أن[1] يشفع لي عنده لما قام به من الغضب وحين رأى والدك ذلك تقدّم وتنحنح وذكر أحاديث في العفو عن الجاني وتلا ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ ثمّ شفع فيّ فشفّعه السلطان وأمر بإطلاقي وبعد ذلك ظهرت له براءتي ولكن لو لم يسخّره الله لي في تلك الساعة لذهبت نفسي وأموالي كلّها فأيّ جميل أكبر من هذا أو أيّ صنيع[2] أعظم من هذا ومع ذلك كلّه فأجر أبيك فيما فعله معي على الله وإنّي طالما كنت أترقّب له حاجة تأتي على يدي فأقضيها له فلم[3] يتيسّر لي إلّا هذه الخدمة وعسى أن يكون فيها قضاء بعض ما وجب عليّ ولا أظنّ ذلك

٢،٢،٢٦ ثمّ أراد عمّي أن يسافر صبح ذلك النهار فأبى السيّد أحمد فمكثنا بعد ذلك ثلاثة[4] أيّام وفي صبيحة اليوم الرابع دخلت عليه لأودّعه فأعطاني خرزاً كثيراً يضعنه نساء السودان في أوساطهنّ من قبيل الزينة يسمّى عندهنّ رُقاد الفاقة ومعناه نوم الراحة وأعطاني خرزاً آخر غالي الثمن يجعلنه في أجيادهنّ وهو على أنواع. منه ما يسمّى بالريش وهو خرز أبيض مستطيل فيه بعض خطوط سمر معروف بهذا الاسم في مصر أيضاً ومنه ما يسمّى بالمنصوص وهو خرز أصفر من كهربان مستدير مفرطح ومنه خرز كرويّ الشكل أحمر غير ناصع يسمّى بالعقيق فأعطاني منها ما يزيد على عقدين وثمنه ينوف عن ثلاثة رؤوس من الرقيق وأعطاني عمامة خضراء من الشاش جديدة وسنبلاً ومحلباً وصندلاً كثيراً وهذه الثلاثة من العطريات يتطيّبن بها نساء السودان وقال فرّق هذه الأشياء بين نساء أبيك واذبح[5] لنا شاة وحنّذها وبلغتهم يقال لها نصيص. زوّدناها وودّعنا وركبنا

٢،٢،٢٧ وكان مع عمّي عبد آخر كبير فركبت الفرس وركب عمّي هجيناً وركب الرجل حماراً فارهاً وسعت العبيد أمامنا وسرنا قاصدين محلّ أبي وكان بمحلّ يقال له أبو الجُدُول وبينه وبين سرف الدجاج ستّة أيّام سفر فخرجنا من سرف الدجاج ومررنا بالبلد

---

١ أضيف للسياق: على أن. ٢ الأصل: صنع. ٣ الأصل: لم. ٤ الأصل: ثلاثا. ٥ الأصل: وذبح.

المسمّى بكَبْكابيّة وهي بلد أشبه ببلاد ريف مصر إلّا أنّها أعمر منها وأخصب لأنّها آهلة بالساكن مغتصّة بالقاطن وأهلها تجّار أغنياء وعندهم من الرقيق ما لا يحصى كثرة ولهم نخيل وأرض واسعة° فيها آبار قريبة الماء يزرعون بها أنواع الخضروات والبقول من بامية وملوخيّة وقرع وباذنجان وفقوس وقثّاء وبصل وحلبة وكمّون وفلفل وحبّ رَشاد وكلّه كما نعهد إلّا الفلفل فإنّه حبّ رفيع أغلظ من الشعير بقليل وعندهم بعض شجر الليمون الحامض وبقربهم جبل يقال له مَرّة وهو جبل يشقّ إقليم الفور من أوّله إلى آخره مع الاستقامة وله عدّة طرق تصعد الناس منها إليه ولكلّ قطعة منه اسم خاصّ به غير الاسم[1] العامّ والفور يسكنون في أعلاه ولا يألفون الوهاد بل يرون أنّ ذلك أصون لهم ولأموالهم وسيأتي لهذا مزيد توضيح

٢٨،٢،٢ وحين مرورنا بكبكابيّة وجدنا سوقها عامرًا فأخذنا منه ما احتجنا إليه ثمّ توجّهنا فسافرنا ثلاثة أيّام في عرض جبل مرّة وصرنا نبيت ببلاد أقوام مستوحشين يكرهون الضيوف خصوصاً إن كانوا من أولاد العرب فأصابتنا منهم مشقّة عظيمة حتّى صرنا لا نبيت عندهم إلّا كرهاً عليهم مع أنّ معنا أزوادنا ولا نحتاج لهم في شيء فكانوا ينفرون منّا بالطبع وبعد ذلك خرجنا إلى السهل فبتنا ليلة واحدة بمحلّ يقال له تارَنْيَه فأكرمونا هناك وصنعوا لنا ضيافة عظيمة وفي ضحى اليوم السادس دخلنا البلدة التي فيها والدي المسمّاة بحِلّة جولتو وهي من جملة حلل أبي الجُدول فرأينا على باب دار والدي خيلاً وحميرًا وخدماً لأضياف كانوا عنده فدخلنا الدار وعرضنا جواري وعبيدا يسلّمون علينا ويهنّوني بالسلامة ثمّ جاء والدي بعد أن ركب أضيافه وسلّم عليّ فقمت وقبّلت يده ووقفت أمامه خدمة له فأمرني بالجلوس فجلست فسألني ما الحرفة التي تعلّمتها فقلت له القرآن وشيئاً من العلم فسرّ لذلك وصنع ثاني يوم مجيئي وليمة ذبح فيها عدّة شياه وبقر ودعا الناس فجاء خلق كثير فأكلوا وكان يوم سرور

٢٩،٢،٢ ثمّ إنّه بعد ثلاثة أيّام جهّزني وعمّي السيّد أحمد إلى الأعتاب السلطانيّة بهدايا من عنده إلى حضرة السلطان ووزيره الأعظم إذ ذاك الأب الشيخ محمّد كرّا والفقيه

[1] الأصل: اسم.

مالك الفوتاويّ وهو وكيل أبي وحوائجه التي تعرض للدولة كلّها على يده وهو من قبيلة تسمّى الفُلّان وأهل دارفور يسمّونها الفَلاّته وفَلاّتا بالألف في الآخر أصحّ والفقيه مالك المذكور أعظم الوزراء من أولاد العرب وكان يومئذ السلطان محمّد فضل ابن المرحوم السلطان عبد الرحمن صغيراً وكان زمام الأمور كلّها بيد الأب الشيخ محمّد كرّا معناه بالفوراويّة الطويل لأنّه هو الذي عضد السلطان محمّد فضل بعد موت أبيه وأجلسه على سرير ملكه وناب عنه في الأحكام وتدبير المملكة لصغر سنّه وقد شاع على ألسنة الناس أهل دارفور أنّه من عبيد السلطان وليس كذلك بل هو حرّ خدم السلطان وأُغْنِيَ في خدمته وقام بأعباء[1] الأمور حتّى ترقّى للوزارة العظمى بحسن تدبيره وتصرّف في مملكة دارفور حتّى كان لا تعلو على كلمته كلمة غير كلمة[2] السلطان وكان رحمه الله فيه دهاء ومكر وشجاعة وإقدام وحيل على الأمور حتّى ينفذ أغراضه وستأتي سيرته وسيرة السلطان عبد الرحمن وابنه السلطان محمّد فضل وأخيه السلطان محمّد تَيْراب مفصّلة إن شاء الله تعالى

٣٠،٢،٢ فركبنا من أبي الجدول إلى تَنْدَلْتي وهو المقرّ[3] السلطانيّ في أوّل شعبان سنة ١٢١٨ ويسمّى بلغتهم الفاشر وكلّ محلّ سكنه السلطان يسمّى فاشرًا فسافرنا يومين سفرًا غير شطيط ودخلناه ضحوة الثالث فوجدنا بلدًا يموج بالساكن ويرتجّ بالقاطن ما بين راكب وماشي وجالس وغاشي وطبول ترعد وخيول تركض فدخلنا دار الفقيه مالك فوجدناه جالساً بين خدم وحشم وأرباب الحوائج محتفّون به فدخلنا عليه فسلّم عليه عمّي فأعظم ملقاه ورحّب به فعرّفه عمّي بي فسلّم عليّ وبشّ في وجهي ورحّب بي ثمّ إن عمّي أعطاه الكتاب الذي له والكتب التي للدولة فقرأ كتابه ورحّب بنا[4] وأفرد لنا محلاّ وضعنا فيه متاعنا ثمّ أخذنا في الحال إلى دار الأب الشيخ محمّد كرّا فرأينا دارًا على بابها من الخيل والدوابّ ما لا يحصى كثرة ودخلنا فرأيناه جالساً في مجلس حفل وأرباب الدولة محتفّون به فسلّم علينا ولم يعلم من أنا ثمّ سأل وقال من هذا فقال له الفقيه مالك هذا ابن الشريف عمر التونسيّ العالم المقيم بأبي الجدول

١ الأصل: بعبآء. ٢ أضيف للسياق: كلمة. ٣ الأصل: مقر. ٤ أضيف للسياق: بنا.

وقد أرسله صحبة عمّه ليسلّم على سعادتك وهذا كتاب أبيه فأخذ الكتاب وفتحه ولمّا علم ما فيه صار يلاطفني ويحيّيني[١] إكراماً لوالدي وقدّمت له الهديّة فقبلها وأمر بإدخالها إلى خزائنه وأقبل يلاطفني بالتحيّة إكراماً لوالدي ثمّ أمر الفقيه مالك أن يبقينا عنده حتّى يأذن لنا في التوجّه فبقينا عند الفقيه مالك ثلاثة أيّام ونحن في أكرم ضيافة وألذّ ائتناس

٣١،٢،٢ وفي اليوم الرابع دعانا الأب الشيخ محمّد كرّا على يد الفقيه مالك وكساني كشميراً أخضر وجبة خضراء وقفطاناً من القطن الهنديّ وأمر لي بجاريتين وعبد وكتب لأبي كتاباً قرأته بعد ذلك عند أبي وصورته

من حضرة من أكرمه الكريم ولا يفارقه الخير والنعيم الوزير الأعظم المتوكّل على من يسمع ويرى الأب الشيخ محمّد كرّا إلى حضرة الأستاذ الأعظم والملاذ الأفخم علاّمة الزمان ونخبة سلالة سيّد ولد عدنان السيّد الشريف عمر التونسيّ دام مجده آمين أمّا بعد إنّه قد حضر لدينا نجلكم المكرّم صحبة أخيكم المحترم المعظّم بما أهديتموه لنا حسبما هو مشروح في جوابكم ففرحنا غاية الفرح بأمرين الأوّل اجتماع شملك بقرّة عينك والثاني بأنّنا نأمل إقامتك في بلدنا وهذا هو المقصود الأعظم لتحصل لنا البركة بكم أهل البيت وقد أتحفناه بما صحبه ونرجو أن يكون مقبولاً لديكم ولولا ما نحن فيه من الأشغال لكان الأمر أبلغ من ذلك فالمعذرة إليك وآمل ألّا تنساني من صالح دعواتك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

٣٢،٢،٢ ثمّ إنّ الفقيه مالك قدّم لي جارية ناهداً وجواباً قرأته بعد ذلك أيضاً مضمونه

---

١ الأصل: ويحيني.

بعد السلام إنّه قد ورد علينا كتابكم صحبة نجلكم وأخيكم وقدّمناهما إلى
حضرة الأب الشيخ محمّد كرّا وقد دخل عليه من السرور ما لا يعلمه إلّا
الله بقدوم نجلك كما يفصح لك كتابه عن ذلك ونحن أشدّ فرحاً منه لما بيننا
من المودّة وما أهداه الأب الشيخ محمّد كرّا لنجلك يُتْلَى عليك ويصل بين
يديك وها نحن قد أتحفنا نجلك الكريم بجارية كوعبة متربة

أراد هنا كاعبة وأمّا قوله مترِبة لا معنى له هنا وذلك من جهل الفقيه وهذا أي كاعبة ومترِبة مذكور في القرآن في وصف الحور وأراد الفقيه أن يُدّعى[1] عالماً فإنّه غلط وقال هنا قولاً بدون معنى

واسمها حميدة عسى أن تُلْحَظ بالقبول كما هو المأمول والسـلام

٣٣،٢،٢ فأخذنا جميع ذلك وتوجّهنا لوالدي فرحين مسرورين ففرح بقدومنا ثمّ أقمنا جميعاً مدّة شهر رمضان وحين انقضائه توجّه أبي إلى الفاشر للسلام وقابل الأب الشيخ محمّد كرّا وطلب منه الإذن في التوجّه إلى تونس ليرى أمّه وأخويه ويجتمع بهم قبل وفاة أمّه وأعلمه أنّه سيتركني في بيته وبلاده لأنّ البلد التي كان فيها أقطاع له أقطعها له المرحوم السلطان عبد الرحمن قبل وفاته وكان قبل ذلك أقطعه بلاداً في المحلّ المسمّى بِقِرْلي فأبى والدي الإقامة فيه لعجمة لسان أهله وعدم معرفتهم العربيّ فنقله إلى هذه البلد وهذا الإقطاع يشتمل على ثلاثة بلاد حلّة جولتو الذي فيه بيتنا والدبّة وأمّ بعوضة فاتّفق مع الأب الشيخ محمّد كرّا أن يتركني في هذه البلاد أجمع خراجها وأنتفع بزرعها فأخذ عليه المواثيق بالعود وأذن له وكتب له عدّة أوامر إلى العمّال الذين بطريقه أن يعطوه جميع ما يحتاج إليه وأن يرسلوا معه جنداً يوصّله إلى محلّ الأمن وودّعه ورجع إلينا مهتمّاً بأمر السفر

---

[1] الأصل: أنه يدّعى.

٣٤،٢،٢ فجهّز نفسه في أقرب وقت وذلك أنّه باع ما عنده من القطن وكان عنده قطن كثير ينوف عن مائة قنطار لأنّه كان زارعاً قطعة أرض تزيد عن عشرين فدّانًا من أفدنة برّ مصر قطناً وكانت هذه القطعة يجمع منها وقت هجوم القطن في كلّ يوم أربع عشرة ريكة والريكة في عرف أهل دارفور كالقُفّة في عرف أهل مصر وهي ربّما لو صُبّت فيها غلال تَسَعُ[١] نحو خمسة أرباع بالربع المصريّ فباع كلّ ذلك وباع مُراح غنم كان عنده وكذا باع البقر والحمير وأخذ جواريه وعبيده وما حُصل لي من السيّد أحمد بدويّ ومن الأب الشيخ محمّد كرّا ولم يترك لي إلّا جارية بعينيها بياض تسمّى فرحانة وعبدين وامرأتيهما وحماراً وهجيناً ضعيفاً وترك لي إحدى نسائه تسمّى زهرة وامرأة أخيه وكلّ منهما[٢] معها بنت وباع مطامير الغلال ولم يبق لي إلّا مطموراً واحداً وأعطاني وثيقة الإقطاع التي كتبها له المرحوم السلطان عبد الرحمن حين أقطعه الأرض المذكورة ونصّها

> من حضرة السلطان الأعظم والملاذ الأفخم سلطان العرب والعجم ومالك رقاب الأمم سلطان البرّين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين الواثق بعناية الملك المبدي المعيد السلطان عبد الرحمن الرشيد إلى حضرة الملوك والحكّام والشَّرَاتِي والدماج[٣] وأولاد السلاطين والجبّايين وأهل دولة السلطان من العرب والسودان أمّا بعد فإنّ السلطان المذكور المبرور المؤيّد المظفّر المنصور تفضّل وأمدّ بمعونته وأعطى العلّامة السيّد الشريف عمر التونسيّ قطعة من الأرض كائنة بأبي الجدول حاوية لثلاث حلل من حلّة جولتو والدبّة وأمّ بعوضة بحدودها المعروفة وأتخامها الموصوفة حسبما حدّده الملك جوهر للملك خميس عَرْمان[٤] لا يعارضه فيها معارض ولا ينازعه منازع من أهل المملكة خصوصاً جبّايي العيش يتصرّف فيها بأيّ نوع من وجوه التصرّفات شاء هبة لوجه الله

١ الأصل: يسع. ٢ الأصل: منها. ٣ الأصل: الرماجِ. ٤ الأصل: عرْفان.

تعالى وطلباً للثواب في دار المآب والحذر ثمّ الحذر من الخلاف والتعرّض
من الخاصّ أو العامّ

ثمّ إنّ والدي حمل أثقاله وأخذ رقيقه وسريّته وأخاه وتوجّه وأبقاني في الحلّة

وفي شهر رجب سنة ١٢١٩ قُتِلَ الأب الشيخ محمّد كرّا في حرب عظيم وقع بينه وبين السلطان محمّد فضل وسببه أنّ أعداء الأب الشيخ محمّد كرّا دخلوا بالفتنة والسعاية بينه وبين السلطان وقالوا للسلطان إنّ الأب الشيخ يريد نزع المملكة من يدك ويولّي عليها أخاه باسي عوض الله فأظلم الجوّ بينهما واحتال السلطان وجماعته في القبض عليه فلم يتيسّر له ذلك وانعزل الأب الشيخ بجماعته في بيت آخر كان له بتندلتي بعيداً عن بيت السلطان وأرسل له السلطان أن يأتي إليه فأبى فلمّا لم يجد السلطان وجماعته حيلة للقبض عليه وامتنع عنهم منعوه الماء فمكث ثلاثة أيّام يستقي من جديد السيل ثمّ لمّا اشتدّ العطش بجماعته قالوا له إنّا قد عطشنا وليس عندنا من الدوابّ والقِرَب ما يأتي لنا بالماء الذي يكفينا فارحل بنا إلى محلّ آخر نشرب منه الماء أو دبّر لنا حيلة ٣٥،٢،٢

فركب حينئذ هو وعسكره وتوجّه للرهد وهو غدير الماء بتندلتي فوجد عليه حارساً من دولة السلطان مع عسكر كثيف يمنع جماعته وهو الملك محمّد دلدن ابن عمّة السلطان محمّد فضل فقتله وقتل جماعته قتلاً ذريعاً وسمع بذلك جماعة السلطان فخرجوا عليه ونشب الحرب بينهما فانكشفت جماعة السلطان وكان ظهر يوم الخميس وخاف السلطان على نفسه ففرّ إلى جديد السيل وكان يوماً على السلطان وجماعته لا لهم وما زال الحرب بينهم حتّى أمسى المساء فنزل الأب الشيخ محمّد كرّا بجماعته في عرض الغدير ونزل جماعة السلطان قبالتهم من الجانب الآخر حتّى أصبح الصباح وكان الأب الشيخ افتقد بالليل جماعته فوجد أخاه باسي عوض الله قد قتل في الحرب فحزن لذلك وقال لمن أقاتل وقد مات أخي وأعزّ الناس عندي وكان قد أخرج معه باسي طاهر بن السلطان أحمد بُكُر عمّ السلطان محمّد فضل وبايعه على السلطنة وتلك ٣٦،٢،٢

حيلة عملها لئلّا تنفر منه أهل دارفور لأنّ من عاداتهم ألّا يتولّى عليهم إلّا من كان من أولاد الملوك من بيت سلطنتهم[1]

۳۷،۲،۲ ولمّا علم بقتل أخيه قال لمن حوله إنّي قد كرهت الحياة في غد إيّاكم أن تقاتلوا بل أدخلوني في الحرب وانجوا أنتم بأنفسكم فحين شاع عنه ذلك فرّت جميع عساكره الأباعد ولم يبق معه إلّا ذوو قرابته في نفر يسير تبلغ عدّتهم ألفًا أو أكثر بقليل فلمّا أصبح ضربت طبول الحرب وركبت جماعة السلطان وركب هو أيضًا في جماعته وأدخلوه في الحرب والتحم القتال وغاص الأب الشيخ في جماعة السلطان واخترق الصفوف حتّى لم يبق بينه وبين السلطان أحد ولو أراد قتله لفعل ولكن تذكّر معروف أبيه فمنع يده عنه ووقف أمامه برهة وقال له يا ابن الفاعلة أتسمع فيّ كلام الناس ويكون هذا جزائي معك وخاف السلطان حينئذ على نفسه منه وأراد أن يفرّ ونادى قد جاء ليقتلني فانطبقت عليه الناس من كلّ جانب وداروا به كالخاتم بالإصبع ولم يجد معينًا ولا مساعدًا فقاتل حسب طاقته وقتل عدّة أبطال وجرح جراحات غير بالغة فلم يكترث بها وخافوا أن يدركه أحد من جماعته فيَخلص من أيديهم مع أنّ جماعته كلّها انكشفت عنه وبقي فيهم وحده فصار يقاتلهم نحو ساعة ثمّ لمّا عجزوا عنه عقروا جواده فوقع على الأرض فما استطاع النهوض لثقله لأنّه كان لابسًا درعين من الحديد فتكاثروا وتكالبوا عليه بالرماح والسيوف حتّى قُتل رحمة الله عليه ولقد جُرّد بعد موته فوجد فيه ما ينوف عن مائة جرح من ضربة سيف وطعنة رمح ورجع ابن زوجته محمّد شيلفوت ظنًّا منه أن يجده حيًّا فينقذه من أيديهم فوجده قد قُتل فجرّد سيفه وغاص فيهم فقتل منهم عدّة أبطال وهو ينادي يا لثارات الأب الشيخ محمّد كرّا وأخيرًا تكالبوا عليه وقُتل هو الآخر بعد أن قتل أكثر من عشرين من المعدودين

۳۸،۲،۲ وإذ قد ذكرنا مقتل الأب الشيخ محمّد كرّا فلنذكر مبدأ أمره وكيف ترقّى به الحال ونتعرّض لسلاطين دارفور حسبما علمنا من ثقاتهم وأخبرني به الجمّ الغفير من مسنّيهم

---

۱ الأصل: سلطانتهم.

فأقول إنّ السلطان محمّد فضل هو ابن السلطان عبد الرحمن بن السلطان أحمد بكر. قيل إنّ السلطان أحمد بكر كان له من الولد سبعة بنين وهم عمر وأبو القاسم ورِيْز ورِيْفا وتَيْراب وطاهر وعبد الرحمن وهو المدعوّ باليتيم لأنّ أباه مات وتركه حملا فلما حضرته الوفاة جمع أرباب دولته وجعل ولاية العهد لجميع أولاده يتولّاها كلّهم الأكابر فالأكابر وشرط ألّا يتولّى هذا الأمر أحد من أولادهم إلّا بعد انقراضهم فلمّا توفّي تولّى أكبرهم المسمّى بعمر فمكث في الملك سبع سنين ثمّ قُتل في حرب كان بينه وبين السلطان جودة سلطان دار صُلَيْح المسمّاة بدار واداي وبدار بَرْقو ثمّ تولّى بعده أخوه أبو القاسم فمكث ثمان سنين وقُتل في الحرب مع سلطان برقو أيضاً

٣٩،٢،٢ ثمّ تولّى بعده السلطان محمّد تيراب فكَرِهَ الحرب وأقام في بلده آمرًا ناهياً سلطاناً ثلاثاً وثلاثين سنة إنّما سمّي تيراب أرض الشام لأنّ الفور يسمعون أنّ أرض الشام مخصبة وأنّها من أرض الجنّة سيمّا وفيها المحشر وهي عشّ الأنبياء فلقّبوه بهذا اللقب لصدور الأفعال الجميلة منه كما أنّ أرض الشام نباتها كلّها جميل ومعنى التيراب بلغتهم الحبوب التي تـزرع في التراب التي يعبّر عنها أهل مصر بالتقاوي وأهل المغرب بالزرّيعة ولقّبوه بذلك لأنّه كان رجلاً كريماً حليماً واسع الصدر جيّد التدبير شفوقاً على المساكين وكان ذا أناة[1] وكان فيه مجون يحبّ الزينة وأنواع الملاهي وكانت أيّامه كلّها خصباً ودعة ورخاء أسعار إلّا أنّ آخر أمره كرهته الناس لظلم أولاده لأنّ له ما ينوف عن ثلاثين ولداً ذكرًا[2] غير الإناث فصاروا يركبون ويجوسون خلال البلاد وكلّما سمعوا بشيء جميل أخذوه من صاحبه ويكلّفون الرعيّة ما لا تطيق حتّى كان فيهم ابن له يقال له مساعد كان من عتوّه وتجبّره يأبى أن يركب الخيل بل كان يركب ظهور الآدميّين فكلّما وجد شابّاً أمر بالقبض عليه وركبه حتّى أعياه وربّما سافر السفر البعيد لا يركب فيه جواداً ولا حماراً بل ينتقل على الناس حتّى ينتهي سفره وإذا لم يجد غريباً ركب من جماعته وكانت الرعيّة ترفع شكايتهم[3] لأبيهم فكان لا يُشْكِيهم ولا يقبل

١ الأصل: كان اناءة. ٢ الأصل: ولد ذكر. ٣ الأصل: وشكوهم.

منهم بل ربّما غضب وقال إنّ هذا لهو العجب إقليم مثل هذا لا يتحمّل أولادي وكلّما عملوا صغيرة يشكون إليّ فلمّا رأى الناس ذلك أبطلت الشكوى ورفعت أمرها إلى الله عزّ وجلّ

٤٠،٢،٢ وكان قد ولّى المناصب الجليلة لأقارب أزواجه فكانت جميع وزرائه أقارب زوجاته وكان أكبر أولاده إسحاق المسمّى بالخليفة. كان إسحاق المذكور شجاعاً مهاباً ذا رأي وحزم إلّا أنّه كان فيه نوع ظلم وجور وسبب تسميته بالخليفة أنّ أباه جعله خليفة بعده ولقّبه بهذا الاسم وجعل له دولة كدولته ووزراء كوزرائه فكلّ وزير كبير له ولد كان السلطان يأمره أن يأتي بابنه للخليفة ليكون عنده بمنزلة أبيه عند السلطان ومكث على ذلك مدّة حتّى سافر السلطان تيراب إلى كردفال وأبقاه خليفة في دارفور كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى وكان السلطان تيراب يحبّ الخلاعة والانبساط حتّى كانت الشبّان تلعب مع البنات أمامه أي يرقصن البنات والشبّان وهو ينظر إليهم فممّا اتّفق أن جاءت أمامه طائفة من البِرْقِد وهم قبيلة من السودان لهم رقص معلوم يسمّى تَنْدَكَّهْ ومن عاداتهم إذا تعبوا من الرقص تجلس كلّ فتاة وشابّ معاً على حدة فلعبوا حتّى تعبوا وتفرّقوا وجلسوا على عادتهم فقال الشابّ للفتاة أترضي أن أكون لك زوجاً فقالت نعم ما الذي تعطيني من المهر فقال لها أنا رجل فقير ولا أجد شيئاً أعزّ من المقابل لنا هذا وأشار إلى السلطان وكان السلطان جالساً على كرسيّ مقابلا لهما فقالت الفتاة قد رضيت ونظر السلطان لإشارتهما له فدعا بهما فلمّا مثلا بين يديه سألهما عن ذلك فقال الشابّ إنّي سألت محبوبتي هذه في أن تتزوّجني فرضيت وطلبت منّي المهر فقلت لا أملك شيئاً أعزّ من هذا المقابل لي وأشرت إليك فانبسط لقوله وقال رضيت بي مهراً لها قال نعم فقال السلطان أترضيني بالفداء وأنا أفدي نفسي قالت نعم أرضى فدعا بأبيها وخطبها منه وعقد له عليها وأمهرها جاريتين وأعطى الرجل عبداً وأمر لهما برزق يعيشان فيه وهذا نهاية مكارم الأخلاق إذ لا شيء أعظم من جمع بين متحابّين في الحلال

٤١،٢،٢ ومن ذلك ما حكي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنّه كان في أيّام خلافته يطوف في المدينة المنوّرة بالليل ليقف على أحوال الناس ويعلم مظلومهم من ظالمهم[١] وبينما هو في طوافه إذ سمع جارية تغنّي وتقول شعرًا [كامل وإنّما الشطر الرابع من الطويل]

وَهَوِيتُـهُ مِنْ قَبْـلِ قَـطْعِ تَمِيمَتِي مُتَمَايِسٌ مِثْلُ ٱلْقَضِيبِ ٱلنَّاعِمِ
فَكَأَنَّ نُورَ ٱلْبَدْرِ يُشْبِهُ وَجْهَـهُ يَغِيبُ وَيَبْدُو مِنْ ذُؤَابَةِ[٢] هَاشِمِ

فطرق رضي الله عنه الباب وقال لها من هويت فقالت إليك عنّي فقال لا بدّ وأن تعلميني فقالت له بحقّ صاحب القبر إلّا ما انصرفت عنّي فقال والله لست بزائل من مكاني هذا حتّى تعلميني فتنفّست الصعداء وقالت [كامل]

وأَنَا ٱلَّتِي قَـدَحَ ٱلْغَـرَامُ بِقَـلْبِهَا فُتِنَتْ بِحُبِّ محمّد بْنِ ٱلْقَاسِمِ

فقال لها أحرّة أنت فقالت لا بل مملوكة فقال لمن قالت لفلان سمّته له فتوجّه رضي الله عنه ولمّا أصبح سأل عن محمّد بن القاسم فوجده غازيًا بالعراق فأرسل إلى مولاها واشتراها منه وأرسلها إلى محمّد بن القاسم بالعراق وكتب له القصّة ثمّ قال واعلم يا بنيّ أنّ كم مات بهنّ سقيم وعطب بهنّ سليم

٤٢،٢،٢ ومن ذلك ما حكي أنّ سليمان بن عبد الملك بن مروان كان غيّورا على النساء جدًّا حتّى أنّه ربّما سفك دم من ظنّ أنّه نظر لبعض محاظيه نظر عشق فاتّفق له أن أحضر مغنّيًا في بعض الأيّام وكان في النهار فأجلس المغنّي تحت السرير وأمره أن يغنّي واستلقى على ظهره على السرير وكانت معه جارية تروّح عليه من شدّة الحرّ فأخذه النوم فرفع المغنّي رأسه على حين غفلة فرأى الخليفة قد نام والجارية تروّح عليه فتأمّلها فوجدها كالشمس في رابعة النهار فافتتن بها ولم يقدر على التكلّم خوفًا من الخليفة فانهملت دموعه وهاج ولوعه فأخذ قرطاسًا وكتب فيه شعرًا [كامل]

١ الأصل: ظالم. ٢ الأصل: ذواية.

إِنِّي رَأَيْتُكِ فِي ٱلْمَنَامِ ضَجِيعَتِي ... مُسْتَرْشِفاً مِنْ رِيقِ فِيكِ ٱلْبَارِدِ
وَكَأَنَّنَا وَكَأَنَّنَا وَكَأَنَّنَا ... بِتْنَا جَمِيعاً فِي فِرَاشٍ وَاحِدِ

ثمّ ألقاه عليها فأخذته وقرأته وكتبت له فيه [كامل]

خَيْرًا رَأَيْتَ وَكُلُّ مَا أَمَّلْتَهُ ... سَتَنَالُهُ مِنِّي بِرَغْمِ ٱلْحَاسِدِ
وَتَبِيتَ بَيْنَ خَلَاخِلِي وَدَمَالِجِي ... وَتَحُلُّ بَيْنَ مَرَاشِفِي وَسَوَاعِدِي
وَنَكُونُ أَوَّلَ صَاحِبَيْنِ تَلَاقَيَا ... رَغْمَ ٱلزَّمَانِ بِلَا مَخَافَةِ حَاسِدِ

ورمت القرطاس إليه فالتقفه الخليفة قبل أن يصل إليه فلمّا قرأه احمرّت عيناه وكاد يتميّز غيظاً وقال ما حملكما على ما صنعتما أحبّ قديم بينكما أم عشق خامركما في هذه الساعة فقالا بل والله في هذه الساعة ولم يكن لنا به عهد قبل ذلك وانهملت دموعهما فلمّا رأى منهما ذلك رقّ لهما وقال للمغنّي خذها ولا تعد تقاربنا انتهى

٤٣،٢،٢ فعاش السلطان تيراب مدّة مديدة كما ذكرنا وأكثر من الأزواج والسراري حتّى كان له من الولد أكثر من ثلاثين ذكراً راكبين الخيل غير الإناث والصغار وفي أيّامه تلك خدمه الأب الشيخ محمّد كرّا وكان غلاماً مراهقاً فأمره أن يكون في الكُورْكْوَا أي أهل الحرب أي يكون مع الجماعة الذين يحملون الحراب خلف السلطان حين يركب وحين يجلس للحكم ولا خصوصيّة للسلطان في ذلك بل كل ملك من ملوك الفور وقائد من قوّادهم له جماعة يحملون الحراب خلفه حين يركب أو يجلس للحكم مسمّون كوركوا ويرون أنّ ذلك من تمام نظام المُلْك حفظاً للناموس وهيبة للمخدوم في قلوب رعاياه فخدم الأب الشيخ محمّد كرّا في تلك الخدمة مدّة وظهرت منه علامات النجابة فأحبّه السلطان تيراب ونقله إلى سُومِينْدُقْلَه والسوم هو الدار وين هو علامة الإضافة والدقله هو العيال ومعناه دُرا العيال والدرا بلغتهم العربية اسم للمحلّ أو الدار وأهل سوميندقله هم الأمناء على مصالح المخدوم يرسلهم في أسراره. رئيسهم أعظم مقاماً من رئيس كوركوا

٤٤،٢،٢ فأغنى في خدمته حتّى أنّ السلطان كان لا ينادي في أكثر حوائجه غيره فحسده بعض أهل الدار فسعى به إلى السلطان قائلاً[1] إنّ محمّد كرّا خائن غدّار وأنا أراه يجتمع هو وفلانة الحظيّة في كلّ ليلة وتأتيه بالطعام الجميل فغضب السلطان لذلك وهمّ بالبطش به فبلغ الخبر إلى كرّا فأخذ مدية واختلى بنفسه في حجرة واستأصل مذاكير نفسه بيده وجاء بها إلى السلطان وكان قريباً منه وألقاها بين يديه وقال إنّما قيل فيّ ما قيل لمصاحبتي لهذه وها أنا قد استأصلتها لئلّا يبقى في قلب مولاي منّي ريب ثمّ سقط مغشيّاً عليه فرحمه السلطان وأمر بمداواته فعولج حتّى برئ ثمّ إنّ السلطان أمره أن يكون صحبة الأمين عليّ وَدْ جامع أحد الوزراء العظماء ووصّى عليه الأمين المذكور بأن قال له خذ هذا الغلام إلى دُراك واعتنِ به وأكرمه وإيّاك أن تتهاون به فإنّي أرجو أن يخلفك في منصبك فأخذه الأمين على مضض منه ووضعه في سوميندقله كما كان عند السلطان وقد ذكرنا قريبا أنّ أهل سوميندقله هم الأمناء على المصالح المهمّة يرسلهم المخدوم في أسراره

٤٥،٢،٢ فجلس محمّد[2] كرّا في ذلك المحلّ مدّة وكان لا يغيب عن باب مخدومه وكلّما نادى الأمين على أحد من أهل سوميندقله يجيبه محمّد كرّا بل ربّما لم يجد غيره فكان يرسله في قضاء مصالحه وكان من عادته ألّا يذهب لقضاء مصلحة إلّا نجح وأغنى فيها فأحبّه الأمين قهراً عنه لما رأى من كفايته فجعله ملكاً على أهل سوميندقله وميّزه عنهم فصارت جميع الخدمة تحت يده يأتمرون بأمره وحين ولي هذا المنصب اجتهد في الخدمة زيادة عمّا كان عليه ولازم باب مخدومه

٤٦،٢،٢ وكان في الأمين نوع إهمال للأمور منه أنّه كان يأتيه من الطعام وقت الغداء والعشاء ما ينوف عن ألف إناء فكان لا يلتفت إلى ذلك بل كان يأتيه هو ومن معه ما يكفيهم والباقي تتوزّعه الخدمة بغير ترتيب وكثير من الآنية ما يرجع إلى الحريم ملآنا فالتفت محمّد كرّا إلى ذلك ورتّبه أحسن ترتيب وهو أنّه كان يبثّ الخدمة في أتباع سيّده ينظرون من عنده ضيف منهم فيأتونه بالأخبار ويقولون فلان عنده ضيف وفلان

١ الأصل: قائل. ٢ أضيف للسياق: محمد.

وهلمّ جرًّا فكان إذا حضر الطعام اختار لمخدومه من أحسنه ما يكفيه هو ومن معه ثمّ يوزّع على الخدمة كفايتهم ثمّ يوزّع الباقي على محالّ الضيوف كلّ منها على حسب حاله في المرتبة والغنى والجاه والعلم ويوصّي الحاملين أن يقولوا إنّ الأمين أرسل لكم هذا ضيافة والأمين لا يعلم شيئاً من ذلك فصارت الناس تشكر الأمين وتتمدّح به وحين يأتون إليه يقولون جزاك الله خيرًا أرسلت لنا الضيافة العظيمة فلا يوجد نظيرك في أمناء السلطان ويثنون عليه غيبة وحضوراً

٤٧،٢،٢ فكان الأمين يتعجّب من ذلك ويقول هؤلاء يثنون عليّ ويقولون إنّي أرسلت لهم الطعام مع أنّي لم أفعل شيئاً من ذلك لأنّه لا يعلم سببه وبقي متحيّرًا كيف يعلم سبب ذلك حتّى اتّفق له أن كان في الحريم عند المساء وجاء خارجاً إلى الديوان فرأى محمّد كرّا يوزّع الأطعمة فلمّا أحسّ بذلك تربّس وأكمن[1] في محلّ فسمع الأب الشيخ محمّد يقول للخدمة كم في بيت الملك فلان من الضيوف فقالوا له كذا وكذا فقال احملوا لهم كذا وكذا إناء وقولوا لهم قد أرسل هذا العشاء الأمين حتّى وزّع الطعام كلّه فقال من هنا جاء العمل فضنّ به وأكرمه وأعلى رتبته وجعله على الكورايات وفي عرفهم هو الذي يحكم على الخيل وجميع الخدمة وهو منصب جليل عندهم وإن كان في عرف غيرهم لم يخرج عن كونه رئيس السُيّاس وأقام محمّد كرّا في صحبة الأمين عليّ على هذه الحالة حتّى سافر الأمين عليّ إلى كردفال صحبة السلطان تيراب وسافر معه الأب الشيخ محمّد كرّا

١ أي: تربص وكمن.

سبب سفر السلطان محمّد تيراب إلى كردفال

قد حكى لي الثقة العارف بالأنساب أنّ السلطان سَلوگ المدعوّ سليمان الجدّ الأوّل لسلاطين دارفور كان له أخ يقال له المسبَّع فاقتسم هو وأخوه الإقليمين فأخذ السلطان سليمان إقليم دارفور وأخذ المسبّع إقليم كردفال وتعاهدا ألّا يخون أحد منهما صاحبه فبقيا كذلك حتّى كان في زمن السلطان محمّد تيراب. كان الوالي على كردفال من أولاد المسبّع السلطان هاشم المسبّعاويّ وكان فيه شهامة وشجاعة وإقدام على الأمور الشاقّة فأكثر الغزوات على بلاد التُروج والعرب البادية حتّى صار ذا مال عظيم وصار عنده من العبيد ما ينوف عن عشرة آلاف عبد حامل للسلاح واجتمعت عليه أوباش[1] الناس من الدناقلة والشايجية والكبابيش وعرب الرُزيقات حتّى صار في جند كثيف فطمعت نفسه في تملّك دارفور واستشار أرباب دولته في ذلك فأشاروا عليه أن يبثّ السرايا أوّلاً على أطراف البلاد ليضعفوا أهل مملكة دارفور ثمّ بعد ذلك يتوجّه إليها فسمع قولهم وبثّ السرايا على أطراف مملكة دارفور فقتلت وسبت واغتنمت أموالاً عظيمة فأرسل السلطان تيراب إلى السلطان هاشم يقول له ٤٨،٢،٢

> بعد السلام يا ابن عمّي أرسلت سراياك على أطراف بلادي وأنت تعلم ما بيننا من المودّة ولم يقع منّا ما يخالف المودّة مع أنّك تعلم أنّ الذين أخذت أموالهم مسلمون والذين قتلوا موحّدون وهذا الفعل لا[2] يبيحه أحد ولا يفعله عاقل فإذا وصلك كتابي هذا فانته وإلّا سيلقى الباغي مصرعه والسلام

فلمّا وصله الكتاب ما زاد إلّا عتوًّا واستكبارًا وبثّ السرايا ثانياً فعلم السلطان تيراب أنّه إن لم يتداركه ويستأصل شأفته زاد شرّه وأخرب البلاد فتجهّز وتوجّه إليه وهذا هو السبب الظاهر والسبب الباطن أنّه يعلم أنّ الناس غير راضيين عنه ٤٩،٢،٢

[1] الأصل: ارباش. [2] الأصل: لم.

ولا يرضون بتولية أحد من أولاده خصوصاً مع وجود أولياء عهد السلطان أحمد بكر الذين هم أعمامهم ولا سيّما إذا تذكّروا ما وقع منه ومن أولاده من الظلم وهو يريد أن يعهد إلى أكبر أولاده المسمّى بإسحاق الخليفة كما تقدّم فاغتنم الفرصة حين وقع من هاشم ملك كردفال هذا الأمر واغتاظ في الظاهر وأعلن أنّ هذا الأمر لا يقوم به غيره مع أنّه لو بعث الأمين عليّ أو أحد وزرائه لكفاه مؤونة السفر[1] والمشقّة ولكن أراد أن يسافر ويأخذ معه جميع أولاد السلطان كباراً وصغاراً ويقتحم بهم الحروب حتّى يهلكهم ويهلك الوزراء الذين لا يحبّون الولاية لابنه ليتمكّن إسحاق من البلاد والأموال والرجال وينفرد بالذكر

٥٠،٢،٢ ولمّا كانت هذه نيّته جمع جميع أولاد السلطان والوزراء الكبار وأبقى مع الخليفة أولاد الوزراء كلّ منهم في منصب والده وارتحل بهم على هذه النيّة وإن كان أخفاها فقد ظهرت على حدّ قول القائل [طويل]

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ ٱمْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى ٱلنَّاسِ تُعْلَمِ

مع أنّه عومل بخلاف قصده وأعقبه الله تعالى بقتل ولده ولم ينفع تدبيره بشيء ورحم الله القائل [مجزوء الرمل]

إِنَّ أَلْطَافَ إِلٰهِي لَمْ تَدَعْ فِي ٱلْكَوْنِ ضَنْكَا
كُلَّمَا رُمْتُ ٱحْتِيَالاً لِيَ قَالَتْ خَلِّ عَنْكَا
سَلِّمِ ٱلْأَمْرَ إِلَيْنَا نَحْنُ أَوْلَى بِكَ مِنْكَا

وفي كون الأمور دائماً تأتي على خلاف المراد قال المتنبّي [بسيط]

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى ٱلْمَرْءُ يُدْرِكُهُ تَأْتِي ٱلرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي ٱلسُّفُنُ

---

١ الأصل: للسفر.

فلمّا سمع ملك كردفال بقدومه فرّهو وجماعته واستجار بملك سنّار وأقام عنده فدخلها بغير حرب وصار يبثّ السرايا والجند في أطراف البلاد حتّى دوّخها وجبى الأموال واستقامت الأحوال فمكث على ذلك حتّى حال الحول وملّت الناس من المقام وسألوه العود إلى بلادهم فغضب لعدم ظفره بما أمل لكنّه أخفى ذلك وقال لهم كيف ترجعون وقد بلغني أنّ هاشم استجار بمكّ سنّار والملكّ قد جهّز له جيشاً ويريد القدوم علينا فإن رجعنا وجاء بعدنا ظنّ أنّا فررنا منه ونال من البلد مراده وبعد ذلك يغزونا ويحُوجنا إلى الرجوع له ثانياً وأنا الآن مضمر أنّي أتوجّه إليه قبل أن يأتي ولكن حتّى أتحقّق الخبر ٥١،٢،٢

ومكثوا بعد ذلك مدّة فلم يظهر لما قاله أثر فتنكّرت قلوبهم وساءت أحوالهم واشتاقوا إلى أهلهم وعيالهم وتذاكروا مع بعضهم في ذلك خلوة فقال الوزير الأمين عليّ ود برقو وكان صهر السلطان أي أنّ السلطان كان متزوّجاً بابنته ماذا جعلتم لي إن قتلته وأرحتكم منه وتولّون بعده عليكم من شئتم فضمنوا له مالاً عظيماً وتعاهدوا معه على ذلك وجعل بينه وبينهم العلامة صوت الطبل فمهما سمعوا الطبل يكونوا على أهبة مستحضرين فصبر الأمين عليّ حتّى جنّ الليل ولبس درعين سابغين متينين ولبس ثيابه عليهما وتقلّد بسيفه ودخل دار السلطان وقصد حجرة ابنته لما يعلم من حبّ السلطان لها لأنّ السلطان كان له بها مزيد اعتناء فكثيرًا ما كان يجده عندها فلمّا دخل عليها عرفت الشرّ في وجهه وخانه جدّه. إنّ السلطان لم يكن عندها في تلك الليلة فسألها عن السلطان فقالت لا أعلم أين هو ولكن إن أردت بحثت لك عنه وأعلمته[1] بقدومك فقال لها نعم ما تصنعين لأنّي شديد الاحتياج إليه في هذه الليلة وكانت في وقت محادثتها له رأت طوق الدرع من تحت طوق الثوب فتأكّدت الشرّ وذهبت إلى محلّ السلطان وأعلمته أنّ أباها جاء طالباً له وأنّها رأت منه أموراً أنكرتها منها أنّه لابس درعاً تحت ثيابه ومتقلّد سيفه مع أنّ العادة أنّهم[2] لا يدخلون على السلطان بسيف أبدًا ومنها أنّ ٥٢،٢،٢

١ الأصل: واعلمه. ٢ أضيف للسياق: أنّهم.

في وجهه علامة الغضب فأحسّ السلطان بالشرّ لأنّه هو الذي كان يلحّ عليه بالعود ويبالغ في القول له فأمرها ألّا تعود إليه وخرج السلطان ونادى كبراء العسس وأمرهم بالقبض على من جاء خارجاً عن الدار وإن أفلت منهم لا يلومون إلّا نفسهم وأخذ هو جماعة منهم حرساً له متأهّبين[1] بأسلحتهم وغاص في لُجّة داره ودخل في حجرة[2] بعض نسائه واحتاط الحرس بها

٥٣،٢،٢ فجلس الأمين عليّ في انتظار ابنته تعود فلم تعد إليه بخبر السلطان أو أنّ السلطان يأتي إليه ليبلغ أربه منه فلم يأته أحد بل كان كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع مارنَ أنفه بكفّه على حدّ قوله [مجزوء الوافر]

إِلَى حَتْفِي سَعَى قَدَمِي أَرَى قَدَمِي أَرَاقَ دَمِي

ولمّا أعياه الانتظار قام يريد الذهاب إلى داره خوفاً من أن يطلع النهار عليه ويفتضح فمشى قليلاً حتّى إذا قارب العسس نهضوا إليه وقالوا له ارجع حيث كنت فأبى وعرّفهم بنفسه لأجل أن يخلوا سبيله فما أمكن بل قالوا له نحن مأمورون بالقبض عليك إن لم ترجع إلى المحلّ الذي جئت منه فسبّهم وأراد أن يخرج قهراً عنهم فهجموا عليه ليُوثِقوه حتّى يصبح فقاتلهم وجرح أناسا منهم فتكالبوا عليه وقتلوه ولم يستفد من بغيه إلّا فناء أجله ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لكلّ باغٍ مصرع أو كما قال رحمه الله السيّد عليّ الغراب حيث يقول [خفيف]

زَارِعُ ٱلْبَغْيِ حَاصِدٌ لِلنَّدَامَهْ فَٱطْلُبِ ٱلسِّلْمَ إِنْ أَرَدْتَ ٱلسَّلَامَهْ
لَا تَثِقْ بِٱلْمُنَى فَمَا كُلُّ بَاغٍ نَالَ مَا يَرْتَجِي وَوُفِّي مَرَامَهْ
رُبَّمَا كَانَتِ ٱلْأَمَانِي مَطَايَا لِلْمَنَايَا وَمَوْرِداً لِلنَّدَامَهْ
رُبَّمَا خَيَّلَتْ لِرَاجٍ مَنَالاً مِثْلَمَا خَيَّلَتْ لِرَاءٍ مَنَامَهْ
رُبَّ سَاعٍ لِيَجْتَنِي طِيبَ عَيْشٍ وَهْوَ يَجْنِي وَلَيْسَ يَدْرِي حِمَامَهْ

[1] الأصل: متأهبين. [2] الأصل: حجر.

وأُخبر السلطان حينئذ بموت الأمين فقال اجعلوه في رداء وضعوه في محلّ حتّى يصبح وحين بزغ الفجر أمر السلطان بإحضار عبيده كلّهم لابسين السلاح فحضروا ورتّبهم على الأبواب وأمر البوّابين أن يفتحوا الأبواب حتّى إذا لم يبق أحد أغلقوها عليهم وأمرهم ألّا يدعوا[1] حواشي القوّاد يدخلون معهم بل لا يدخل إلّا الأمراء فقط ووصّى العبيد إذا أغلقت الأبواب تأتي جماعة منهم ويقفون أمامه محيطين بالعالم الذين يكونوا في المجلس ثمّ أمر أن تضرب الطبول ضرب حزن وإزعاج لأنّ لهم في حال السرور ضرباً معروفاً وفي حال الحزن كذلك فضُربت الطبول كما أمر وجاءت الوزراء والملوك على طبقاتهم ظنّاً منهم أنّ عليّ ود برقو فعل ما اتّفق معهم عليه فجاءوا متهيّئين[2] فحين وصلوا إلى باب دار السلطان رأوا الأمر على غير ما يعهدون فلم يجدوا بدّاً من الدخول ودخلت أتباعهم معهم فمُنعوا وبقوا منفردين عن أتباعهم وجاء العبيد الذين أوصاهم بالإحاطة بهم فأحاطوا بهم شاكّين السلاح مظهرين الغضب وخرج السلطان عليهم غارقاً في ثياب سود متطيلساً بكشمير أحمر وهذا نهاية الغضب فجلس السلطان في محلّه المعدّ له وأمر بإحضار القتيل فأُحضر ملفوفاً بالرداء فأمر بوضعه في وسط الحلقة وقال أريد منكم أن تعرفوا هذا من هو فبادروا إليه وكشفوا وجهه فعرفوه ولم يتجاسر أحد منهم على التكلّم لما قام عنده من الغضب فقال لهم السلطان هل عرفتم هذا فسكتوا كلّهم ٥٤،٢،٢

فقام رجل منهم ذو دهاء صهر السلطان أيضاً فقال قد عرفناه وهو الأمين عليّ ود برقو وقد دخل عليك باطّلاعنا أجمعين فإن أردت قتلنا فها نحن بين يديك وإن عفوت فالأمر إليك فقال السلطان وما حملكم على ذلك قال إنّك أتيت بنا إلى هنا وتعلم أنّ لنا في بلادنا أهلاً وعيالاً وأولاداً قطعتنا عن رؤيتهم والتمتّع بمعاشرتهم وليس لنا هنا شغل نعذرك في الإقامة بسببه ولسنا نراك ناوياً أوبة ولا يطيب لنا عيش إلّا بمكاننا فأجلّ ما تصنع معنا أن تردّنا إلى أوطاننا فإنّ قلوبنا أنكرت الغربة وحنّت إلى الأوطان شعر [طويل] ٥٥،٢،٢

---

[1] الأصل: يدعون. [2] الأصل: متهيين.

حَـنِيني وَأَشْوَاقِي لِأَوَّلِ تُـرْبَـةٍ   وَأَوَّلِ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا

لا سيّما وقد ورد عن سيّد ولد عدنان حبّ الوطن من الإيمان فلمّا سمع مقال ذلك الرجل عرف صدقه وخاف إن بطش بأحد منهم قامت عليه القيامة لأنّهم معذورون في ذلك فتخلّص منهم بأن قال لا تستعجلوا[١] موتي فإنّي ميّت لا محالة لأنّي مريض مرضا لا يمكنني إطلاعكم عليه وهو الذي يمنعني عن السفر فإن عافاني الله في هذه المدّة رجعت بكم وإيّاكم أن تفعلوا مثل هذه والسلام

٥٦،٢،٢ ثمّ إنّه بعد ذلك بأيّام أظهر أنّه مريض وصار لا يخرج إلى الديوان ولا ينظر في أحوال الناس مع أنّه معافى الجسم ولم يعلم أنّ من تمارض انقلب الهزل جدًّا ومرض حقيقة وربّما مات وقد قال عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم لا تمارضوا فتمرضوا فتموتوا فانقلب عليه الدست وحلّ به المرض والمقت وأيقن أنّه هالك لا محالة وكتب حينئذ للخليفة كتابًا يقول فيه بعد السلام اعلم يا ولدي أنّه قد اعتراني مبادئ ما لا بدّ منه ولا محيص عنه فإذا وصلك كتابي هذا فخلّف ولدك خليل على دارفور وعجّل بالقدوم عسى أن تدركني وبي رمق لعلّي أدبّر لك شيئًا ينفعك والسلام وختم الكتاب وأرسله صحبة هجّان وطاش الخبر أنّ السلطان ثقل عليه المرض وأرجف بموته وصارت الناس لا يتحدّثون إلّا بذلك

٥٧،٢،٢ وكان محمّد كرّا كثيرًا ما يدخل دار السلطان ويجتمع على نسائه وكان ممّن يجتمع عليها إيا كري كنانة أعظم نساء السلطان صاحبة الرتبة الجليلة لأنّ كلّ سلطان يتولّى لا بدّ وأن يحبّ أحد نسائه ومن أحبّها وقلّدها أمور الحكم في بيته هي التي تسمّى إيا كري حقيقة وهذا اللفظ معناه السيّدة الملكيّة وإن قيل لغيرها من نساء السلطان إيا كري فذلك من قبيل التعظيم لا غير وهذه كنانة كانت صاحبة رأي وتدبير. كان السلطان تيراب لا يألف غيرها إلّا لِماماً[٢] ولهذا قلّدها هذا المنصب لأنّ هذا المنصب له أقطاع ومعاليم وأموال تُجبى لها منه وتصدر منها أوامر ولها

[١] الأصل: تستعجلون. [٢] الأصل: لماسا.

قوّاد يضبطون أموالها وأحوالها فلمّا رأت أنّ السلطان ميّت لا محالة خافت على نفسها وكان لها ولد يسمّى حبيب خافت عليه أيضاً فاجتمعت على محمّد كرّا وقالت له يا محمّد هل لك فيّ حيلة تخلّصني وولدي من هذا الأمر قال لها نعم الحيلة أنّك تصلين حبلك باليتيم لأنّه هو صاحب الدولة بعد السلطان تيراب لأنّ كلّ الناس راضون عنه فقالت هل لك أن تجعل بيني وبينه عهداً وتتوثّق منه بأنّه إذا تولّى يجعلني إيا كري ويجعل ولدي حبيب خليفة فقال لها محمّد[1] كرّا أفعل ذلك ولك ما يسرّك إن شاء الله

٥٨،٢،٢ وكانت كنانة تخاف على ولدها حبيب من الخليفة إسحاق لأنّه ابن ضَرّتها وعرفت أنّ اليتيم لا ولد له فقالت يربّي ولدي فذهب إليه محمّد كرّا وأقرأه سلامها وأخبره أنّها تريد أن تعينه على التولية بشرط أن يتزوّجها ويجعل ولدها خليفة فعاهده على ذلك فقال محمّد كرّا وماذا لي أنا أيضاً إن كتمت سرّكما وأعنتك بجهدي على التولية ودبّرت بحيلتي على قدر طاقتي [طويل]

وَلَا تَحْتَقِرْ كَيْدَ ٱلضَّعِيفِ فَرُبَّمَا تَمُوتُ ٱلْأَفَاعِي مِنْ سُمُومِ ٱلْعَقَارِبِ

فقال اليتيم إن فعلت ذلك وأغنيت فيه قلّدتك منصب الأب الشيخ وعاهده على ذلك فرجع إليها محمّد كرّا وأعلمها أنّه استوثق منه بما أرادت فاطمأنت لذلك وصارت ترسل معه أخبار السلطان وقتاً فوقتاً

٥٩،٢،٢ ولمّا ثقل مرض السلطان تيراب ويئس من مجيء ولده إسحاق الخليفة أحضر الأمين عليّ ود جامع، سيّد محمّد كرّا، والأمين حسب الله جِران والأمين إبراهيم ود رَماد والأب الشيخ عبد الله جُثا وأميناً آخر نسيت اسمه وقال اعلموا أنّي صنعت معكم معروفاً وأرجو أن تكافئوني عليه بتنفيذ وصيّتي التي أريد أن أوصيكم بها فقالوا سمعاً وطاعة فقال للأمين عليّ إنّي أوصيك إذا أنا متّ بأن تجمع العساكر كلّهم تحت يدك وتُوصلهم إلى إسحاق ولدي بدارفور فقال سمعاً وطاعة وقال للأمين حسب الله قد

[1] أضيف للسياق: محمد.

جعلتك أميناً على خزائن أموالي. إذا أنا متّ توصلها إلى ولدي فقال سمعاً وطاعة وقال للأمين إبراهيم ود رماد قد جعلتك أميناً على دوابّي وخيلي إذا أنا متّ توصلها إلى ولدي بدارفور وقال للأب الشيخ قد قلّدتك الحريم والعيال والخدم إذا أنا متّ توصلها إلى ولدي وقال للآخر قد جعلتك أميناً على أسلحتي وملبوساتي وأولادي إذا أنا متّ توصّلها إلى ولدي فقبلوا منه ذلك بالسمع والطاعة ودعوا له بالعافية وبكوا لما هو فيه من المرض لأنّهم أصهاره ما عدا الأب الشيخ لأنّه خصيّ ثمّ ذهبوا إلى محلّهم وقضى السلطان نحبه وهم غائبون وحين توفّي أرسلت كنانة إلى اليتيم بسبحة السلطان ومنديله وخاتمه وحجابه تُعلمه بموته على يد محمّد كرّا

٦٠،٢،٢ وجاء أولئك الوزراء الذين أوصاهم فوجدوه قضي عليه فندموا على خروجهم من عنده ودبّروا حيلة وأجمعوا أمرهم أن يجعلوا السلطان في تخت بعد فتحه والقاء ما في أمعائه[1] وتصبيره ثمّ[2] يُغطّى ويُحفّ بالعساكر ولا يتركون أحداً يصل إليه وكلّ من سأل عليه قيل له مريض حتّى يصلوا إلى دارفور ويسلّموا كلّ ذلك إلى ولده إسحاق الخليفة

٦١،٢،٢ والأب الشيخ محمّد كرّا أخذ الأشياء المذكورة وتوجّه إلى اليتيم وقال له عوّضك الله في أخيك خيراً وأعطاه الخاتم والسبحة والمنديل فتحقّق موت أخيه وأخذ الأشياء وذهب إلى أخيه الأكبر المسمّى بريز فحين أعلمه نهض قائماً وأخذ ريفا وطاهراً وتوجّهوا إلى دار السلطان فلم يقدر أحد على منعهم وما زالوا داخلين حتّى وصلوا إلى المحلّ الذي فيه الجماعة والسلطان تيراب مسجًّى أمامهم وهم يبكون عليه فدخلوا عليهم ولم يخاطبوهم بل جلسوا حول أخيهم وبكوا حتّى فاؤوا ثمّ التفتوا إلى الجماعة وقال لهم ريز أما كفاكم أنّ مدّة حياة أخينا كان خيره لكم والآن تريدون أن تأخذوا شِلْوه أيضاً لأجل أن يكون لكم حيّاً وميّتاً ها نحن قد اطّلعنا على موته فافعلوا ما بدا لكم فقد تركناه لكم ثمّ خرجوا وتركوهم

١ الأصل: امائه. ٢ أضيف للسياق: ثم.

٦٢،٢،٢ فاختلف رأي الجماعة بعدهم وقالوا قد فسد تدبيرنا واطّلعوا على موت السلطان فلا يمكننا أن ننفّذ وصيّته الآن فقال الأمين عليّ ود جامع لا بدّ لي من تنفيذ وصيّته أو أموت دونها ثمّ نادى يا محمّد كرّا اذهب إلى محمّد ولدي وقل له يجمع عساكري ويلبسوا دروعهم وأسلحتهم ويأتون إلى باب السلطان فقال سمعاً وطاعة وذهب إلى محمّد ابن الأمين وقال له إن حضرة الأمين يأمرك أن تجهّز العساكر وتركب معهم وتذهب إلى أولاد السلطان وتكون معيناً لهم حتّى يأتيك أمري فقال الأمين محمّد سمعاً وطاعة ونادى في العساكر فتأهّبوا وركبوا وتوجّهوا إلى أولاد السلطان ورجع هو بعد ذلك للأمين وقال له قد ذهبت فوجدت سيّدي قد أخذ العساكر وتوجّه إلى أولاد السلطان فاغتاظ الأمين على ذلك وعلم أنّه لا يقدر على تنفيذ وصيّة السلطان تيراب[١] وخاف من الإيمان والعهود فأخرج علبة صغيرة كانت معه وفتحها واستفّ منها شيئاً ممّا كان فيها فوقع ميّتاً ولمّا مات انخذل الباقون وتفرّق رأيهم وهذه أقوى مكيدة عملها محمّد كرّا في الأمين وولده وبسببها وقعت العداوة بينه وبين الأمين محمّد بن الأمين عليّ المذكور

٦٣،٢،٢ ثمّ إنّ الجماعة تفرّقوا وذهب كلّ منهم إلى جيشه وهاجت الناس وماجت وعلموا أنّه لا بدّ للدولة من سلطان يقوم بأمرهم ويجمع كلمتهم وكانت أولاد السلطان أحمد بكر الذين هم إخوان المتوفّى جالسين هم وأتباعهم على حدة وأولاد إخوانهم وأتباعهم على حدة والرعايا على حدة فنهضت جماعة من المدبّرين ودعوا بالقاضي والعلماء وأرسلوهم إلى أولاد السلطان أحمد[٢] بكر لأنّهم هم الكبراء وأولياء العهد من أبيهم وقالوا لهم قولوا[٣] لهم بعد السلام اعلموا أنّه لا بدّ لهذا الأمر من سلطان يجمع كلمة الناس ويقوم بأمرهم والملك لكم وأنتم أربابه فعيّنوا لنا سلطاناً نرضى نحن وأنتم به[٤] فتوجّهت العلماء والقاضي وأخبروهم بذلك فقالوا قد عيّنّا لهم أخانا ريزًا لأنّه هو أكبرنا وسيّدنا ونحن تحت أمره ونهيه

---

١ الأصل: تيرب. ٢ أضيف للسياق: أحمد. ٣ الأصل: قلوا. ٤ أضيف للسياق: به.

فتوجّهت العلماء لأولاد السلاطين الصغار وأخبروهم أنّ باسي ريزًا يكون عليهم ٦٤،٢،٢
سلطانًا فأبوا وقالوا إن باسي ريز عمّنا ووالدنا لكن لا نريد أن يتولّى علينا لأنّه صعب المراس فيه حدّة تُخشى غائلته خصوصًا ونحن أولاد صغار نريد سلطانًا حليمًا يربّينا وإن صدر من أحدنا بادرة يعاملنا فيها بالحلم وقالت الرعيّة إنّ باسي ريز ملكنا وابن ملكنا ولكن به حدّة والأولى أن يختار هو غيره لأنّه هو سلطان تولّى أم لم يتولّ فرجعت العلماء وأخبروهم بذلك فقال باسي ريز قبلنا عذرهم وولّينا عليهم باسي طاهرًا فأخبروا به أيضًا أولاد السلاطين[١] فقالوا لا نرضى بعمّنا طاهر لأنّ له أولادًا كثيرة لا ينتبه لتربيتنا بسببهم وقالت الرعيّة إنّما كرهنا السلطان تيراب لكثرة أولاده فإن يولّوا علينا طاهرًا فنحن نرضى بالخليفة أن يكون سلطانًا لأنّه أقلّ أولادًا منه فرجعوا وأخبروهم فقال ريز قد ولّينا عليكم اليتيم فأخبروهم فرضوا به كلّهم رعيّة وأولاد ملوك وانعقد أمرهم عليه وأخذوه وتوجّهوا به إلى دار السلطان وألبسوه الخاتم وأقعدوه على كرسيّ المملكة ولم يختلف عليه اثنان

١ الأصل: السلطان.

الباب الثالث

في ذكر نبذة من سيرة السلطان عبد الرحمن الملقّب بالرشيد وأوّل أمره وولايته ووفاته

١،٣،٢ قد ذكرنا فيما مضى أنّ السلطان أحمد بكر خلّف سبعة من الولد منهم السلطان عبد الرحمن المذكور وهو أصغرهم لأنّ أباه توفّي وهو حمل في بطن أمّه ولذلك سمّي باليتيم. نشأ على أحسن حال حفظ القرآن وقرأ في الفقه وعرف الحلال والحرام ولم ينتبه إلى ما انتبه له أولاد الملوك في دارفور لأنّ أولاد الملوك هناك متى كبر الواحد منهم يخوض في البلاد يتضيّف وينهب أموال الناس وكلّما رأى شيئاً أعجبه أخذه بدون ثمن ويقول إنّ جميع ما في دارفور من العالم عبيد لأبيه إلّا عبد الرحمن فإنّه من صغر سنّه كان صالحاً تقيّاً نقيّاً عفيف النفس وكان في غاية من ضيق العيش وكان إذا سافر وأمسى عليه المساء في بلد قال لمن ينزل عنده أنا ضيف الله فإنّ قبله مكث وإلّا ذهب إلى محلّ آخر ولم يُسمع عنه أنّه ظلم أحداً قطّ وكان لا ينسى الصنيعة لمن فعلها معه بل يتذكّرها ويجازيه عليها

٢،٣،٢ ومن ذلك أنّه كان مسافراً فنزل عند رجل من قبيلة يقال لها البِرّتي فعرفه الرجل وذبح له كبشاً سميناً ولاطفه ولمّا جاء العشاء وحضر الطعام رأى السلطان عبد الرحمن أنّ الرجل قد تكلّف له فقال له يا هذا أما كان يغني عن هذا ما هو أقلّ منه لو ذبحت لنا دجاجة لقامت مقامه وكنت أدّيت ما وجب عليك فقال لا يا مولاي والله لو ملكت جَزوراً لنحرتها لك ألست عبد الرحمن اليتيم ابن سلطاننا فقال له

اليتيم ومن أين تعرفني قال عرفتك بحسن خلقك وتقواك وإنّه سيصير لك شأن فقال اليتيم لئن ملكت لأطعمنّك أسمن ممّا ذبحت لنا وكان الأمر كذلك فإنّه لمّا ولي دعا بالرجل وكان يسمّى محمّد دَرْدُوك وولّاه منصباً جليلاً وأخرجه لجباية أموال قبيلة العرب المجانين وهي قبيلة عظيمة أهلها أصحاب إبل فحصل منها من الأموال والنوق والجمال ما لا يوصف

٣،٣،٢ ومنها أنّه مرّ ببلاد الريح ونزل على رجل فقير يقال له جِدّو فأكرمه على قدر طاقته وكان هذا الرجل من بيت كبير وأبوه كان ملكاً عظيماً يقال لمن تولّى في منصبه التَكَنْيَاوِي فلمّا ولي اليتيم ولّاه منصب أبيه ورأيته واجتمعت به ومنها أنّ الفقيه مالك الفوتاويّ الذي أسلفنا ذكره كان رأى له مناماً وصورته أنّه رأى قمرًا في السماء والناس ينظرون إليه ويقولون هذا اليتيم فأوّله أن يلي المُلْك وذهب وبشّره بذلك فقال إن صدقت رؤياك لأرفعنّ قدرك فكان كما قال وكان يصوم الخميس والاثنين على الدوام ويصوم رجب وشعبان ورمضان وكان يحبّ أهل العلم ويكرمهم

٤،٣،٢ وقبل ولايته بأيّام شاع عند المنجّمين وأصحاب خطّ الرمل أنّ اليتيم هو الذي يتولّى السلطنة بعد السلطان تيراب وسمع السلطان بذلك فحقد عليه وأراد قتله مراراً والله يمنعه منه وكان يدعوه للطعام ويجعل له السمّ فيه فكان اليتيم يقول إنّي صائم ولا يأكل منه شيئا ولقد أخبرني من شاهد وقت توليته حين أدخلوه لدار السلطنة أنّه كان عليه قميص قد بلي حتّى أن كتفيه ظاهران منه وبيده سبحة من خشب تساوي في برّ مصر عشرين فضّة ومكث عزبا حتّى بدا الشيب في لحيته وما ذاك إلّا لفقره وعدم المال الذي يتسرّى أو يتزوّج به ولم ير النساء إلّا حين سافر إلى كردفال صحبة أخيه السلطان محمّد تيراب فمرّ على بلاد يقال لها البِيقُو فأعطاه ملكها جارية وَخْشاء تسمّى أنبوسة فغشيها فولّدت منه السلطان محمّد فضل

٥،٣،٢ ولمّا انعقد الأمر عليه أجلسوه على سرير الملك كما تقدّم وبايعوه وكان أوّل من بايعه أخوه الأكبر ريز ثمّ ريفا ثمّ طاهر ثمّ أولاد السلاطين فبايعوه ثمّ القاضي والعلماء

ثمّ الأمراء وضربت طبول الحزن إعلاناً بموت السلطان تيراب ثمّ بطلت قليلاً وضربت طبول الهناء إعلاما بتولية السلطان عبد الرحمن وكان من عادة ملوك الفور أنّ السلطان إذا تولّى يمكث سبعة أيّام في بيته لا يسأل عن حكم ولا أمر ولا نهي بل يجلس للتهنئة والسرور تدخل عليه العلماء والوزراء وأرباب الدولة فلمّا تولّى السلطان عبد الرحمن أبطل تلك العادة وخرج صبيحة توليته فجاءت الوزراء فرأوه جالساً في ديوانه وتناول بعض أحكام فلاموه وقالوا ليست العادة كذا فقال بئس العادة ليست في كتاب الله ولا في سنّة رسوله ثمّ جمع جميع أرباب الدولة وقال لهم إن كان لكم أَرَب في أن أكون سلطانا عليكم تُبْطِلوا الظلم ولا تحدّثْ به أنفسكم وتوبوا إلى الله تعالى منه فإنّ الظلم يخرب الدول ويقصر أعمار الملوك فقالوا سمعاً وطاعة

٦،٣،٢ ثمّ لمّا كانت صبيحة اليوم الثالث أمر بإخراج خزائن السلطان تيراب فأخرجت ففرّق ما كان فيها من العين من ذهب وفضّة وثياب على العلماء والأشراف والفقراء ووجد فيها من الكشمير والجوخ الذي عثّ شيء كثير فأمر أن يرمى خارج الديار وكلّ من وجد شيئا ينفعه أخذه فأخرج فكان كالطود العظيم واجتمعت عليه الفقراء ينهبونه وبسطوا أيديهم بالدعاء للسلطان عبد الرحمن ثمّ لمّا كان سابع يوم أخرج جواري السلطان تيراب وفرّقها أيضاً ولم يترك إلّا الحرائر وأمّهات الأولاد التي تزوّجها أخوه بالعقد ثمّ نصب المناصب فجعل محمّد دُكّي أميناً في منصب أبيه الأمين عليّ ود جامع وأمرهم بالأهبة للرحيل إلى دارفور فتجهّزوا

٧،٣،٢ وحين خرج من كردفال مرّ على جبل التروج فأوقع بهم وأخذ جميع ما فيه من الشباب والبنات ولم يترك فيه إلّا المسنّين واجتمع بمشايخ عرب البادية من الرزيقات والمِسيريّة فالتمس منهم المسير معه لحرب الخليفة وكلّ ما اكتسبوه من المال والسلاح والخيل فهو لهم فاجتمع عليه منهم ألوف وتوجّه إلى دارفور لكنّه لم يأتها من جهة المشرق بل أتاها من جهة الجنوب وقبل وصوله كتب إلى الخليفة كتابًا يقول فيه

من عبد الرحمن سلطان دارفور إلى ولد أخيه إسحاق أمّا بعد فإنّي أعزّيك في والدك وإن كان أخي لأنّك أقرب منّي إليه وأوصيك ببرّ الوالدين فإذا علمت هذا فاعلم أنّي عمّك وحرمتي كحرمة أبيك وعار على الولد أن يصادر أباه أو عمّه فضلاً عن أن يجرّد في وجهه حساماً فأنهاك عن القتال وإيّاك أن تستفزّك رعونة الشباب وتسمع قول المفسدين فيحولوا بيني وبينك ولك عليّ عهد الله وميثاقه أن أقرّك خليفة كما كنت في أيّام أبيك وأجعلك وليّ عهدي كما كنت وليّ عهد أبيك فاسمع قولي واحقن دماء المسلمين وإن خالفت حلّت بك الندامة ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾

٨،٣،٢ فلمّا وصل الكتاب إلى الخليفة وعلم ما فيه كتب إلى السلطان عبد الرحمن

بعد السلام أمّا بعد فإني عاهدت الله تعالى ألّا أطأ غير بساط أبي وأنا وليّ عهده ولا حقّ لك عليّ وإن قاتلتني فأنا مظلوم والسلام

ثمّ جهّز له جيشاً كثيفاً بنظر الحاجّ مفتاح داداه وأكبر عبيده فتلاقى هو وجيش السلطان عبد الرحمن في محلّ يقال له تبلديّة فكان مع كلّ إنسان من جيش السلطان عبد الرحمن سَفْرُوك والسفروك قطعة من العصا صورتها هكذا فحين التقى الجمعان ألقى جماعة السلطان السفاريك على جماعة الخليفة وقالوا الله أكبر ففرّوا وتبعهم جماعة السلطان يأسرون ويأخذون الأسلاب والخيول وتبعهم العرب أيضاً فاغتنموا منهم غنيمة عظيمة ونجا الحاجّ مفتاح وفلّ من أصحابه برأس طِمِرّه[1] وحين دخل الحاجّ مفتاح على الخليفة قال له ما وراءك قال يا سيّدي إنّي ناصح لك صالح عمّك وإن طلب منك مالاً فأعطه إيّاه واجعلني أوّل

[1] الأصل: طَمْرة.

ما يُعطى فأنا فداؤك فلمّا سمع الخليفة منه هذا الكلام زجره وقال رجعت إلى أصلك يا عبد السوء لكنّ اللوم عليّ في أن أقدّمك على العساكر ثمّ إن الخليفة حشد الحشود وفتح الخزائن وفرّق الأموال وأعطى الأقطاع فجمع جيشاً عظيماً لا أوّل له ولا آخر وبرز يؤمّل النصرة على السلطان

٩،٣،٢ فوصل إلى محلّ يقال له تالْدَوَا فأدركه السلطان هناك ولمّا عاين كلّ منهما صاحبه رتّبا جيوشهما وصفّا صفوفهما وكان مع جماعة الخليفة رجل من الملوك يقال له بحر الجبّاي وهو الذي يجبي الغلال للسلطنة ومعه أتباعه ما ينوف عن عشرة آلاف من الخيل خلاف الرجّالة فلمّا تلاقى الجمعان أخذ جماعته وزحف على جيش السلطان عبد الرحمن كأنّه يريد قتالهم ودخل فيهم وألصق صفّه بهم وبقي يقاتل الخليفة فترك في صفوف الخليفة ثَلْماً عظيماً وفرجة ما قدروا على سدّها فانكسرت قلوب عسكر الخليفة بما فعل الملك بحر والتحم القتال فلم يكن إلّا كلمحة بارق حتّى تقهقر جيش الخليفة وحين رأى الخليفة ذلك خرج يقاتلهم بنفسه فكان كلّ من عرفه يعرض عنه إكراماً له ولأبيه وما زال يفعل كذلك حتّى رأى جيشه انهزم وبقي هو في نفر قليل فلحق بجيشه فرأى أنّه[1] قد قتل أكثره وتبعتهم عساكر السلطان يأسرون ويسبون حتّى أمسى المساء وحكى لي من كان حاضراً أنه وقت التحام القتال بينهما رأى النجوم في السماء وكان الوقت ضحى ولقد شاهدت محلّ الواقعة فرأيته جدباً في وقت الربيع فسألت عن سبب ذلك فقيل لي إنّه لا ينبت فيه نبت لما سال فيه من الدماء

١٠،٣،٢ ثمّ إنّ الخليفة توجّه بأصحابه إلى الجهة الشماليّة وترك السلطان بالجهة الجنوبيّة ولمّا انفرد الخليفة عن السلطان وأبعد عنه ظلم وتعدّى وجار وصار يخرج الناس معه قهراً عليهم وكلمّا عثر بجواد أخذه أو بمال استأصله فاجتمع له بذلك مال عظيم وخلق كثيرون وعظم شرّه واستغاثت الناس منه إلى السلطان فأراد أن يتوجّه إليه بنفسه فمنعه أرباب دولته فكتب له كتاباً يقول فيه

١ أضيف للسياق: أنه.

بعد ما يليق فإنّك طغيت وبغيت وظلمت وتعدّيت وقد نصحتك أوّلاً
أن تحقن دماء الناس فأبيت وكان منّا ما كان والآن فقد استعنت على
قتالنا بظلم العالم ونهب أموالهم وأنا أنصحك ثانياً أن تترك ما أنت عليه
من الرعونة والجبر والعتوّ فإن رجعت إلينا ثانياً قبلناك وجعلنا لك
ما جعلناه أوّلاً وإن أبيت فالإثم عليك وأنت المذموم وإن أصررت على
القتال فالرعيّة لا ذنب لها فعِفَّ نفسك عن أموال الناس وها هو مالي
بين يديك. خذ منه ما شئت حتّى يحكم الله والسـلام

١١،٣،٢ فلمّا وصل إليه الكتاب وعلم ما فيه مزقه ولم يردّ له جواباً وزاد شرّه وكثر شاكوه فأرسل إليه ملك الجهة الشماليّة ويسمّى بالتكنياوي في جيش فذهب إليه التكنياوي فأدركه في محلّ يقال له بوّا فحين رأى الخليفة الجيش قد أقبل رتّب صفوفه ووقف حتّى وصل إليه الجيش والتقى الجمعان وكان جيش الخليفة قد أثّر فيه الرعب من وقعة تالدوا فأراد الانهزام فثبّتهم الخليفة واقتحم الحرب بنفسه هو وجماعة من تِرْبِه فكان كلّما حلّ في جهة يفرّون منه حياء لا خوفاً حتّى دخل في القلب ووصل إلى التكنياوي فقال له يا عبد السوء ألست عبد أبي تغدر وتقاتلني وجرّد حسامه وضربه حتّى قتله وحين خرّ قتيلاً تشوّش صفّه وانهزم جنده وتبعهم عسكر الخليفة فأخذوهم قتلاً وأسرًا ونهباً ولم ينج من الفُلّ إلّا القليل وغنم الخليفة خيلهم وسلاحهم وما كان معهم فانجبر خاطره وأمل النصرة على عمّه وتقوّى بما حصل له من الغنيمة

١٢،٣،٢ وبلغ ذلك السلطان عبد الرحمن فاغتاظ ثمّ أرسل أخاه ريفا مع جيش آخر فأدرك الخليفة في بوّا أيضاً وحين رآه الخليفة رتّب صفوفه وعبأ عساكره وكان قد أعدّ كميناً في محلّ منخفض وقال لهم إنّي أتقهقر بالعساكر وهم يطمعون فيّ ويأتون خلفي فإذا رأيتموهم فعلوا ذلك فاصبروا حتّى تروهم أمامكم ثمّ كونوا[١] من خلفهم وانزلوا فيهم وأثخنوا فيهم ونحن نرجع عليهم فنكون أمامهم وأنتم خلفهم فلا يفلت منهم

١ الأصل: كنوا.

أحد وكان الأمر كذلك فحين التقى الجمعان تقهقر جماعة الخليفة فظنّ جماعة السلطان أنّه انهزم فأوغلوا فيهم حتّى صاروا أمام الكمين وهم لا يعلمون فخرج الكمين عليهم وأثخنوا فيهم بالقتل وكرّ الخليفة راجعاً فتضعضع جيش السلطان واختلّ أمرهم وتشوّش صفّهم وقُتِلَ باسي ريفا أخو السلطان وأمير[1] الجيش وقتل أكثر الجيش ولم ينج منهم إلّا القليل وحينئذ قويت شكيمة الخليفة وطمع في أن يرجع إلى السلطان ويقاتله وما علم أن الأمور بالخواتيم ولمّا سمع السلطان بموت أخيه ريفا اغتمّ غمّاً شديداً ولام نفسه على القعود عن الحرب وقال لو لم أسمع كلام الناس وتوجّهت بنفسي لم يحصل هذا الأمر ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ ثمّ ارتحل من يومه وقصد جهة الخليفة بجيش يسدّ السهل والوعر وجاءت عيون الخليفة فرأوا جيش السلطان وما فيه من العساكر التي لا يقدر الواصف على وصفها والعادّ على حصرها وأسرعوا بالخبر إليه

١٣،٣،٢ فخاف على نفسه وجماعته فأصبح راحلاً قاصداً بلاد الزغاوة لأنّ ملكها خاله يريد أن ينزل عليه ليمدّه بجند من عنده فسار يقطع الأرض ليلاً ونهاراً والسلطان على أثره لأنّ الجواسيس أخبروه بقصده فخاف السلطان أنّه إذا وصل إلى زغاوة يمدّه خاله بجيش ويعسر أمره ويطول الحال بينهما فجدّ في طلبه حتّى أدركه بمحلّ يقال له جَرَكو وكان في طليعة جيش السلطان الأمين محمّد دُكّي بن الأمين عليّ ود جامع الذي سمّ نفسه في كردفال كما سبق فلمّا التقى الجمعان ظنّ الخليفة أنّ الجيش هذا فقط فكرّ راجعاً عليهم وناوشهم القتال وقاتل بنفسه ففرّت الناس أمامه حتّى وصل إلى الأمين محمّد دكّي فوقف أمامه وصار يضربه بالسيف ويقول له يا عبد يا خائن يا غدّار ألك عين ترفعها تخون نعمتي ونعمة أبي وتأتي لقتالي والأمين ساكت لا يتفوّه بحلوة ولا مرّة لكن كان لابساً درعين فلم يعمل سيف الخليفة فيه شيئاً فلمّا أعيا الخليفة أمره تركه وأراد أن يذهب فصبر عليه الأمين محمّد حتّى التفت وضربه على عاتقه الأيمن بالسيف وكان ذا قوّة فكسر عظم تَرْقُوَتِهِ وانكسر السيف من مقبضه وطار في المجال فخدرت يد الخليفة

[1] الأصل: أمير.

وأرخى ذراعه وعلم بذلك الأمين محمّد فطمع فيه وأراد أن يقبض عليه فأدركته جماعته فخلّصوه منه وانهزم حينئذ جيش الخليفة وتبعه الأمين محمّد بجيشه وأرسل السيف المكسور إلى السلطان عبد الرحمن يعلمه بما وقع فأرسل السلطان في الحال للأمين محمّد سيفين عظيمين مُحَلَّيَيْنِ وأمره بالمسير خلفه وأنّه على أثرهم

١٤،٣،٢ وكان حينئذ بالعسكر رجل من أبناء العرب يقال له زَبادي قيل إنه من فلّاحين مصر وكان يصطاد بالبندق ويصيب فتجاسر على السلطان وقال له يا مولاي إن أرحتك من عدوّك في هذه الساعة فماذا يكون لي عليك قال السلطان عبد الرحمن له إذا أرحتني منه لك عليّ مائة رأس رقيق فقال أرسلني إلى الأمين لأكون في عسكره وترى ما يصير اليوم فأرسله في الحال إلى الأمين بكتاب من عند السلطان يقول فيه إنّ زبادي قد التزم براحتنا من عدوّنا والتزمنا له الجزاء في ذلك وطلب أن يكون في عساكرك فها هو واصل إليك فإن التمس منك شيئاً فساعده وأكرمه وإنّي على أثركم وركب زبادي على هجين ولحق بعسكر الأمين فأعطاه أمر السلطان فقرأه ورحّب به وسار في الجيش وبالأمر المقدّر أنّ الخليفة آلمه ذراعه وأراد أن ينزل للراحة فمنعه أرباب دولته عن النزول فقال لهم ولِمَ تمنعوني فقالوا إن الأمين محمّد قاف أثرنا بجيشه والقتال بيننا وبينه دائر فغضب وقال ألم يرجع عنّا فقالوا لا فكرّ راجعاً على عسكر الأمين فتعرّضوا له أيضاً فقال ولا بدّ

١٥،٣،٢ وبينما هو ينازعهم على الرجوع ويلاطفونه في الترك إذ جاء زبادي وتأمل الخليفة وعرفه وأخذ عليه النيشان وأطلق البندقيّة فأصابته قيل في صدره وقيل في رأسه فخرّ فأسندوه ومشى قليلاً وصار يجود بنفسه فحين رأى أرباب دولته أنّه يجود بنفسه نصبوا له سرادقاً وأدخلوه فيه ووقف الجيش يذبّ عنهم والقتال دائر بين فريقين حتّى وصل الأمين فرأى العسكر وقوفاً ونار الحرب تستعر فسأل عن الخبر فقيل له إنّ الخليفة أصيب بالرصاص وهو يجود بنفسه وعجز عن الحركة فنصبوا له هذا السرادق ووقف جيشه يذبّ عنه فقال أمّا إذا كان الأمر كذلك فاتركوا القتال وأحيطوا بهم حتّى ننظر ما يكون وأرسل إلى السلطان يعلمه أن الخليفة أصيب برصاصة من

زبادي وهو يجود بنفسه فإن كان يمكن مولانا أن يحضره قبل إزهاق روحه فليفعل وبعد ذهاب الرسول إلى السلطان بقليل قضي على الخليفة وأعلن بالبكاء ونزل الجيش الذي كان يقاتل من ظهور الخيل وكذا نزل جيش الأمين مفرد [بسيط]

لَا يَأْمَنِ ٱلدَّهْرَ ذُو بَغْيٍ وَلَوْ مَلِكًا جُنُودُهُ ضَاقَ مِنْهَا ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

مفرد لكاتبه [الشطر الأول من الكامل والشطر الثاني من الطويل]

لَا يَمْنَعُ ٱلْجَيْشُ ٱلْكَثِيفُ مِنَ ٱلرَّدَى وَلَا يَمْنَعُ ٱلْمَقْدُورَ بُرْجٌ مُشَيَّدُ

١٦،٣،٢ وبعدها بقليل حضر السلطان وجيشه فاخترق الصفوف وحين رآه جيش الخليفة أعطوه الطاعة فدخل السرادق هو والأمين محمّد وجماعة من أرباب الدولة وكشف الغطاء عن وجه الخليفة وبكى بكاءً شديداً وقال يا ولدي أنت فعلت هذا بنفسك ونصحناك فلم تقبل ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ ثمّ التفت إلى أرباب دولة الخليفة وقال لهم لقد زيّنتم القتال لولدي حتّى قتلتموه أما فيكم ذو عقل يكفّه وينصحه فحلفوا كلّهم أنّهم برآء ممّا كان فيه وأنّهم نصحوه فلم يقبل وقالوا له يا سيّدنا نحن تقلّدنا نعمته وقاتلنا عنه حتّى قضى الله فيه وما خنّاه وإن أنت قبلتنا نقاتل عنك كذلك ولو خنّاه وخدمناك نخونك أيضاً فعرف صحّة قولهم وقال قد عفوت عنكم فمن أراد أن يكون معي منكم فهو على رتبته ومقامه ومن أبى يلقَ خيراً ثمّ أمر بدفن الخليفة في ذاك المحلّ وأبى يدفنه في مقبرة الملوك وقال هذا عاقٌّ لا يُدْفَنُ في مقابرنا فدُفِنَ هناك

١٧،٣،٢ وأقام السلطان بقية نهاره وليلته وأصبح قافلاً إلى الفاشر محفوفاً بالنصر مستبشراً بذهاب العسر[١] كأنّ أبا الطيب رآه على تلك الحال حين أنشد وقال [كامل]

١ الأصل: عسر.

سِرْ حَيْثُ شِئْتَ تَحُلُّهُ ٱلْأَنْوارُ   وَأَرادَ فِيكَ مُرادَكَ[1] ٱلْأَقْدارُ
وَإِذا ٱرْتَحَلْتَ فَرافَقَتْكَ سَلامَةٌ   حَيْثُ ٱتَّجَهْتَ وَدِيمَةٌ مِدْرارُ
وَصَدَرْتَ أَغْنَمَ صادِرٍ مِنْ مَوْرِدٍ   مَرْفُوعَةٌ لِقُدُومِكَ ٱلْأَبْصارُ
أَنْتَ ٱلَّذِي لَهِجَ ٱلزَّمانُ بِذِكْرِهِ   وَتَزَيَّنَتْ بِحَدِيثِهِ ٱلْأَسْمارُ
وَإِذا تَنَكَّرَ فَٱلْفَناءُ عِقابُهُ   وَإِذا عَفا فَعَطاؤُهُ ٱلْأَعْمارُ
وَلَهُ وَإِنْ وَهَبَ ٱلْمُلُوكُ مَواهِبٌ   دَرُّ ٱلْمُلُوكِ لِدَرِّها أَغْبارُ
لله قَلْبُكَ لا يَخافُ مِنَ ٱلرَّدَى   وَيَخافُ أَنْ يَدْنُو إِلَيْكَ ٱلْعارُ
وَتَحِيدُ عَنْ طَبْعِ ٱلْخَلِيقَةِ كُلِّهِ   وَيَحِيدُ عَنْكَ ٱلْجَحْفَلُ ٱلْجَرّارُ
يا مَنْ يَعِزُّ عَلَى ٱلْأَعِزَّةِ جارُهُ   وَيَذِلُّ فِي سَطَواتِهِ ٱلْجَبّارُ
كُنْ حَيْثُ شِئْتَ فَما تَحُولُ تَنُوفَةٌ   دُونَ ٱللِّقاءِ وَلا يَشِطُّ مَزارُ

١٨،٣،٢ وكان الفاشر إذ ذاك بالمحلّ المسمّى قِرْلي وكان فاشر السلطان تيراب بالرِيل وفاشر الخليفة بجديد راس الفيل ثمّ انتقل بعد ذلك وجعل الفاشر بالمحلّ المسمّى تندلتي وهو فاشر ابنه الآن ولم يعهد للفور إقامة في فاشر كإقامتهم في فاشرهم هذا المسمّى تندلتي

١٩،٣،٢ ولمّا أراح قلبه من قتال الخليفة وسكن جأشه نظر في أمر الرعيّة فأبطل المكوس ورفع المظالم وولّى المناصب وانتبه لعمار البلاد ورفاهيّة الحال وقطع الإعلان بشرب الخمر والزنا وأمن الطرق وكانت مخوّفة فبعد ذلك صارت أمنًا حتّى أنّ المرأة كانت تسافر من أقصى البلاد إلى أدناها محمّلة من الحلي والمتاع لا تخشى إلّا الله وكثرت التجارات وتتابع الخصب وأظهر العدل التامّ فكان لا يكرم ظالمًا ولا يعينه ولو كان من ذوي قرابته

٢٠،٣،٢ ولقد أخبرني الثقة أنّ أعرابيّين تعرّضا له يوم وكان قادما من الصيد فقال له أحدهما أنا مظلوم يا رشيد الله يخلّيك يا رشيد أنا مظلوم ومن عادتهم أن المظلوم

---
١ الأصل: مراده.

إذا جاء أمام السلطان يضع إصبعيَ يده اليمنى أي السَبّابة والإبهام على شدقَيْه ويردّدهما مع إخراج صوت عال فيه كاف واحدة وراءات كثيرة مضمومة فيخرج من فيه صوت يقال له الكُرُوَراك وهذا الصوت لا يصوّت[1] به أحد إلّا إذا كان أصيب بمصيبة فكان الأعرابيّ يصوّت كذلك ويقول بعد كلّ صوت الله يخلّيك يا رشيد أنا مظلوم وشغل عنه السلطان إما لأمر قام به أو لأنّه لا يسمعه لكثرة الطبول والغناء وأصوات الجند فكرورك الأعرابيّ مرارًا فلمّا لم يجبه السلطان قال له صاحبه خلّه عنك رشيد لنفسه لا لك فسمعه السلطان فوقف وسأل الأعرابيّ عمّا قال فقال إنّ أخي هذا كرورك مرارًا واشتكى لك وهو ينادي يا رشيد أنا مظلوم فلمّا لم تجبه قلت له خلّه فإنّه رشيد لنفسه غير رشيد لك فضحك السلطان وقال بل أنا رشيد لك أيضًا قل لي من ظلمك قال ظلمني باسي خبير وكان باسي خبير من أقاربه فقال وما أخذ منك قال أخذ منّي خمس نياق فوقف مكانه ودعا بباسي خبير وسأله فاعترف فأمر أن يدفع له عشر[2] نياق خمسا حقّه وخمسا تأديبا له فدفعها وذهب الأعرابيّان وهما في غاية الغبطة والسرور

٢،٣،٢١ وفي أيّامه تلك نصب محمّد كرّا في منصب الأب الشيخ وهو أجلّ المناصب هناك صاحبه مطلوق السيف له دولة كدولة السلطان وشارات كشاراته ومن عادة هذا المنصب أنّه[3] لا يتولّاه إلا خصيّ لأنّه يخشى من غير الخصيّ إذا تولّاه وقويت شكيمته أن يصادر السلطان ويطلب الملك لنفسه وبعد تولية الأب الشيخ محمّد كرّا وجّهه إلى البلاد فنزل في أبي الجدول وسلك طريق العدل في العالم وضبط الأمور حتّى أنّه قتل أناسًا كثيرين لما وقع منهم من الظلم

٢،٣،٢٢ ولمّا ظهر عدل السلطان وحبّه للعلماء وأهل الفضل والأشراف وفد عليه الأشراف والعلماء من جهات عديدة فكان أوّل وافد عليه والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان وكان حين قدومه إلى دارفور نزل بكوبيه على الفقيه حسن ود عَوُوضة وبلغ أهل كوبيه أنّه جاءهم رجل عالم من تونس فاجتمع عليه أكابرهم كالفقيه

---

١ الأصل: يصوته. ٢ الأصل: عشرة. ٣ أضيف للسياق: أنه.

محمّد كُرَيْتِيم والشريف سرور بن أبي الجود وعبد الكريم بن الفقيه حسن ود عووضة وأضرابهم وطلبوا منه قراءة مختصر الشيخ خليل فقرأ لهم منه ربع العبادات ووصل خبره إلى الفقيه مالك الفوتاويّ فأعلم به السلطان فأرسل إليه فذهب له فأكرمه وأعطاه عدّة جواري وأمره أن يكون عند الفقيه نور الأنصاريّ زوج ابنته الميرم حوّاء وكان رجلا من سلالة الأنصار محبّا لأهل العلم وفيه فقه فقرأ على والدي نبذة من صحيح البخاريّ

٢٣،٣،٢ وأعلم السلطان بعلميّته وأنّه ماهر في العلوم العقليّة والنقليّة فأحضره لديه وقرأ عليه في شهر رمضان جزءاً من الحديث وتعلّقت به آمال الفقيه مالك فأمر أولاده أن يحضروا عليه فحضر عليه من إخوانه الفقيه إبراهيم والفقيه مدنيّ والفقيه يعقوب ومن أولاده الزاكي والسنوسيّ ومحمّد جلال الدين وابن أخيه الفقيه محمّد البَرَكاويّ وحضر عليه الفقيه حسين ود تُورِس وأمره السلطان أن يكتب على الخصائص التي ألّف متنها مُغُلْطايْ التركيّ فكتب عليها شرحاً عظيماً نحو ستّة عشر كرّاساً سمّاه الدرّة الوفيّة على الخصائص المحمديّة وسأله في شرح على مختصر الشيخ خليل المالكيّ في الفقه فكتب عليه شرحاً في مجلّدين سمّاه الدرّ الأوفاق على متن العلاّمة خليل بن إسحاق وكتب على الآجرّوميّة شرحاً كبيراً أدخل فيه نحو مائتي بيت من ألفيّة ابن مالك فأتى مجلّداً ضخماً ثمّ اختصره في كراريس وكتب على السُلّم المُرَوْنَق شرحاً لطيفاً في كراريس وألّف رسالة في علم الكفّ[1]

٢٤،٣،٢ ووفد على السلطان عبد الرحمن الفقيه الزاهد الناسك الشيخ تَمُرّو[2] الفُلاّنيّ ووفد عليه الفقيه النبيه الشيخ حسين عماريّ الأزهريّ ووفد عليه من أشراف مكّة الشريف مساعد يقال إنّه من أولاد الشريف سرور وكان قاضيه الفقيه النزيه الشيخ عزّ الدين الجامعيّ وهو قاضي القضاة بدارفور وأعمالها وكان السلطان عبد الرحمن جواداً كريماً عادلاً عفيف النفس وكان وسط القامة شديد السواد قد وَخَطَه الشيب أبحّ الصوت شديد الغضب سريع الرضا ذا تدبير حسن فمن حسن تدبيره

١ الأصل: الكتف. ٢ الأصل: التَمُرّو.

أنّه لمّا دخلت الفرانساويّة مصر وهرب الغُزّ عنها توجّه إلى دارفور منهم كاشف يسمّى زَوانه كاشف قيل إنّه من مماليك مراد بيك أو هو أحد كشّاف الألفيّ ومعه أكثر من عشرة مماليك ومعه أمتعة زائدة وجمال وخدم وطبّاخ وفرّاش وسيّاس وأخذ معه مدفعاً وهاون بُنْب فحين حلّ بدارفور أكرمه السلطان عبد الرحمن وأحسن ملقاه وأنزله نُزُلاً حسناً وأجرى عليه من الأرزاق شيئاً كثيرًا حتّى صار لا يعرف رقيقه كثرته ثمّ طلب من السلطان أن يبني بيتا كبيوت مصر فأذن له في ذلك فضرب الآجر واستخدم العبيد في قطع الأحجار وصنع بيتاً جميلاً وسوّره بسور وجعل السور عريضاً وجعل فيه مزغلتين مقابلتين لبيت السلطان يضع في إحداهما المدفع وفي الأخرى هاون البنب

٢،٣،٢٥ وكان محلّ هذا البيت أعلى من محلّ بيت السلطان بحيث كان يرى السلطان حين يدخل وحين يخرج فسوّلت له نفسه أن يقتل السلطان ويملك البلد بأن يرصده[١] وهو داخل أو خارج ويطلق عليه مدفعاً يهلكه به لكن خاف إن قتل السلطان لا يطيعوه[٢] أهل المملكة وأرباب الدولة فاحتال أن اجتمع بالفقيه الطيّب ود مصطفى وكان هذا الفقيه وزير السلطان تيراب وصهره أعني أنّ السلطان تيراب كان متزوّجاً بأخته وأتت منه بولد فلمّا اجتمع عليه زوانه كاشف فشى سرّه له بعد أن عاهده على الكتمان وقال له إنّه قد بلغني أنّ ابن أختك ابن السلطان وأريد أن تجعل يدك معي فنقتل هذا ونولّي ابن أختك وتصير المملكة بيننا فرضي الفقيه الطيّب بذلك ثمّ قالوا إنّ هذا الأمر لا يتمّ لنا إلّا بإدخال بعض الناس الذين تكون لهم عساكر فقال زوانه ذاك إليك وأنت أعرف الناس به فصار الفقيه الطيّب يخادع الناس ويأتي بهم إلى الكاشف والكاشف يعطيهم الأموال ويحلّفهم أن يكونوا معه حتّى أدخلوا في أمرهم عدّة رجال

٢،٣،٢٦ واتّفق أنّ رجلاً من الأمراء خادعه الفقيه الطيّب وجاء به إلى الكاشف فأعطاه عطيّة سنيّة وأطلعه على الأمر وحلّفه على الكتمان فحلف وأخذ العطاء وتوجّه به إلى

١ الأصل: يرصد. ٢ الأصل: يطعوه.

السلطان وأطلعه على جليّة الأمر وحقيقته فقال له السلطان خذ عطاءك واذهب وكن معهم على ما أنت عليه وإيّاك أن تخبر أحداً أنّك أتيتني ولمّا كان من الغد جاء زوانه الكاشف إلى بيت السلطان فأكرمه أكثر ممّا كان يكرمه وأعطاه في ذلك الوقت مائة عبد ومائة جارية ومائة ناقة ومائة جرّة سمناً ومثلها عسلاً ومائة حمل دخناً وكساه كشميراً أحمر وجوخة حمراء وقلّده سيفاً وأعطاه جواداً سرجه من ذهب وتوجّه الكاشف إلى منزله مغتبطاً بما حصل له من السلطان وقال هذه أموال ساقها الله إليّ أستعين بها على هذه المصلحة ولمّا أمسى المساء وكان بعد العشاء أمر السلطان بإحضار ملك من الملوك بعسكره وأمره أن يقف حتّى يرى الكاشف داخل دار السلطان فيعقبه[1] ويضبط جميع ما في بيت الكاشف من الأموال وحذره من[2] أن يفلت منه شيء ثمّ أرسل للكاشف غلاماً يقول له إن سيّدي جلس للسمر وقد أراد أن تحضر مجلسه الآن ورتّب عبيداً للقبض عليه عند أمر السلطان به

٢٧،٣،٢ فذهب الغلام وأخبره بمقال السلطان فحضر معه ولمّا دخل على السلطان أكرمه وكان معه بعض من الخدم دخلوا معه بابين ومُنعوا أن يدخلوا من الثالث وقيل لهم اصبروا هنا حتّى يأتي سيّدكم فكدّسوا مكانهم[3] وجلس السلطان يتحدّث مع الكاشف حتّى فاتت من الليل حصّة فقال السلطان إنّي جائع والتمس ما يؤكل فأُتي بلحم نصيص أي حنيذ غير مقطّع فالتمسوا سكّيناً فلم يجدوا فأخرج الكاشف سكّيناً كان معه وأراد أن يقطع اللحم فحلف عليه بعض الحاضرين ألّا يفعل وأنّه هو الذي يقطع فأخذ منه السكّين وصار يقطع بها فأخذ الكاشف الخنجر فأخذه آخر وحينئذ أمر السلطان بالقبض عليه فلمّا قبض عليه قال له السلطان أيّ ذنب جرى لك منّي حتّى أنّك تريد قتلي وتغوي عساكري وتخادعهم فقال أقلني فقال لا أقالني الله إن أقلتك وأمر بذبحه في الحال فذبح كالشاة وفي الحال جيء بأمواله وما كان عنده من رقيقه وغيره حتّى لم يبق في البيت شيء وأمر السلطان بهدم بيته فهدم ومحيت رسومه

---

١ الأصل: يعقبه. ٢ الأصل: عن. ٣ الأصل: بابين ومنع أن يدخل من الثالث وقيل له اصبر هنا حتى يأتي سيدك فكدس مكانه.

وكأنّه لم يكن وقبض على أتباعه في تلك الليلة وباتوا محبوسين ولمّا أصبح الصباح دعا بهم السلطان فحضروا فعفا عنهم وأطلقهم وأمر عليهم خازندار الكاشف وكان يسمّى يوسف[1] ثمّ تتبّع جميع من تعاهد مع الكاشف وقبض عليهم واحداً بعد واحد حتّى لم يبق منهم أحد وكان آخرهم الفقيه الطيّب فإنه قبض عليه وقتله أشرّ قتلة وسجن ابن أخته سجن الدوام إلى أن يموت

٢٨،٣،٢ وكيفيّة القبض على الفقيه المذكور أنه أرخى له العنان وبذل له الأموال وأظهر له الودّ التامّ بحيث أنّ الفقيه الطيّب لم يخطر بباله أنّ السلطان معه علم بأنّه كان مع زوانه كاشف ومضت على ذلك مدّة حتّى كان في بعض الأيّام حضر الفقيه الطيّب دار السلطان وكان السلطان جالساً في ديوانه وحضرت له إبل موقورة عسلاً فأعطاها للفقيه الطيّب وأمر له بكسوة فأحضر له كشمير أحمر وكسوة جليلة فلبسها ودعا للسلطان بدوام العزّ وجلس ومن عادة ملوك الفور إذا كسوا إنساناً كسوة حمراء فإنّهم في غضب عليه ولا بدّ ما يقتلونه وتذكّر السلطان ما كان منه ونفاقه مع الكاشف في آخر المجلس فالتفت إلى الحاضرين وقال لهم أشهدكم بالله هل هذا الفقيه في أيّام أخي أرفه حالاً وأكثر مالاً أم هذا الوقت فقالوا كلّهم لا والله بل في هذا الوقت أرفه وأغنى وأنفذ كلمة فقال السلطان سلوه حينئذ لم خانني وتواطأ مع الكاشف على قتلي وخراب داري فسألوه فأقسم على السلطان بالله العظيم أن يقتله ولا يكلّفه جواب هذا السؤال لأنّ الموت عنده أهون من ذلك فأبرّ السلطان قسمه حينئذ وأمر فذُبح كالشاة وأخذ جميع ما عنده من الأموال والضياع ولم يفلت منه شيء وقد سمعت أنّه أرسل العساكر لأخذ ماله من ضياعه قبل ذلك بمدّة وعيّن لهم أن يكبسوها في ذلك اليوم بعينه خوفاً أن يطيش الخبر ويفلت منها شيء وذلك كلّه من سعادته ومن سعادته أيضاً أنّ جميع من رامه بسوء يخذل ويمكّنه الله منه

٢٩،٣،٢ ومن ذلك ما حصل من إياكري كِنانة أم حبيب المتقدّم ذكرها وذلك أنّ السلطان تغافل عنها ولم يف بما وعدها به إمّا لأمر قام به أو خوفاً على نفسه منها أو من ولدها

---

١ الأصل: يوسفا وثم.

فلمّا رأت تغافله لها وكانت في دار السلطان وابنها حبيب متأهّل في دار له عقدت له بالمكاتبة مع بعض الملوك عقداً واتّفقت معه أن يساعد حبيباً ليتولّى سلطاناً خصوصاً وقد[1] انقطع أملها حين رأت أن السلطان ولد له فخافت على ولدها لكنّ السلطان وإن كان تغافل عنها إلّا أنّه كان مبقيها في منصبها آمرة ناهية مقاليد أمور الدار كلّها بيدها

٣٠،٣،٢ فلمّا نوت الغدر بالسلطان استأذنته في أنّ حبيباً[2] يريد أن يصنع وليمة وأريد أن أمدّه بطعام من هنا فأذن لها السلطان في ذلك فصنعت الطعام وصارت تأتي بالجفنات وتضع الدروع في الجفنة ثمّ تجعل الطعام فوقها بحيث أنّ من يرى الجفنة لا يظنّ أنّ فيها غير الطعام وكانت تضع في واحدة دروعاً وفي أخرى سيوفاً فأخرجت ما يزيد عن مائة جفنة بهذه الصورة ثمّ مكثت مدّة أيّام واستأذنت له في وليمة أخرى فأذن لها ولم يخطر بباله شيء ممّا في نفسها لأنّه كان سليم الصدر غير ظنّان بالسوء ففعلت كما فعلت بالمرّة الأولى وبعد أيّام أيضاً استأذنته كذلك وقبل إبراز الوليمة الثالثة كانت عندها بنت من بنات الأكابر جميلة الصورة تربّيها فرآها السلطان على حين غفلة فأحبّها ونوى في نفسه أن يخاطب إياكري في شأنها ويعقد عليها وكأنّ أمّ حبيب فهمت من السلطان ذلك فصارت تؤذيها لأنّها أعدّتها لولدها حبيب فلم تطق البنت الأذيّة خصوصاً وقد انكشفت على غدرها بالسلطان وما تريد أن تصنعه معه فاختلست نفسها وقابلت السلطان على خلاء وأخبرته أنّ أمّ حبيب أخربت خزينة السلاح والأمتعة وأنّ الولائم كلّها مملوءة بالدروع والسيوف وأنّها تعاقدت مع الملك فلان وفلان بأنّهم يساعدوها على قتلك وتولية حبيب الملك وإن كنت في شكّ ممّا أقوله اقلب جَفْنة من الجِفان التي تخرج في الوليمة في غد فإنّك تعلم صحّة قولي فقال لها السلطان ارجعي إلى مقرّك وإيّاك أن تقولي إنّك أعلمتيني بشيء فرجعت وضاق صدر السلطان لذلك وأخبر بعض الخدمة أن أخبرني في غد قبل خروج الوليمة إلى حبيب واستكتمه فكتم

---

١ الأصل: قد. ٢ الأصل: حبيب.

٣١،٣،٢ وبقي الحال كذلك حتّى أصبح الصباح وصنعت الوليمة ونادت العبيد والجواري يرفعن الجفنات فأخبره الخادم بأنّ الوليمة قد تجهّزت فدخل فرأى أمّ حبيب ترتّبها للحمل فقال على رِسلكم ثمّ قال ارفعوا الأغطية وأروني وليمة ولدي حبيب فرفعوا الأغطية فرأى طعاماً حسناً فجاء إلى جفنة فيها طعام يحبّه وقال اتركوا هذه لي واجعلوا ما فيها في أوانٍ صغار لآكل منها أنا وبعض أضياف لي فقالوا سمعاً وطاعة وجاءت أمّ حبيب حين بلغها ذلك وقالت فداك أبي وأمّي عندنا من نوع هذا الطعام كثير فليترك مولاي الجفنة ونحن نأتيه بكثير منه فقال قد علمت وإنّما نفسي طلبت من هذه ولعلّ ما تأتون به وإن كان من هذا بعينه لا تتوق إليه نفسي فحينئذ لم تجد بدّاً من طاعته وقالت دع الخدم يرفعن هذه الجفنات واحبس أنت هذه فقال لا بل حتّى تفرغ هذه الجفنة وتملأ كما كانت ويحمل كلّه مرّة واحدة

٣٢،٣،٢ ولمّا جيء بالأواني واغترف من الجفنة ظهر الدروع من تحت الطعام فنادى يا أمّ حبيب ما هذا فخجلت ولم تُحرِ جواباً فعند ذلك أمر بالقبض عليها وقلب جميع الجفنات فوجد فيها كلّها دروعا وسيوفاً وريالات فرانسا ونحو ذلك فقال لها أيّ ذنب وقع منّي حتّى دبّرتي على هلاكي فلم تردّ جواباً فأمر بقتلها في تلك الساعة فقتلت وفي الحال أرسل ملكاً من ملوكه إلى بيت حبيب بعد أن دعا حبيباً إليه فحضر على حالة الطمأنينة فلمّا مثل بين يدي السلطان أمر بالقبض عليه فوُضِعَ في المحبس ثمّ أرسله تحت جنح الليل إلى جبل مرّة واستصفى ما عنده من المال ورد الدروع والسلاح إلى مقرّها ثمّ قبض على جميع من تواطأ مع حبيب ولم يبق منهم أحداً

٣٣،٣،٢ وتمهّدت أموره واستوزر الفقيه مالك الفوتاويّ لظنّ علميّته وصلاحه وكان يدّعي أنّه يعرف سرّ الحرف وعلم الأوفاق مع أنّه كانت فيه عاميّة وكثيراً ما كان يظهر الورع والصلاح ويُبطن ضدّه وكنت أظنّ ذلك منه حتّى حقّق الله ظنّي فيه في مجلس واحد وذلك أنّه لمّا ترقّى الوزارة أدخل جميع قبيلة الفُلّان التي بدارفور تحت أمره وصار يذبّ عنهم عند السلطان كلّما وقع منهم أمر مع أعدائهم من القبائل الأخر وحرّرهم عند

الدولة حتّى صار لا يُجبى منهم مال وكلّ ما[1] نهبوه من غيرهم من القبائل برد لهم حتّى صاروا من أقوى القبائل وأغناها

٣٤،٣،٢ فاتّفق أنّ قبيلة الفلاّن أغاروا على قبيلة المساليط وقتلوا منهم خلقاً كثيرًا ونهبوا منهم أموالاً جمّة من بقر وخيل ورقيق وجاء رئيسهم وكان يسمّى بجِدّ العَيّال وأتى بخيل وبقر ورقيق من المنهوب هديّة إلى الفقيه مالك ليذبّ عن القبيلة وكان في شهر رمضان وكان وقت العصر والفقيه مالك إذ ذاك يقرأ في تذكرة القرطبيّ في صفة أهل النار فأتى على قوله ولا زالت النار تقول يا ربّ زدني حتّى يضع الرحمن فيها رِجْلَهُ والرِجْل هي الجماعة من الناس وعليه قول الشاعر [طويل]

فَمَرَّ بِنَا رِجْلٌ مِنَ ٱلْحَيِّ وَٱنْزَوَى

فقال ولا زالت النار تقول يا ربّ زدني وكان من عادته أن يقول بعد كلّ كلمة أو كلمتين أي نعم قال الكتّاب فقال ولا زالت النار تقول يا ربّ زدني أي نعم قال الكتّاب ولا زالت النار تقول يا ربّ زدني أي نعم قال الكتّاب حتّى يضع الرحمن فيها رِجْله أي نعم قال الكتّاب والرِجْل هي الجماعة من الناس أي نعم قال الكتّاب وعليه قول الشاعر أي نعم قال الكتّاب فمرّ[2] بنا رِجْل أي نعم قال الكتّاب وكرّرها مرارًا فقال له السنوسيّ ولده يا أَبَوّ فِرْ! بنا رَجُلٌ! فقال أي نعم فِرْ بنا رَجُلٌ وكرّرها مرارًا وكنت جالساً ولم يسعني السكوت فأخذت نسخة من رجل بجانبي فرأيت فيها فمرّ بنا رِجْلٌ من الحي البيت فقلت يا أبوّ فَمَرَّ بنا رِجْلٌ فقال لي اسكت أنت الآن صغير عن هذا وأمثاله مع أنّ هذا هو الذي يصلح لأن يكون شاهدًا فسكتّ

٣٥،٣،٢ ومن عاميّته ما حكى لي والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان أنّ السلطان التمس من الفقيه المذكور أن يخطب يوم العيد فقصد والدي أن يؤلّف له خطبة فألّفها وكتب في آخرها تمّت على يد مؤلّفها الفقير إلى المنّان عمر التونسيّ[3] ابن سليمان في يوم وسنة كذا وأعطاها إيّاه فلمّا كان يوم العيد صلّى بالسلطان ثمّ رقي المنبر

[1] الأصل: وكلما. [2] الأصل: فَرَّ. [3] الأصل: التنسي.

فخطب وبعد الخطبة قال تمّت إلى آخر ما كتب ولم يتفطّن أنّ هذه الكلمات خارجة عن الخطبة وكان من أغنى أرباب الدولة وكان له من الأقطاع ما ينوف عن خمسمائة بلد وذلك غير أقطاع إخوانه

٣٦،٣،٢ ثمّ السلطان أجلّ مقام الأب الشيخ محمّد كرّا وأعلى كلمته حتّى صار لا تعلى[١] على كلمته كلمة وبلغه أنّ هاشم المسبّعاويّ ملك كردفال رجع إليها وأخذها من يد عامل السلطان فجهّز جيشاً كثيفاً لنظر الأب الشيخ محمّد كرّا فتوجّه إلى كردفال وأغنى غناء حسناً وأخذ كردفال من يد السلطان هاشم وقتل عساكره وشرّده في القفار واستوطن كردفال مدّة سبع سنين وفيها أرسل للسلطان أموالاً جمّة من رقيق وذهب وغيره وسعى به بعض من أعدائه إلى السلطان فأرسل السلطان الأمين محمّد ابن الأمين عليّ ود جامع بجيشه إليه وأرسل معه قيداً وقال له خذ هذا القيد وقيّده به وأرسله مع جيشه وكان ذلك امتحاناً من السلطان فلمّا وصل الأمين محمّد إلى كردفال ظنّ في نفسه أنّ الأب الشيخ محمّد يعارضه أو ينازعه فلم يفعل شيئاً من ذلك بل حين وصل إليه قال له بماذا أمرك السلطان قال بتقييدك[٢] وإرسالك إليه فقال سمعاً وطاعة هات القيد فأعطاه إيّاه فأخذه وقيّد نفسه بيده ودعا الحدّاد وأمره أن يسمّره ويبرّد عليه امتثالاً لأمر السلطان ففعل وأصبح مسافرًا والقيد في رجليه حتّى وصل إلى دارفور وحين أخبر السلطان بقدومه أرسل له من ينزع القيد من رجليه وقال أمّا قلت لكم إنّ محمّد كرّا لا يعصا فيّ ثمّ أمره أن يأتي إلى الفاشر في موكبه فأتى على أحسن حالة وخرج إليه السلطان وأحسن ملقاه وسوّره بسوار من ذهب أمام الوزراء والحاضرين وبالغ في إكرامه وردّه إلى منزلته بل صار أعظم ممّا كان وكان هذا الفعل من السلطان هو عين البخت التامّ لابنه محمّد فضل فإنّه لمّا توفّي السلطان قام بأمره الأب الشيخ محمّد كرّا ولولاه لما نظر إليه أحد ولا عُنِيَ به

٣٧،٣،٢ وكيفيّة ذلك أنّ السلطان لمّا ثقل به مرضه دخل عليه الفقيه مالك الفوتاويّ فوجد الأب الشيخ محمّد كرّا عنده فقال له الفقيه مالك يا سيّدي إنّ الوصيّة فيها

---

١ الأصل: تعلّى. ٢ الأصل: بتقيدك.

خير عظيم وإنّك فعلت مع الناس من المعروف ما لا يوصف وكلّ وزرائك وأهل مملكتك راضون عنك فإن وصّيت بشيء أظنّه بل أتحقّقه أنّه يُنفذ ولا بدّ فأوص لعلّ ولدك ينتفع بوصيّتك فقال ومن يتوكّل على الله فهو حسبه فأعاد عليه الفقيه مالك هذا القول ثانياً فقال هو ذلك أيضاً فأعاد عليه ثالثاً فقال ذلك أيضاً فتركه بعد الثالثة ثمّ قضى نحبه عليه سحائب الرحمة فحين توفّي بكى عليه الأب الشيخ والفقيه مالك وبعد البكاء قال الفقيه مالك للأب الشيخ ماذا أنت صانع الآن قال الأب الشيخ سأريك ما أصنع فقام من وقته ودخل الدار ودعا محمّد فضل وكان أكبر ولديه لأنّه لم يترك من الذكور إلّا محمّد فضل وبخاريّ ومن الإناث حوّى وست النساء وأمّ سلمى فأقعد محمّد فضل ولبّسه الخاتم وعمّمه وقلّده السيف وأجلسه على كرسيّ السلطنة وأدخله في حجرة وأرخى عليه ستراً وأرسل في الحال إلى جماعته فحضروا متقلّدين سيوفهم شاكّين السلاح فأوقفهم على الأبواب ورتّب منهم جماعة يحرسونه ونفعه في ذلك باب سرّ كان بين بيته وبيت السلطان بحيث أنّ العساكر دخلت منه ولم يشعر بها أحد

٣٨،٣،٢ ثمّ أرسل إلى أكثر الوزراء جماعة وأقواهم شوكة الملك إبراهيم ود رَماد إنساناً يقول له إنّ السلطان يأمرك بالذهاب إليه فجاء فلمّا دخل الباب وجد العساكر وقوفاً فراعه أمرهم ولم يجد بدّاً من الدخول ولمّا وصل إلى محلّ السلطان وجد الأب الشيخ محمّد كرّا والفقيه مالك جالسين والسلطان بينهما مسجّى فلمّا رآه كذلك بكى ثمّ بعد استرجاعه قال له الأب الشيخ إنّ السلطان قد توفّي فماذا ترى فقال لا أرى سوى[1] رأيك فقال له الأب الشيخ أتعاهدني على ذلك قال نعم فحلّفه وأخذ مواثيقه أنّه لا يتعدّى رأيه ثمّ رفع الستر وقال هذا السلطان يعني محمّد فضل فقال الملك إبراهيم وهو كذلك فقال قم فبايعه فبايعه حينئذ وجلس ثمّ أرسل إلى الوزراء والملوك واحداً بعد واحد وكلّما جاءه أحد فعل معه كما فعل بالملك إبراهيم حتّى استوثق من أكابر الدولة كلّهم ولم يترك منهم إلّا من لا قوّة له

١ الأصل: سوء.

٣٩،٣،٢ ثمّ أعلن بموت السلطان وضربت طبول الحزن وسمعها أولاد السلاطين فركبوا وجاءوا شاكّين السلاح هاجمين على دار السلطان فرأوا الأمر مهولاً والجند محيطاً بها حارساً لها منهم ومن غيرهم فلمّا لم يجدوا إلى الدخول سبيلاً ضربوا في البلاد وصاروا ينهبون أموال الناس وتجتمع عليهم الغوغاء حتّى صاروا في جند كثيف وثقلت وطأتهم وعظم شرّهم فجهّز لهم الأب الشيخ جيشاً لنظر الملك دَلدَن الذي أسلفنا ذكره وهو ابن عمّة السلطان محمّد فضل فخرج إليهم وأوقع بهم وانهزمت الغوغاء الملتفّة عليهم وقتل منهم كثير وظفر بأولاد السلاطين وجيء بهم إلى الأب الشيخ مصفّدين فأرسلهم الأب الشيخ إلى السجن في جبل مرّة وسكنت الفتنة وتمهّدت الأمور ثمّ أمر السلطان بالقراءة وطلب العلم لصغر سنّه وعدم خبرته بالأمور فثقل ذلك عليه ولم يجد بدّاً من الامتثال فكابد مشقّة التعليم نحو سنتين وقتل الأب الشيخ محمّد كرّا في تلك المدّة بعض الملوك لفتنة وقعت منهم ورمى بعضهم في السجون وكلّهم من أسرة السلطان وعصابته وولّى مناصبهم لجماعته فثقل ذلك على أرباب الدولة وخافوا شرّه فأغروا السلطان على قتله أو سجنه فوقع بينهما الحرب وقتل كما قدّمنا ذلك كلّه والله أعلم

المقصد
وفيه ثلاثة أبواب

الباب الأول

في صفة دارفور وأهلها وعوائدهم وعوائد ملوكهم وأسماء مناصبهم ومراتبهم وفيه خمسة فصول

الفصل الأوّل في صفة دارفور

١،١،٣ أمّا دارفور فهو الإقليم الثالث من ممالك السودان وذلك أن للقادم من المشرق إلى بلاد السودان أوّل مملكة وإقليم يعرض مملكة سنّار ثمّ كردفال ثمّ دار الفور فظهر أنّها الإقليم الثالث وبحسب ذلك إقليم وَدَداي هو الرابع والباقِرمَه الخامس وبَرْنَو السادس وأَدِقِز السابع ونُفَهْ الثامن ودار تُنْبُكْتُو التاسع ودار مَلّا أو مَلّي العاشر وهي قاعدة ملك الفلّان وهم الفلّاتا كما ذكرنا وأما الذي يأتي من المغرب فإنّه يعدّ ملّا الأوّل وتنبكتو الثاني ونفه الثالث وهكذا

٢،١،٣ واعلم أنّ القدماء يطلقون على بعض أهل السودان اسم التَكْرور ويعنون به أهل مملكة برنو لكن الآن قد عمّ هذا الاسم على ممالك متعدّدة أوّلها دار وَدّايْ أو وَدَدايْ المعروفة أيضاً بدار صُلَيْح وآخرها برنو فيدخل في ذلك باقرمه وكَتَكُو ومَنْدَرَهْ فيقال لأهل كلّ منهم تكرور حتّى أنّه صار عرفاً بينهم ولقد لقيت منذ أيّام رجلاً من أهل السودان فسألته من أين أنت فقال من التكرور بل أظنّه قال تكروريّ فقلت من أيّ من التكارير فقال من باقرمه لكن لم يخبرني إلّا بعد مشقّة ظنّاً منه أنّي لا أعرف تلك الجهة فلمّا أخبرني وسألته عن بعض مواضع منها تعجّب تعجّباً عظيماً والآن القول

٣،١،٣ وحدّ الفور من جهة الشرق أقصى الطُوِيشه ومن الغرب آخر دار المساليط يعني مملكة المساليط وآخر دار قِمِرْ وأوّل دار تاما[١] وهو الخلاء الكائن بين دار صليح وبينها ومن الجنوب الخلاء الكائن بينها وبين دار فَرْتِيتْ ومن الشمال المزروب وهو أوّل بئر يعرض لمن يتوجّه لها من الديار المصريّة وتتبعها عدّة ممالك صغيرة فمن الشمال مملكة الزَغاوة وهي مملكة واسعة وبها خلق لا يحصون كثرة ولهم سلطان وحدهم ولكنه بالنسبة إلى سلطان الفور أشبه بقائد من قوّاده ومن جهة الشمال أيضاً مملكة الميدوب والبَرْتي وهما مملكتان كبيرتان إلّا أنّ أهل الثانية أكثر من أهل الأولى ومع كثرتهم أكثر انقياداً لسلطان الفور من الميدوب

٤،١،٣ وفي خلال دارفور مملكة البِرْقِد ومملكة بَرْقُو والتُنْجور ومِيمَهْ إلّا أنّ مملكة البرقد والتنجور في الوسط ومملكة البرقو والميمه من جهة الشرق ومملكة الداجو والبيقو من الجهة الجنوبيّة وكذا مملكة فَرَاوُجَيَهْ ولكلّ من هذه الممالك حاكم يسمّى سلطاناً لكن يولّيه عليهم سلطان الفور وكلّهم على نسق واحد في الهيئة والملبوس إلّا ملك التنجور فإنّه يلبس عمامة سوداء وسألته عن سبب سواد عمامته فأخبرني أنّ أصل مملكة دارفور لأجداده وتغلّب عليها سلطان الفور فلبس العمامة السوداء إشعار بحزنه على فقد مملكته

٥،١،٣ وقد أحاط بجانبها الشرقيّ والجنوبيّ كثير من عرب البادية كالمِسيريّة الحمر والرِزَيْقات والفلّان وكلّ قبيلة من هذه القبائل لا تحصى كثرة وهم أهل بقر وخيل وأثاث وأكثرهم أهل ثروة لا يألفون الحاضرة بل يتبعون الكلأ أينما كان ويُلْحَق بهم القبيلة المسمّاة ببني حَلْبة[٢] لأنّهم أهل بقر أيضاً لكنّهم يتوغّلون في دارفور ويزرعون وأمّا أهل الإبل فمنهم[٣] الفَزارة وهم المحاميد والمجانين وبنو عَمْران وبنو جَرّار والمسيريّة الزرق وغيرهم وعلى كلّ من هذه القبائل ضريبة يأخذها السلطان من أموالهم في كلّ سنة

٦،١،٣ لكن في ذلك تفاوت أمّا المسيريّة الحمر والرزيقات لقوّتهم وتوغّلهم في الخلاء فلا يعطون للسلطان إلّا أقبح أموالهم ولا يقدر العامل أن يأخذ من كرائمها إلّا برضاهم

١ الأصل: تامه. ٢ الأصل: حِلْبَة. ٣ الأصل: منهم.

وإن تاقت نفسه إلى ذلك طُرد وربّما قُتل ولا يقدر السلطان لهم على شيء ولقد بلغني أنّ الرزيقات عصوا أمر السلطان تيراب وجهّز لهم جيشاً فكسروه فخرج إليهم بنفسه ففرّوا أمامه ودخلوا في البَرَجُوب بمواشيهم فتبعهم فقتلوا منه خلقاً كثيراً ولم يملك شيئاً والبرجوب موضع يسافر فيه المسافر عشرة أيّام حتّى[1] يقطعه وهو طين ليّن مغطّى بماء يبلغ نحو عانة الرجل ومن لين طينته تسوّخ فيه قوائم الدواب ومع ذلك فهو ذو شجر شائك وهذا الموضع لا ينقطع عنه المطر إلّا شهرين في السنة في فصل الشتاء

٧،١،٣ ثمّ إنّ طول إقليم دارفور من أوّل بلاد الزغاوة إلى دار رُوَكَهْ نحو ستّين يوماً بل إن اعتبر الملحقات بها كدار روكه وفَنْقَرو ودار بَنْدَلَهْ وبِيكَهْ وشالا كانت أكثر من سبعين يوماً هذا كلّه بحسب تعريف أهل البلد لكنّ الذي أظنّه أنّها لا تصل لذلك بل نهاية مساحتها[2] تبلغ نحو من خمسين يوماً أو أقلّ وإن عُدّت ممالك الفرتيت الخمسة المذكورة وهي في ذاك الزمن الملحقات المعاهدة لسلطان دار الفور ويؤدّون له الخراج في كلّ سنة فإذا دخلت دار الزغاوة من جهة المزروب متوجّهاً على خطّ مستقيم إلى كوبيه تمكث نحو ستّة أيّام ومن كوبيه إلى تندلتي الذي هو الفاشر يومان ومن الفاشر إلى جديد كريو يومان ومنه إلى الريل يوماً ن فهذا اثنا عشر يوماً ومن الريل إلى جديد راس الفيل أربعة أيّام ومنه إلى تَلْدَوَا ثلاثة أيّام أو أربعة ومنها إلى تبلديّة ثمانية وتبلديّة على الحدود الشرقيّة للفور ومنها يدخل الإنسان في بلد الداجو والبيقو فيمشي فيها نحو من ثمانية أيّام أيضاً فهذه أربعة وثلاثون يوماً

٨،١،٣ ثمّ إذا خرجت منهما إلى جهة الشرق تجد خلاء مشحوناً بأعراب البادية كالمسيريّة الحمر والحبّانِيّة والرزيقات عالم لا يحصيهم إلّا خالقهم وإن ملت إلى جهة الغرب دخلت في دار أباديما فتقطعها في نحو عشرة أيّام ثمّ تدخل في خلاء تمشي فيه يومين وتدخل إلى دار روكه ومسافتها نحو ثلاثة أيّام ودار فنقرو مثلها أو أقلّ منها بشيء يسير ومنهما خلاء يمشي فيه الإنسان نحو يومين ومنه يدخل في دار بيكه

---

١ أضيف للسياق. ٢ الأصل: مساحته.

وشالا ومسافتهما يومان فظهر لك بما ذكرناه أنّ طول دارفور بملحقاتها لا يبلغ[1] نحو خمسين يوماً

٩،١،٣ وهذه الملحقات هي البلاد الجنوبيّة التي بعد دار الفراوجيه لأنّ الفراوجيه آخره حدود ممالك الفوراويّة الحقيقيّة وما يسمّون أهل الفور بالصعيد[2] المساحة الممتدّة من ريل لآخر دار الفور من جهة الجنوب ودار أباديما إنّما كانت مساحتها نحو عشرة أيّام، لأنّ أباديما يحكم على اثني عشر ملكاً، كلّ ملك له إيالة مستقلّة ودار[3] أباديما هي[4] دار تَمُورْكَهْ وأباديما اسم منصب كما سنذكره معناه الجناح الأيمن للسلطان والحاكم المسمّى بهذا الاسم يحكم على دار تموركه فسمّي لذلك دار تموركه بدار أباديما ويقابله التكنياوي الذي هو أيضاً اسم منصب معناه الجناح الأيسر للسلطان ويحكم التكنياوي على اثني عشر ملكاً[5] أيضاً وهو حاكم الزغاوة وما يليها لجهة الشرق ولذلك أيضاً سمّي دار الزغاوة بدار التكنياوي وإن قلتَ من حيث أنّ أباديما والتكنياوي متعادلين لِمَ كان طول دار أباديما عشرة أيّام وطول دار التكنياوي خمسة أيّام قلتُ دار التكنياوي أعرض من دار أباديما لأنّ دار أباديما عرضها نحو خمسة أيّام وشيء يسير وعرض دار التكنياوي نحو سبعة أيّام فما نقص من طولها جبر بزيادة عرضها

١٠،١،٣ ثمّ اعلم أن دارفور منظّمة تنظيماً على وجه محكم لأنّنا ذكرنا أن جبل مرّة يشقّها وأنّ نصفها من جبل مرّة إلى جهة الشرق سهل وعرض جبل مرّة بقطع النظر عن ارتفاع الجبال نحو يومين ووراءه من جهة الغرب سهل أيضاً لكن من جهة الشمال الزغاوة والبرتي وهما قبيلتان عظيمتان فالبرتي من جهة الشرق والزغاوة من جهة الغرب وفي وسطها من جنوب جديد كريو يسكنها التنجور والبرقد وهما قبيلتان عظيمتان وهكذا إلى جديد راس الفيل وأزيد بل إلى تبلديّة وإن كان بينهما بلاد وقبائل صغار ثمّ من هناك إلى الخلاء من جهة الجنوب والشرق وجهة دار أباديما يسكنه الداجو

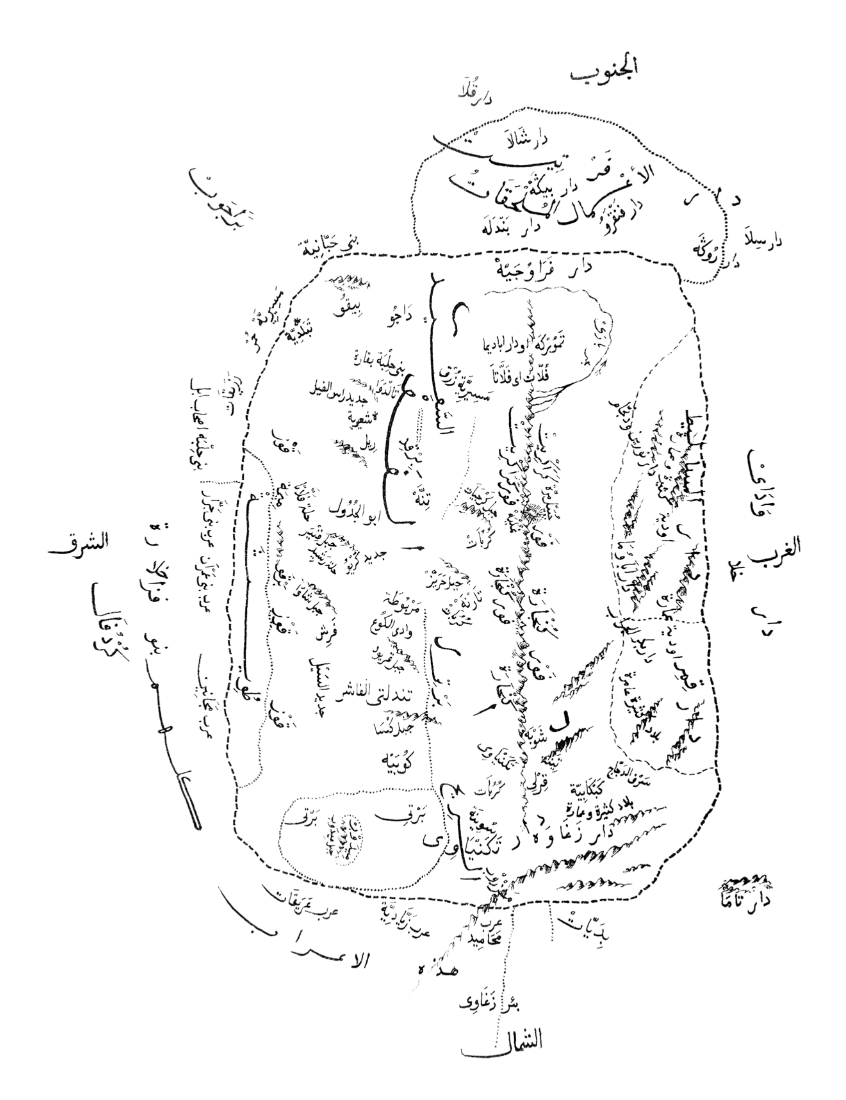
---

١ الأصل: تبلغ. ٢ الأصل: السعيد. ٣ أضيف للسياق. ٤ الأصل: هو. ٥ الأصل: ملك.

والبيقو فالداجو من جهة الغرب والبيقو من جهة المشرق وشرقيّ جديد كريو يسكنه البرقو والميه وهما قبيلتان عظيمتان

١١،١،٣ ثمّ إن جبل مرّة لا يسكنه إلّا أعجام الفور وأعجام الفور ثلاثة قبائل أحدها كُنْجارة وهي تسكن من قرلي إلى بعد الجبيل الصغير المسمّى مرّة بالخصوص وهو مرّة حقيقة وبعده بقليل إلى حدّ دار أباديما تسكنه الفور المسمّون كَراكِريتْ وأمّا الفور الساكنون بدار أباديما فيسمّون تموركه وبعد دار أباديما دار روگه ودار فراوجيه لكن روگه من جهة المغرب وفراوجيه من جهة المشرق ودار فنقرو بعد دار فراوجيه وبعد دار روگه دار سِلا لكن تميل إلى المغرب أكثر ولهذا يحكمها أهل الواداي

١٢،١،٣ واعلم أنّ جبل مرّة ليس جبلاً واحداً كلّه بل هو عدّة جبال كبار وصغار وقبل الدخول في دار أباديما ينقطع الجبل وتبقى أرض سهلة يسكنها الفلّان حتّى أنّهم يقربون من المساليط من جهة المغرب ويليهم بنو حلبة والمسيريّة الزرق وجميع ما ذكرناه غير البدو الحافّين بها من شمالها وشرقها وجنوبها وغير المولّدين من القبائل والفور يسمّونهم الداراويّة أي المنسوبين للدار فإنّهم في الوسط لا يعتبرون بقبيلة وإن أردت أنّ أبيّن لك كيفيّة دار الفور ووضع منازل هذه القبائل والأعراب المحتفّين بها فها أنا أرسم لك ما هو على هيئة الجدول تقريباً للفهم وهو هذا فنفرض أنّ هذه الجهة هي جهة الجنوب



هذا وإن كنت لم أبيّن في هذا الجدول البيان الشافي لعدم معرفتي بالرسم ولضيق الورق فهي في نفسها كذلك لكنّ الماهر يستنتج منها صورة حسنة

ثمّ اعلم أنّ أعمر البلاد من جهة الشمال بلاد البرتي والزغاوة لكثرة ما فيها من العالم وانظر حكمة الله فإنّ القبيلتين في خطّ واحد لكنّ البرتي أرقّ قلوباً وأحسن وجوهاً وأجمل نساءً والزغاوة بالعكس كما أنّ الداجو والبيقو في خطّ واحد وبنات البيقو أجمل ١٣،١،٣

من بنات الداجو وأمّا البرقد والتنجور فيوجد في كلّ منهما المليح والقبيح لكنّ البرقد خائنون سرّاق ليلاً ونهاراً لا يخافون الله ولا رسوله والتنجور معهم بعض دين وبعض عقل يمنعهم وأمّا أهل الجبل فكلّهم على حدّ في الوحاشة والوخاشة لكن متى جئت في دار أباديما تجد الرجال والنساء حساناً[1] فسبحان من هذا صنعه وأمّا المساليط فنساؤهم يسبين العقل ويذهبن باللبّ وأجمل النساء في دار الفور على الإطلاق نساء العرب بل ورجالهم كذلك وبين الواداي ودارفور لا يوجد ساكن البتّة ما عدا أهل جبل تاما الذي سنتحدّث عنه أنّ السلطان صابون وهو سلطان الواداي غزاه واستولى على أهله

١٤،١،٣ واعلم أنّ جميع البلاد التي في دارفور مقسومة على أكابر الدولة فكلّ منهم له فيها على قدر منصبه وحاله فأوسعهم دار أباديما والتكنياوي لأنّ كلاًّ منهما تحت يده اثنا عشر ملكاً لكلّ ملك منهم عمل مستقل ويسمّون ذلك الملك شَرْتايْ. أباديما يحكم على التموركه والتكنياوي يحكم على دار الزغاوة والبرتي وما وليهما[2] وأبا وُما ويساوي الكامِنَهْ يحكم على أربعة ملوك من المساليط وفُورَكَ أَبا يحكم على أربعة ملوك من الكراكريت والأُرُنْدُلُنْ وهو وجه السلطان يحكم على أربعة ملوك من بلاد البرقد والأب الشيخ يحكم على أربعة ملوك أيضاً ووَرَّكَ أبا يحكم على ملكين وهذه البلاد غير بلاد الأمناء والأشراف والفقهاء العظام والقضاة وليس للسلطان بلاد خالصة له إلّا بيوت آبائه وأجداده مثل قرلي وريل وتندلتي وغيرها

١٥،١،٣ ومحلّ حكم الأب الشيخ من أبي الجدول إلى الجنوب حتّى يأخذ أيضاً قطعة عظيمة من بلاد البرقد والأمناء يحكمون على جهة مرّة وأمّا السلاطين الصغار فإنّ كلّ سلطان منهم يحكم على بلاد جماعته كالبرقو والميه والتنجور والداجو والبيقو والزغاوة وهؤلاء السلاطين لهم أقطاع يتعيّشون منها وإن كانت المملكة لها حاكم غيره فمثلاً سلطان زغاوة حاكم على جماعته مع أنّه في دار التكنياوي لكن له أقطاع من زمن

---

١ الأصل: حسان. ٢ الأصل: ولاها.

أجداده لا يتعرّض لها التكنياوي وبقيّة البلاد يأخذ التكنياوي خيراتها وهكذا لغيره من السلاطين الصغار وبقيّة الأقاليم غير الستّة المذكورة حكّامها ملوك

١٦،١،٣ وأمّا عرض دارفور فإنّه من الخلاء الكائن بينه وبين دارصليح أي دار واداي إلى آخر الطويشة أي لأوّل الخلاء الكائن بينه وبين كردفال نحو ثمانية عشر يوماً وهذا الإقليم نصفه سهل أرض مرمّلة قليلاً إلّا آخره من الشرق فإنّه كثير من الرمل ولذلك يسمّى بالقَوْز وأمّا أراضي جبل مرّة فهي طين أسود وهو جبل يشقّ دار الفور من أوّلها إلى آخرها حتّى قيل إنّه متّصل بالمقطّم المطلّ على القاهرة لكنّه ليس قطعة واحدة بل هو متقطّع من عدّة أماكن وله طرق عديدة وفي هذا الجبل أمم وعالم لا يحصى كثرة وفيهم القبيلة المعروفة بالكنجارة التي ينسب إليها سلطان دارفور وفي هذا الجبل كهوف عديدة تحبس فيها أولاد الملوك وأخرى[١] لحبس الوزراء وفيه من الخيرات شيء كثير وذلك أنّ فيه من البقر والغنم ما لا يوجد في غيره من الأماكن ومن العجيب أنّ جميع مواشيهم ترعى وحدها بدون راعٍ ولا يخشون عليها سارقًا ولا سبعاً ولا ذئباً

١٧،١،٣ ولقد استأذنت السلطان محمّد فضل سنة ١٢٢٠ في التوجّه إلى جبل مرّة للفرجة فتوقّف أوّلاً في الإذن خوفاً عليّ من غائلة أهل الجبل ثمّ أذن لي وعيّن معي خدّاماً وكتب لي فرماناً إلى جميع عمّال الجبل يقول فيه

> من حضرة السلطان الأعظم والخاقان المكرّم سلطان العرب والعجم الواثق بعناية الملك العدل الصبور السلطان محمّد فضل المنصور إلى جميع ملوك جبل مرّة أمّا بعد فإنّ السيّد الشريف محمّد التونسيّ ابن الشريف العلّامة السيّد عمر التونسيّ التمس منّا إذناً في أن يرى الجبل وما فيه ويختبر ظاهره وخافيه وقد أذنّاه بذلك فلا يمنع من محلّ يريد النظر إليه وأأمر كلّ ملك نزل به أن يكرمه ويعظم ملقاه وقد أصحبته

---

١ الأصل: واخرون.

بفَلْقَنَاوِيَّيْن من خواصّ فَلاَقِنَتي ليكونا واسطة بينكم وبينه لتبليغ الكلام
ونيل المرام والسلام

١٨،١،٣ فتوجّهت صحبة الفلقناويين وعبدين لي ورجل من أهل البلدة التي أنا فيها فسافرنا يومين وفي اليوم الثالث أتينا أطراف الجبل فنزلنا في بلد يقال له نُمْلَيَه ولها رئيس يقال له الفقيه نَمْر وله ولد يقال له الفقيه محمّد وآخر يقال له سليمان فنزلنا في بيت رئيس البلدة وحضرهو وأولاده واستقبلونا بصدر رحب فأخبرناهم بمقصدنا وأظهرنا لهم أمر السلطان فاهتمّوا حينئذ بشأني وأعظموا ضيافتي فبتنا ليلتنا تلك ومن الغد توجّهوا بي إلى سوق نمليه وهو سوق يعمر في كلّ يوم اثنين يحضره جميع أهل الجبل رجالاً ونساء يقضون مصالحهم فرأيت أناساً شديدين السواد حمر الأعين والأسنان

١٩،١،٣ وحين رأوني اجتمعوا عليّ متعجّبين من احمرار لوني وأتوا إليّ أفواجاً أفواجاً لأنّهم لم يقع لهم رؤية عربيّ قبل ذلك وأرادوا قتلي على سبيل الاستهزاء وكنت إذ ذاك لا أعرف من لغة الفور شيئاً فما راعني إلّا أنّي رأيت من معي من الناس اختطفوا سلاحهم وجرّدوه في وجوه القوم وحالوا بيني وبين القوم فسألت عن السبب فقالوا لي إنّهم يريدون الفتك بك فقلت لماذا فقالوا لقلّة عقولهم لأنّهم يقولون إنّ هذا لم ينضج في بطن أمّه وبعضهم يقول لو نزلت عليه ذبابة لأخرجت دمه فقال أحدهم اصبروا وأنا أطعنه بحربة وأنظر مقدار ما[١] ينزل منه من الدم وحين سمعنا منهم ذلك خفنا عليك وأحطنا بك ثمّ إن الجماعة أخرجوني من السوق فتبعني خلق كثيرون فطردوهم عنّي بكلّ جهد ثمّ ذهبوا بي إلى وادٍ هناك فرأيت فيه نخيلاً وأشجار موز وبعض أشجار من الليمون ورأيت قد زرع في ذلك الوادي من البصل والثوم والفلفل الأحمر وهو قرون صغيرة رفيعة أكبر من حبّ الشعير بقليل والكمّون والكسبرة والحلبة والقِثّاء والقرع شيء كثير وكان ذلك في أيّام الخريف وقد احمرّ البلح فقطعوا لي عرجونين

١ مقدار ما – في الأصل: ما مقدار.

من البلح أحمر وأصفر وأهدوا لي بُخُسة عسل لم أر نظيره حسناً وطعماً ولذّة وبتنا في أكرم ضيافة وألذّ عيش

٢٠،١،٣ ولمّا أصبح الصباح طلبت التفرّج فأخذوني ودخلنا الأودية فصرنا نقطع وادياً[١] بعد وادٍ وبين كلّ واديين أقلّ من ميل مسافة وفي كلّ وادٍ زرع عجيب وماء يتدفّق على رمل كالفضّة وقد أحاط الشجر به سياجاً من حافتيه يتمنّى الناظر ألّا يفارقه فجلسنا على شاطئ الوادي في ظلّ شجرة هناك وذبح لنا كبش سمين وحُنِّذَ فأكلنا منه إرادتنا ثمّ ذهبنا لبلد تحت الجبل فبتنا فيها في أكرم ضيافة ولمّا أصبحنا صعدنا الجبل فمكثنا صاعدين نحو ثلاث ساعات حتّى علوناه فرأينا فيه أمما كثيرة وبلادا متفرّقة فأدخلونا على شيخ الجبل وكان حينئذ يسمّى أبا بكر وهو جالس في خلوته فلمّا دخلنا عليه وجدناه رجلا مسنّا قد ناهز الستّين وأثّر فيه الكبر فسلّمنا عليه فرحّب بنا وأجلسنا

٢١،١،٣ لطيفة: هذا الجبل لا يرتفع عنه السحاب في السنة إلّا أيّاماً قلائل ولكثرة المطر يزرعون القمح وينبت عندهم قمح لا يوجد نظيره إلّا في بلاد المغرب أو في بلاد أوروبّا لأنّه حسن جدًّا وبقيّة دارفور لا ينبت عندهم قمح لعدم الأرض الصالحة ولعدم الأمطار إلّا ما قلّ كأرض كوبيه وكبكابيّة فإنّه يزرع فيها القمح ويسقى بماء الآبار حتّى يتمّ نضجه

٢٢،١،٣ ولزيارة الشيخ المذكور يوم معلوم من السنة تذهب إليه الناس من كل جانب ويقول لهم ما يحصل في جميع العام من قحط ومطر وحرب وسلم ورخاء وشدّة ومرض وصحّة والناس يعتقدون حقيقة ذلك فاختلف أهل دارفور في ذلك فمن قائل إنّه من طريق الكشف وإنّ كلّ من تولّى شيخاً يكون وليّاً وما يقوله للناس من طريق الكشف وهذا قول أهل العلم ومن قائل إنّ الجان يخبره بجميع ما يحصل وهو يقول للناس وكلا القولين لا أعرف صحّتهما بل قد تقوّلت عنه أمور كثيرة وحصل ضدّها فأبرزنا فرمان السلطان وقرأه عليه الفقيه محمّد فرحّب وأكرم ودعا لنا بطعام ثمّ ضرب

---

١ الأصل: واد.

طبلاً يقال له التنبل فجاء أناس كثيرون فانتخب من شبابهم نحو مائة نفر وأرأس عليهم رجلاً من ذوي قرابته يعرف بالشجاعة يقال له الفقيه زيد وأمره أن يكون معي هو والجماعة وأن يكونوا على أهبة وحذر من جهّال أهل الجبل

٢٣،١،٣ ثمّ ركبنا وتوجّهنا إلى مكان هناك فيه جبل صغير وهو المسمّى مرّة وسمّي الجبل كلّه باسم ذلك المحلّ فرأينا فيه مكانا أشبه بمعبد جميع أهل الجبل يعتقدون تعظيمه ويرون أن حرمته كحرمة المساجد فدخلنا فيه وقد أظلّته شجرة كبيرة بحيث صار لا تراه الشمس فجلسنا فيه قليلا ورأينا فيه خدماً لتنظيفه واستقبال النذور ممّن يأتي بها ثمّ انتقلنا من ذلك المكان ومشى العسكر أمامنا فلحق بنا عالم كثير نساء ورجالاً وجعلوني أعجوبة[١] وتكالبوا وازدحموا عليّ وأراد العسكر تفريقهم[٢] فما أمكن ذلك حتّى قال بعضهم إن السلطان أرسل لأهل الجبل رجلا لم ينضج في بطن أمّه ضيافة لهم فقال بعضهم هو آدميّ وقال آخرون هو ليس بآدميّ بل هو حيوان مأكول اللحم على هيئة الآدميّ لأنّهم ينكرون أن يكون للآدميّ لون أبيض أو أحمر وهؤلاء القوم لا يعرفون من اللغة العربيّة إلّا كلمتي الشهادة ويقولونها مقطّعتين مع العجمة القبيحة ولمّا عجز من معي عن[٣] الدفع عنّي جاءني الفقيه زيد وأمرني أن أستر وجهي بلثام لا يظهر منه إلّا الحدقتان فتلثّمت واحتاط بي العسكر وحين رأى السودان أنّي تلثّمت اختلط عليهم الأمر وسألوا أين الأحمر قالوا ذهب إلى السلطان فانكفّوا قليلاً

٢٤،١،٣ وحينئذ توجّهنا إلى محلّ الحبس أي الكهوف التي فيها المحبوسون من أولاد الملوك والوزراء فمنعنا الحرس من الوصول إليها وكاد أن يقع بينهم وبين جماعتنا شرّ فتلافى الفقيه زيد الأمر وأخذ منّي الفرمان وذهب إلى رئيس الحرس وقرأه عليه وعند ذلك امتثل وقال إن كان ولا بدّ فليأت المأمور له بالتفرّج وحده وجميع من معه يجلس على بعد حتّى يقضي شأنه ويرجع إليهم فجاءني وأخبرني بذلك فأبيت ذلك وأدركني خوف عظيم فنأيت عن الدخول إلى الكهوف وطلبت الرجوع فرجعنا

١ الأصل: عجوبة. ٢ الأصل: تفرقهم. ٣ الأصل: من.

ومن غرائب عوائدهم أنّ الرجل لا يتزوّج المرأة حتّى يصاحبها مدّة وتحمل منه مرّة أو مرّتين وحينئذ يقال إنّها وَلود فيعقد[١] عليها ويعاشرها ومن عوائدهم أيضاً أنّ النساء لا يحجبن عن الرجال حتّى أنّ الرجل يدخل داره فيجد امرأته مختلية مع آخر فلا يكترث ولا يغتمّ إلّا إذا وجده عليها ومن طبيعتهم الجفاء وسوء الخلق خصوصاً إذا كانوا سكارى ومن طبيعتهم أيضاً البخل الزائد لا يقرّون ضيفاً إلّا إذا كان من ذوي قرابتهم أو لهم به علقة أو كان إنساناً يخافون منه ومن عوائدهم أنّ الصبيان والبنات الصغار لا يستترون إلّا بعد البلوغ فيلبس الصبيّ قميصاً وتشدّ الأنثى وسطها بميزل ويبقى ما زاد عن السرّة إلى وجهها بارزًا ومن عادتهم عدم الترفّه والتفنّن في المآكل بل كلّ ما وجدوه أكلوه لا يأنفون طعاماً مُرًّا كان أو نتناً بل ربّما أحبّوا أكل الطعام المرّ واللحم النتن واستحسنوه عن غيره ٢٥،١،٣

ومن عادتهم أنّ الشباب لهم في كلّ بلدة رئيس وكذلك النساء لهنّ رئيسة فرئيس الرجال يسمّى الوُرْناك ورئيسة[٢] النساء تسمّى المَيْرَم فإذا كان في الأفراح والأعياد والمواسم يجمع الرئيس أصحابه ويجلس بهم في محلّ وتأتي الرئيسة وصواحبها[٣] فيجلسن أمامهم على حدة فينفرد الورناك ويدنو من الميرم ويخاطبها بكلام يعرفه هو وهي فتأمر الميرم جماعتها أن يتفرّقن على جماعة الورناك فيأخذ كلّ فتى فتاة ويذهبان إلى محلّ ينامان فيه إلى الصباح ولا عار في ذلك على إحدى منهنّ ٢٦،١،٣

وليعلم أنّ الرجال في دارفور لا يستقلّون بأمر البتّة إلّا الحرب فليس للنساء دخل فيه وما سوى ذلك فهم والنساء سواء بل أكثر الأشغال وأشقّها على النساء وللرجال اختلاط عجيب بهنّ بالليل والنهار في جميع الأعمال ٢٧،١،٣

ومن العجب في أهل جبل مرّة أنّهم لا يأكلون من القمح الذي يزرعونه بل يبيعونه ويستبدلون بثمنه دخناً وأعجب من ذلك غلظ قلوبهم وجفاوتهم مع أنّهم ممتزجون بالنساء امتزاجاً كلّيًّا وهذا خلاف المشاع على ألسنة جميع أهل بلاد أوروبّا من أنّ الرجال إذا امتزجوا بالنساء تذهب غلاظة قلوبهم ويكتسبون الرقّة وحسن الطبع ٢٨،١،٣

١ الأصل: ويقعد. ٢ الأصل: ورئيس. ٣ الأصل: وصواحبتنا.

ومن غلاظة طبعهم أنّ الرجل يسافر الفراسخ العديدة راجلاً ويكون معه حمار فيسوقه أمامه ولا يركبه وإن سئل يقول إن ركبته أبطأ بي

٢٩،١،٣ وأمّا لغتهم فهي لغة فيها حماس. ألفاظها تشبه ألفاظ اللغة التركيّة لأنّهم إذا دعوا إنساناً يقولون له كالا والترك يقولون كال وقولي تشبه اللغة التركيّة ليس معناه أنّهما متقاربتا[1] المعنى بل وجه الشبه في مجرّد الألفاظ وإن اختلف موضوع معنى كلّ منهما وذلك أنّ الفور يقولون للفرس يامُورَتا وعند الترك هو اسم للبيض والقبيح عند الفور اسمه كِيِّ[2] وعند الترك فعل ماض بمعنى ذهب ولم اسمع لغة أنقص من لغتهم لأنّ العدد بلغتهم ينتهي إلى ستّة ويكمل بالعربيّ فيقولون دِيكْ واحد أَوْ اثنان إِيسْ ثلاثة أُونَكَلْ أربعة أُوسْ خمسة أُوصَانْدِيكْ ستّة ثمّ يقولون بالعربيّ سبعة ثمانية تسعة ثمّ يقولون وأيَّهْ وهو لفظ يدلّ على عَشَر الأعداد

٣٠،١،٣ لطيفة: من أعجب ما سمعته بجبل مرّة أنّ الجنّ ترعى مواشيهم التي ترعى في الكلأ بدون راعٍ معهم ولقد أخبرني عدّة رجال ممّن يُظنّ صدقها أنّ الإنسان إذا مرّ بمواشيهم ورأى ألّا راعي[3] لها ربّما طمع فأخذ منها شاة أو بقرة أو غير ذلك فإن ذبحها تلتصق يده بالسكّين على منحرها ويعجز عن فكاكها حتّى تأتي أرباب الماشية فيقبضون عليه ويغرمونه ثمنها بأغلى قيمة بعد إهانتهم له وضربهم إيّاه الضرب المؤلم ولقد تكرّر على سماع ذلك حتّى بلغ مبلغ التواتر مع أنّي لا أصدّقه

٣١،١،٣ وحين كنت في جبل مرّة توجّهت إلى دار رجل منهم في نمليه أسأل عنه فما رأيت في داره أحداً لكن سمعت داخل الدار صوتاً غليظاً مرعباً اقشعرّ منه جلدي يقول لي أكّا يعني إنّه ليس هنا وفي ذلك الوقت أردت أن أتقدّم وأسأل أين ذهب فمرّ بي إنسان وجذبني وقال ارجع فإنّ الذي يخاطبك غير آدميّ فقلت وما هو فقال هذا الحارس الجنّيّ لأنّ لكلّ إنسان منّا حارساً من الجنّ ويسمّى بلغة الفور دَمْزوقَهْ فخفت حينئذ ورجعت من حيث أتيت

١ الأصل: مقاربتي. ٢ الأصل: كِتِّي. ٣ الأصل: راعٍ.

٣،١،٣٢ ولمّا رجعت من هذه السفرة وتوجّهت إلى الفاشر اجتمعت مع الشريف أحمد بدويّ الذي أخذني من مصر وذهب بي إلى دارفور فأخبرته القصّة فقال صدّق وأسمعني أعجب من ذلك وقال لي يا ولدي اعلم أنّي كنت في أوّل أمري أسمع أنّ الدمازيق تباع وتشترى ومن أراد منها دمزوقه[١] يذهب إلى من يُعلم أنّ عنده دمازيق فيشتري منه واحداً بما يرضيه ثمّ يأتي بقرعة فيها لبن ويدفعها إلى ربّ المنزل فيأخذها ويدخل إلى المحلّ الذي هنّ فيه فيسلّم عليهنّ ويعلّق القرعة التي فيها اللبن في علاّقة في البيت ثمّ يقول لهنّ إنّ صاحبي فلاناً عنده مال كثير وخائف عليه من السرقة وأراد منّي حارساً فهل إحدى منكنّ تذهب إلى داره لأنّ عنده لبناً كثيراً وخيراً غزيراً وقد أتى بهذه القرعة مملوءة لبناً فيتمنّعن أوّلاً ويقلن لا أحد يذهب معه فيتحنّن لهنّ ويتملّق حتّى يرضين فيقول من أراد الذهاب منكنّ فلينزل في القرعة وبعد عنهنّ قليلاً وحين يسمع بصوت وقوعه في اللبن يغطّي القرعة بطبق من سعف ويأخذها من علاّقتها مغطّاة ويدفعها لصاحبه المشتري فيأخذها ويذهب بها إلى داره ويعلّقها في بيته ويوكّل بالقرعة جارية أو امرأة تأتي كلّ يوم على الصباح وتأخذ القرعة وتريق ما فيها من اللبن وتغسلها[٢] جيّداً ثمّ تضع فيها لبناً آخر محلوباً في ساعته وتعلّقها وحينئذ يأمن الإنسان على ماله من السرقة والضياع

٣،١،٣٣ وكنت أكذّب ذلك حتّى كثر مالي وصارت العبيد والخدم يسرقونه فاحتلت على منع السرقة بكلّ حيلة فلم يمكنّي[٣] ذلك وشكوت لبعض أصحابي فأمرني أن أشتري دمزوقه وأنّي أُكْفَى شرَّ السرقة فحداني حبّ المال أن توجّهت إلى رجل سمعت أنّ عنده دمازيق وقلت له أعطني دمزوقه تحرس لي مالي وأعطيته ما طلبه فقال لي اذهب واملأ قرعة من لبن حليب وهاتها ففعلت وأتيته بالقرعة مملوءة لبناً فأخذها وذهب وبعد ساعة جاءني والقرعة مغطّاة وقال لي علّقها حيث مالك مخزون وعرّفني ما ينبغي أن يُفعل كلّ يوم من غسل الآنية وتجديد اللبن ففعلت ذلك ووكّلت جارية بذلك وأمنت على مالي حتّى أنّي كنت أترك بيت مالي مفتوحاً ولا يقدر أحد على الوصول إليه وفيه من

١ الأصل: دمزوقًا. ٢ الأصل: يغسلها. ٣ الأصل: يمكنني.

العين والأمتعة شيء كثير وكلّ من رام أخذ شيء بغير إذني تكسر رقبته فقتل لي عدّة عبيد وعشت آمناً على مالي مدّة حتّى كبر لي ولد كان اسمه محمّد فلمّا شبّ واحتلم تعلّقت آماله بالبنات وأراد يهاديهنّ ببعض خرز وحليّ فترقّب غفلتي يوماً وأخذ المفاتيح وفتح خزينة الأمتعة وأراد أن يدخل فكسر الدمزوقه رقبته ومات في الحال وكنت أحبّه حبّاً شديداً فلمّا أُخبِرتُ بموته جزعت عليه جزعاً عظيماً وسألت عن سبب ذلك وأُخبرت أنّه أراد أن يأخذ شيئاً من الأمتعة فقتله الدمزوقه فحلفت يميناً أنّ الدمزوقه لا يجلس في بيتي وأردت إخراجه فأعجزني وشكوت لبعض أحبابي فأشار عليّ أن أصنع وليمة وأجمع فيها أناساً كثيرين يكون مع كلّ واحد منهم بندقيّة وبارود ويأتون كلّهم دفعة واحدة يطلقون البنادق ويصيحون بصوت واحد بكلام الفور دَمْزُوقه أَيِئِّيهْ ومعناه أين الشيطان ويكرّرون الطلق ويرفعون أصواتهم بذلك حتّى يدخلون إلى المحلّ الذي فيه المال فربّما خاف وهرب منه ففعلت ذلك ففرّ ولله الحمد وخلصت من معاشرة الدمازيق أي الشياطين

٣٤،١،٣ ولقد أخبرني عدّة رجال أنّ النقاقير التي في بيت السلطان فيها واحدة تسمّى المنصورة[١] متملّكها الشياطين وأنّها ربّما ضُربت بغير ضارب فإذا وقع ذلك يحدث في دارفور أمر عظيم إمّا حرب عدوّ لهم أو حرب بينهم وسيأتي لهذا مزيد توضيح حين نتكلّم على عوائد الملوك

٣٥،١،٣ وأمّا عوائد القبائل الأخر كالبرتي والداجو والبيقو والزغاوة والبرقو والميمه وغيرهم فإنّ بعضها يقرب من عوائد أهل الجبل وبعضها يخالفها أمّا المخالفة فبعض هذه القبائل فيه كرم ونجدة ورقّة طبع وذلك لمخالطتهم للعرب أهل البادية وللتجار الذين يذهبون من أرض مصر وغيرها فتراهم إذا رأوا أضيافاً أقسموا عليهم وأحسنوا ضيافتهم وإن رأوا غريباً أكرموه وذلك بخلاف الفور الأعجام كأهل جبل مرّة وتموركه فإنّهم لا يكرمون الضيف ولا يألفونه ولا ينزل الضيف عندهم إلّا قهراً عنهم انتهى

١ الأصل: منصورة.

الفصل الثاني في عوائد ملوك الفور

٣،١،٣٦ اعلم أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلائق بقدرته وميّزهم بحكمته وجعل اختلاف عوائدهم وأحوالهم عبرة لأولي الأبصار وتذكرة لذوي الاستبصار ليعلم العاقل إذا تأمّل في أحوال الممالك واختلاف عوائدها وطبائعها المتنوّعة وفوائدها أنّ القادر الخالق الأكبر جلّت قدرته وعظمت إرادته إنّما نوّع أحوال هذا العالم وخصّ كلّ قوم بمزيّة لا توجد في غيرهم ليُعلم عظم قهره وحكمته كما أنّه إذا نظر في اختلاف ألسنتهم وألوانهم وزيّهم ومعاشهم علم أنّها آية كبرى كما قال تعالى و﴿مِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ ثمّ إنّ الله جعل لكلّ إقليم طبيعة فمن الأقاليم الحارّ ومنها البارد ومنها المتوسّط بين الحرارة والبرودة وذلك بحسب قرب الإقليم من خطّ الاستواء وبعده عنه فسبحانه الفعال لما يريد ولو شاء لجعلهم أمّة واحدة ولكن بالاختلاف تظهر المزايا وتشتاق النفس إلى معرفة ما لم تعرفه ولولا ذلك لما ساحت السوّاح وما بُذلت في الأسفار الأموال[١] والأرواح وإذا تقرّر ذلك فنقول

٣،١،٣٧ عادة ملوك الفور مخالفة لعوائد غيرهم من الملوك ولِمَلِكِهِمْ السلطنة التامّة عليهم فإذا قتل منهم ألوفا لا يُسأل لماذا وإن عزل ذا منصب لا يسأل لماذا فهو تامّ التصرّف في كلّ أمر يريده وإذا أمر بأمر لا يُراجَعُ فيه ولو كان منكرًا إلّا من قبيل الشفاعة ولا تردّ له كلمة لكنّه إذا فعل ما لا يليق من الظلم والعسف تحصل له بغضاء في قلوبهم ولا يقدرون له على شيء

٣،١،٣٨ فأوّل عوائدهم أنّ الملك لا يكون إلّا من بيت الملك أي من سلالتهم ولا يمكن تولية أجنبيّ عنهم[٢] ولو شريفاً وتحقّق نسبه عندهم وثانيها أنّ الملك إذا تولّى يجلس في بيته سبعة أيّام لا يأمر ولا ينهى ولا تقوم بين يديه دعوى[٣] وكلّهم على ذلك إلّا السلطان عبد الرحمن فإنّه خرق عادتهم كما مرّ عند الكلام على توليته وثالثها أنّ لهم عجائز تسمّى الحبّوبات وهنّ طائفة عظيمة ولهنّ رئيسة تسمّى ملكة الحبّوبات

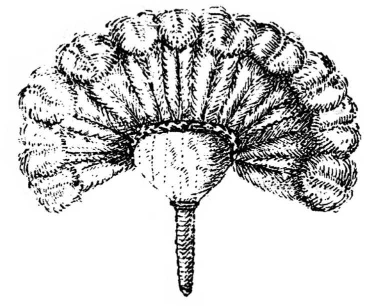
١ الأصل: الامول. ٢ الأصل: منهم. ٣ الأصل: دعوة.

فعند خروج السلطان يوم الثامن يجتمعن ويأتين إليه وكلّ واحدة منهنّ بيديها أربع قطع من الحديد تسمّى القطعة منها كُرْباجاً وصورتها إمّا هكذا أو هكذا أو هكذا وفي كلّ يد كرباجان يضربنها على بعضها فيحصل منها صوت وبيد إحداهنّ قبضة من سعف أبيض ومعها ماء اختلف أهل دارفور فيما تركب منه فتبلّ العجوز السعف من ذلك الماء وترشّ به على السلطان مع قول كلام لا يعقله إلّا هنّ ويأخذن السلطان في وسطهنّ ويطفن به البيت ويتوجّهن إلى دار النحاس وهو المحلّ الذي فيه النقاقير وهي طبول السلطان فيدخلن البيت ويأتين إلى النقاريّة المسمّاة بالمنصورة فيقفن حلقة ويجعلنها في الوسط والسلطان وحده معهنّ ويضربن الكرابيج على بعضها ويقلن من كلامهنّ ثمّ يرجعن بالسلطان إلى كرسيّ مملكته وبعد جلوسه ذاك تدخل إليه الدعاوى ويتناول الأحكام

٣٩،١،٣ ومن عادتهم أنّ السلطان لا يسلّم على غيره إلّا بترجمان صغيراً كان أو كبيراً عظيماً أو حقيراً وكيفيّة ذلك أنّه[١] إذا دخل عليه أناس يجثون على ركبهم ثمّ يتقدّم الترجمان ويسمّيهم واحداً بعد واحد إلى آخرهم وهو أنّه يقول إِنَو تَوْرَا فَلَانْ دُوكَّهْ كَنِّيجَي دَارِي ومعناه إنّ هنا برّاً فلان سلام يعطي طاعة فإذا تمّ أسماء الجالسين قال كِيكِينْ دُقُلَهْ كِرِكّهْ ومعناه معهم أولاد وراءهم حتّى أتباعهم وخدمهم فتقول العبيد الواقفون خلف السلطان المسمّون كُورْكُوَا وقد تقدّم ذكرهم دونكراي دوكّه دونكراي دوكّه ومعناه سلام سلام سلام سلام فإن كان في ديوان حفل ضرب إذ ذاك طبل يقال له دِنْقَار وهو طبل عظيم من خشب مجلّد من جهة واحدة أهراميّ الشكل مقلوب هكذا له صوت عالٍ وإن لم يكن ديواناً لا يكون ذلك

١ الأصل: ان.

ثمّ من شدّة تعظيمهم للسلطان أنّ السلطان إذا بصق في الأرض يمسحه بيده واحد من الخادمين القاعدين[١] أمامه المتطلّعين[٢] دائمًا للسلطان ولأفعاله ولحركاته وإذا تنحنح قالوا كلّهم تس تس يعني يلفظون بتاء مدغمة في سين من غير حركات يكون اللسان ضاربًا للسِّنْخ العلويّ للأسنان وإذا عطس لفظوا بحروف لا يلفظ بها إلّا الوَزَغ أو من يسوق دابّة وإذا جلس وأطال المجلس روّحوا عليه بمراوح من ريش النعام وإن خرج إلى الصيد يظلّلونه بشمسيّة وأربع مراوح كبار من ريش النعام مغلّفات بجوخ أحمر وهذه المراوح تسمّى بالريش وصورته هكذا ٤٠،١،٣

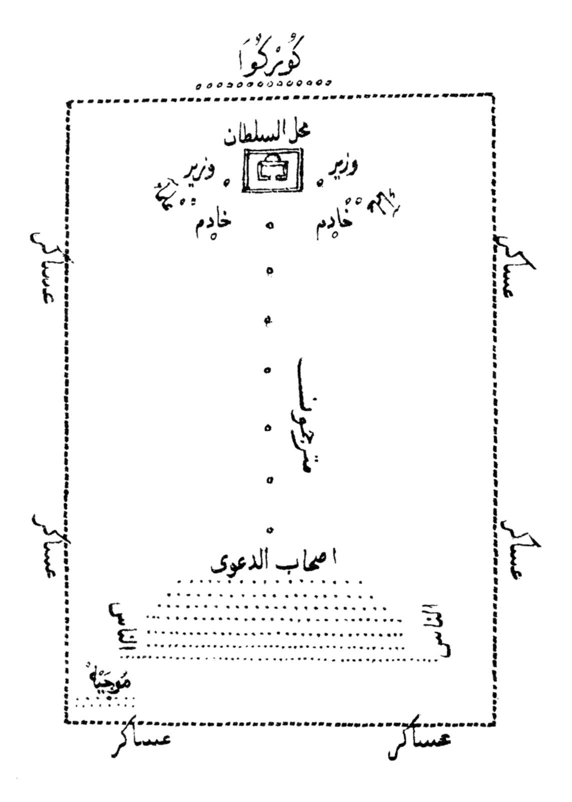


فيقفون بالشمسيّة على رأس السلطان ويجعلون المراوح اثنين عن اليمين واثنين عن اليسار فيصير على السلطان ظلّ واسع وللشمسيّة المذكورة والريش ملك مخصوص وأعوان يتداولونها نوبة فنوبة ماشيين على أقدامهم ومن عادة السلطان إذا ركب أن ترفع أمامه السجّادة ولها ملك مخصوص وأعوان يتداولونها أيضًا ومن تعظيم السلطان أنّه إذا ركض جواده وعثر الجواد فرماه أو وقع من شدّة الركض أنّهم يرمون أنفسهم جميعًا من على ظهور الخيل ولا يمكن أن يثبت أحد منهم على ظهر فرسه بعد وقوع السلطان بل إن رأى الخدمة أحدًا ثابتًا على ظهر جواده ولم يرم نفسه يرمونه إلى الأرض ويضربونه ضربًا مؤلمًا وإن كان عظيمًا لما يرون أنّ ثباته احتقار بأمر السلطان

٤١،١،٣ وإذا جلس السلطان للحكم في ديوانه لا يكلّم الناس مباشرة بل بواسطة ترجمان إن لم يكن ديوانًا عامًّا فإن كان ديوانًا عامًّا كانت سبعة المترجمون أوّلهم عند السلطان وآخرهم عند الناس أصحاب الدعوى والمترجمون في الوسط والعساكر حوله والكوركوا خلفه والعلماء والأشراف جالسون وهيئة ديوانه هكذا

---

١ الأصل: قاعدين. ٢ الأصل: متطلعين.



والناس جاثون على ركبهم أمامه واضعين أيديهم على التراب والموجيه واقفون دائمًا وسنذكر تعريفهم فإذا سلّم السلطان عليهم مسحوا التراب بأيديهم وإذا تكلّم أحد في مجلسه لا يبدأ الكلام إلّا بقوله سلّم على سيّدنا إن كان عربيًّا وإن كان فوراويًّا قال أباكوري دُوگًا جَني ومعناه ذلك وإذا كان السلطان هو المتكلّم يقول سلّم عليه إذا يتكلّم بالعربيّ فالترجمان يقول دُوگَايَ دَايِگْ سيدي وإذا كان بالفوراويّة يقول دُوگَا جَني إن كان عجميًّا وإن كان عربيًّا يقول سلّم عليه ولا خصوصيّة لمجلس السلطان في ذلك بل كلّ مجلس تُعمل فيه دعوى يقال ذلك حتّى في مجلس القاضي ومشايخ البلاد ولا يمكن أن تعمل دعوى بغير دُوگًا جَني ويلزم لذلك أنّ الكلام يطول وإن كان قصيرًا لتكرير هذه الكلمة بعد كلّ كلمة أو كلمتين وإذا افتتح أحد دعوى بغير ذلك يعيبون عليه ويرون أنّه غير متمدّن بل إذا كان في مجلس حاكم يؤدّب بالزجر ما لم يكن غريبًا فيعذر

٤٢،١،٣ ومن عادة ملوك الفور تجليد النحاس وهي عادة لا توجد في غير دارفور وتجليد النحاس هو تغيير[١] جلود الطبول المسمّاة في إقليم مصر بالنقاقير وهذا التجليد يعظمونه ويجعلون له موسماً في السنة ومدّته سبعة أيّام وكيفيّة ذلك أنّ السلطان يأمر بنزع جلود الطبول كلّها في يوم واحد فتُنزع ثمّ يؤتى بأثوار خضر اللون فيذبحونها ويأخذون من جلودها ويجلّدون بها تلك الطبول لكن أهل دارفور يقولون في ذلك كلاماً لا يقبله عقل عاقل[٢] ممارس للكتب ولكنّهم مُطّبِقون على ذلك فإنّهم يزعمون أنّ هذه الأثوار من نوع بقر معروف عندهم وأنّها حين الذبح تنام وحدها بدون من يمسكها ولا يذكرون اسم الله عند ذبحها ويقولون إنّ الجنّ هو الذي يمسكها وينيمها

٤٣،١،٣ ثمّ يأخذون لحومها وتُجعل[٣] في خوابي وتُترك[٤] ستّة أيّام مع الملح وفي اليوم السابع يأتون ببقر كثيرة وأغنام وتذبح كلّها ويطبخون لحومها وفي حال الطبخ يأخذون اللحم الذي في الخوابي ويقطعونه قطعا صغيرة ويجعلون في كلّ قدر منه قطعاً تخلط باللحم الجديد ثمّ تفرّق الموائد للملوك وأولاد الملوك والوزراء على حسب طبقاتهم ويقف على كلّ مائدة منها حارس من طرف السلطان ينظر من يأكل ومن لم يأكل فإذا أخبر السلطان بأنّ فلاناً لم يأكل أمر بالقبض عليه في الحال لأنّهم يقولون إنّ من كان في قلبه خيانة للسلطان أو غدر لا يمكن أن يأكل من هذا اللحم وإن تعلّل أحد بأنّه مريض أو لا يقدر على الحضور[٥] أرسلت إليه أواني منه مع حارس أمين ينظر هل يأكل أو لا فإنّ أبى يقبض عليه إلّا إذا كان معذوراً بقوّة مرضه وبعض أهل دارفور يقولون إنّه يؤتى بغلام وصبيّة لم يبلغا الحنث ويذبحان سرًّا ويقطع لحمهما ويُجعل في القدور مع لحم الحيوانات المذبوحة وبعض الناس يقول لا بدّ وأن يكون اسم الغلام محمّداً واسم الصبيّة فاطمة وإن صحّ هذا فهو غاية الكفر بالله ورسوله ولكنّي لم أشاهد ذلك ولم أقف عليه لأنّي غريب والأغراب لا اطّلاع لهم على مثل هذا الأمر أبداً لكنّي سمعته من أناس كثيرين يحلفون لي بأيمان مغلّظة أنّ هذا الكلام صحيح لا ريب فيه

---

١ الأصل: تغير. ٢ الأصل: العاقل. ٣ الأصل: ويجعل. ٤ الأصل: ويترك. ٥ الأصل: حضور.

٤٤،١،٣ وقبل إخراج الطعام تحضر العساكر كلّها ويقفون في بطحاء واسعة أمام دار السلطان ثمّ يخرج السلطان عليهم في زينته وأبّهته فتعرض عليه الجيوش كلّ ملك بأتباعه واحد بعد واحد وكيفيّة العرض أنّ الملك يأخذ أتباعه ويركض حتّى يصل إلى محلّ السلطان فإن كان من العظماء برز السلطان من جماعته إلى ملاقاته مقدار خطوتين أو ثلاثة وإن كان غير عظيم ثبت السلطان في موضعه فيرجع الملك وجماعته ويفعل ذلك ثلاث مرّات وفي الثالثة يعرضون على السلطان ثمّ يرجعون إلى محلّ وقوفهم فيخرج ملك آخر بجيشه ويفعل كذلك وهلمّ جرّاً

٤٥،١،٣ فإذا تمّ العرض خرج السلطان راكضاً وتتبع الملوك وذهب أوّلاً إلى أعظمهم ثمّ إلى مثله وإلى أقلّ منه فهكذا حتّى يمرّ عليهم أجمعين جبرًا لخاطرهم وكلّما أتى قوماً صاحوا في وجهه بكلام يعظّمونه به وهو أنّهم يقولون له بصوت عالٍ برنس، حُرّ السلاطين، جنزير الملوك، أدّاب العاصي، فِرْتاك الجبال بلا ديوان، وغير ذلك فإذا تمّ العرض دخل السلطان داره ودخل وراءه جميع أرباب المناصب من الوزراء والملوك وأولاد السلاطين فيدخل السلطان إلى دار النحاس ويأخذ قضيباً ويضرب به النقاريّة المسمّاة المنصورة[١] ثلاث ضربات والعجائز أي الحبّوبات محدّقات به بأيديهنّ الكرابيج يضربنها على بعضها كما تقدّم ثمّ يمشين زوجاً زوجاً هكذا والسلطان بين الزوج الأخير حتّى يدخلن بالسلطان إلى محلّ جلوسه وأنا شاهدت ذلك

٤٦،١،٣ ثمّ تُفرّق الأطعمة كما ذكرنا وإذا كان بعض القوّاد أو الوزراء غائباً عن الفاشر في وقت تجليد النحاس ثمّ جاء بعد ذلك واتّهم بغدر أو خيانة يسقى من ماء ِكِلي وهو

١ الأصل: منصورة.

ماء ينقع فيه ثمر شجرة مسمّاة بكيلي وثمره كالجوز تقول أهل دارفور إنّ المتهوم بشيء إذا شرب منه إن كان بريئاً يتقايأه في الحال وإن لم يكن بريئاً يشرب منه حتّى يمتلئ بطنه ولا يتقايأ حتّى أنّه ربّما شرب ملء خابية. أنا شاهدت ذلك[1] لكن في تهمة سرقة ولعلّ هذا من خواصّ النباتات لأنّ النبات في دارفور له خواصّ عجيبة سنذكرها بعد إن شاء الله تعالى

٤٧،١،٣ ومن عادة الفور أنّ السلطان له مزرعة معلومة يزرعها لنفسه في كلّ سنة وفي يوم بذر الحبّ فيها بعد الأمطار يخرج في مهرجان عظيم ويخرج معه من البنات الجميلات المتجمّلات بالحُلِيّ والحِلَى ما ينوف عن مائة صبيّة من محاظيه الخاصّة حاملات على رؤوسهنّ آنية فيها المآكل الفاخرة وهذه الأواني تسمّى بالعُمار مفردها عُمْرة فيمشين وراء جواد السلطان صحبة العبيد الصغار الحاملين للحراب المسمّيين كوركوا وأصحاب الصفافير وهؤلاء[2] يغنّون بغناء حال تصفيرهم وكوركوا الحاملون للحراب يغنّون معهم فحين تخرج البنات مع السلطان يغنّين[3] معهم أيضاً فيبقى لجموعهم صوت جميل جدّاً

٤٨،١،٣ وحين ما يصل السلطان إلى المزرعة ينزل عن جواده ويأخذ البذر ويأتي أحد عبيده يحفر الأرض بمسحاة معه ويرمي السلطان البذر وهو أوّل بذر يقع في الأرض في الجهة التي فيها السلطان فعند ذلك تتبعه الملوك والوزراء والقوّاد فيبذرون الحبّ ويزرعون المزرعة في أسرع وقت وبعد تمام زرع المزرعة يحضر الطعام المحمول على رؤوس البنات المذكورة فيوضع أمام السلطان فيأكل منه هو ووزراؤه ثمّ يركب في مهرجانه حتّى يصل إلى دار ملكه وهذا اليوم من الأيّام المشهورة في دارفور

١ أضيف للسياق. ٢ الأصل: وهذه. ٣ الأصل: تغنين.

الفصل الثالث في مناصب ملوك الفور[1]

٣،١،٤٩ اعلم أنّ واجب الوجود تقدّست ذاته عن المعين لمّا كان منفرداً بالقدرة المطلقة والإرادة التامّة المتصرّفة أحوج الملوك إلى الوزراء والمدبّرين والمعينين ليعلم عجزهم عن الاستقلال في تدبير ممالكهم ومصالحهم ولولا ذلك الاحتياج لطغوا وبغوا أكثر ممّا هم فيه من الطغيان بل ربّما ادّعوا الألوهيّة التي لا تليق إلّا بذاته العليّة لكن خصّ كلّ إقليم بترتيب وتنظيم فلهذا تجد أسماء مناصب وزراء[2] الخلفاء كانت مغايرة لأسماء مناصب وزراء الملوك الآن وأسماء مناصب وزراء ملوك هذا الزمن متخالفة أيضاً ففي مملكة آل عثمان أسماء المناصب الوزير الأعظم والكَتْخُدا والخازِنْدار والسلاح دار والمُهُرْدار والديوت دار وجوخه[3] دار وسَرْ بوّابين وقابجي باشي وغير ذلك من تتونجي باشي وشُرْبَتْجي باشي وقهوجي باشي وقفطان أغاسي وبشكير أغاسي وباشات وأمراء الألوية وأمراء الألايات

٣،١،٥٠ وأمّا أهل دارفور فإنّهم لتعظيمهم للسلطان لم ينتبهوا إلّا إلى جسم السلطان فسمّوا المناصب بأسماء أعضائه فأوّل مناصبهم أُرُونْدُولُوگ وهو منصب عظيم القدر صاحبه يكنّى برأس السلطان ولهذا المنصب أقطاع عظيمة وبلاد وصاحبه لا يسلّم عليه إلّا بدونكاراي دونكا وترفع السجّادة أمامه كالسلطان وصاحب هذا المنصب إذا كان السلطان مسافرًا أو قانصاً وظيفته أن يمشي بعساكره أمام الجيش كلّه لا يسبقه أحد

٣،١،٥١ وثانيها منصب الكامَنَه وهو في العظم والجلالة أعلى من أروندولوگ ويكنّى عنه برقبة السلطان لكن من عادة الفور أنّ السلطان إذا قُتل في الحرب وسلم الكامنه حتّى رجع إلى محلّ الأمن يقتلونه لكن يخنقونه سرًّا ويولّون غيره للسلطان المتولّي وإذا مات السلطان على فراشه لا يقتل الكامنه وهذا الكامنه يسمّى بلغة أعجام الفور أبا فوري ومعناه أبو الفور ولصاحب هذا المنصب أقطاع جليلة وعساكر كثيرة ويفعل مثلما يفعل

---

١ الأصل: في مناصب ملوك في [كذا] الفور وملابسهم وكيفية مجلس السلطان وغير ذلك. ٢ الأصل: الوزراء.
٣ الأصل: خوجه.

السلطان ووظيفته أن يمشي خلف جيش أروندولوگ

٥٢،١،٣ وثالثها أَبَا أُومَاگَ وهو قرين الكامنه في كل شيء وهو كناية عن فقرات ظهر السلطان ووظيفته أن يمشي خلف الجيوش بجيش لا يعقبه أحد وإن أعقب الجيش عدوّ فيه كفاية لدفعه والذبّ عن الجيش حتّى يدرك ويمدّ بالجيوش

٥٣،١،٣ ورابعها أباديما وهو أعظم ممّن تقدّم جلالة وأبّهة وعساكر[1] ويحكم على اثني عشر ملكًا من ملوك الفور وله إقليم واسع يسمّى تموركه وله جميع ما للسلطان من الشارات والأبّهة ما عدا النحاس فإنّ طبله دنقار فقط[2] وهو كناية عن ساعد السلطان اليمين ووظيفته أن يمشي هو وعساكره عن يمين السلطان

٥٤،١،٣ وخامسها منصب التكنياوي وهو قرين أباديما في كلّ شيء وهو كناية عن الساعد الأيسر للسلطان ويحكم على اثني عشر ملكًا أيضًا من ملوك الجهة الشماليّة وله إقليم واسع

٥٥،١،٣ وسادسها منصب الأب الشيخ وهو أعلى من جميع ما ذكر ولا فرق بينه وبين السلطان وأوامره تنفذ على جميع من ذكر وغيرهم وله إقطاعات جليلة وإقليم واسع وصاحب هذا المنصب مطلوق السيف يقتل بغير إذن وجميع أهل المملكة تحت يده وهو كناية عن عجيزة السلطان وقد تقدّم بعض ذلك في حديث الأب الشيخ محمّد كرّا

٥٦،١،٣ وسابعها مناصب الأمناء وهي أربعة كلّ واحد منهم يدعى أمينًا وأصحاب هذه المناصب لها أقطاع وعساكر وليس لها من شارات الملك شيء وهؤلاء الأربعة ملازمون لمجلس السلطان

٥٧،١،٣ وثامنها مناصب الكُورَايات وهي مناصب جليلة القدر إلّا أنّها أقلّ من مناصب الأمناء رتبة ومناصب الكورايات أربعة أيضًا

٥٨،١،٣ وتاسعها منصب سُومِنْدُقُلَه وصاحبه عظيم القدر ذو أبّهة عظيمة وأقطاع وأموال وافرة ويليه منصب كوركوا

٥٩،١،٣ وأعلى من هذين منصب وَرِّيْبَايَه وهو منصب جليل عظيم ومن[3] عادة ملوك الفور أنّ صاحب هذا المنصب لا يكون إلّا خصيًا لأنّه ينال منصب الأبوّة بعد موت الأب

[1] الأصل: عساكرا. [2] أضيف للسياق. [3] الأصل: من.

الشيخ وتقدّم لنا أنّ منصب الأب الشيخ لا يتولّاه إلّا خصيّ وصاحب هذا المنصب يحكم على جميع الخصيان الموكّلين بحريم السلطان وهو أيضاً صاحب غضب السلطان وتحت يده الحبس فكلّما غضب السلطان على إنسان أعطاه له فيسجنه في سجنه وتحت يده عساكر كثيرة ومعنى وريبايه بالفوراويّة باب الحريم وصاحب هذا المنصب تحت أمر الأب الشيخ ويليه منصب ملك وَرَّادَايْيَهْ ومعناه ملك باب الرجال ولكلّ بيت من بيوت الملوك والوزراء بابان أحدهما للرجال والثاني للنساء فباب الرجال يسمّى وراداييه وباب النساء يسمّى وريبايه

٦٠،١،٣ ويليهما منصب ملك العبيديّة وهو منصب جليل القدر صاحبه يحكم على جميع عبيد السلطان الخارجين عن داره الذين في البلاد بنسائهم وأولادهم وكذلك تحت يده مواشي السلطان وآلات السفر من خيم وقرب وغير ذلك

٦١،١،٣ ويليه منصب ملك القَوّارين أي المكّاسين وهو منصب جليل صاحبه يحكم على جميع المكّاسين وجميع الجلاّبة وله أقطاع وعساكر عظيمة

٦٢،١،٣ وأعلى منه منصب ملك الجبّايين وصاحبه في أبّهة عظيمة وملك كبير وهو ملك الجبّايين أي الذين يجبون الغلال من البلاد ومعنى الجباية أنّهم يأخذون عشر ما يخرج من الحبوب ويجعلونها في مطامير لاحتياج السلطان

٦٣،١،٣ وبعد ذلك ملوك كثيرة فحكّام الأقاليم عندهم يسمّون الشَراتِي واحده شَرْتَايْ وحكّام القبائل يسمّون دمالج واحده دُمُلُج ولكلّ من الشراتى عساكر كثيرة ولكلّ من الدمالج أعوان وهؤلاء خلاف السلاطين الصغار الذين ذكرناهم سابقاً

٦٤،١،٣ ثمّ اعلم أن جميع من ذكر من أرباب المناصب لا يعطيهم السلطان راتباً ولا مرتّب لهم عنده بل كلّ ذي منصب له أقطاع يأخذ منها أموالاً وما يأخذه من الأموال[١] يشترى به خيلاً وسلاحاً ودروعاً ولبوساً ويفرّقها في العساكر

٦٥،١،٣ وكيفيّة ما يأخذ هو أنّ زكاة الحبوب كلّها للسلطان كزكاة الماشية فلا ينالون منهما

١ الأصل: الامول.

شيئاً وإنّما لكلّ ملك منهم أفدنة كثيرة يزرعها دخناً[1] وذرة وسمساً وفولاً وقطناً تزرعها الرعايا وتحصدها وتدرسها له قهراً عليهم

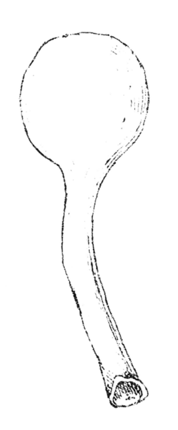
٣،١،٦٦ وله الهامل وهو الضالّ من رقيق وبقر وغنم وحمير يبيعونها له ويأخذ ثمنها وله التقادم وهي الهدايا التي يقدّمونها له حين التولية والقدوم على البلاد وله الخَطِيّة وهي في عرفهم أموال يدفعها الجاني للحاكم ويسمّى عندهم بالحكم إذا شجّ إنسان آخر يؤخذ من الشاجّ مال ويدفع للحاكم وإذا أحبل رجل امرأة في الحرام يؤخذ من كلّ منهما مال على قدر حاليهما أيضاً وله الدم وهو في عرفهم إذا قُتل قتيل ووُدِيَ يشارك الحاكم أقارب القتيل في الدية سواء كانت دية العمد أو دية الخطأ وذلك خلاف المظالم التي يأخذونها بغير حقّ وخلاف الأعمال الشاقّة التي يكلّفونهم بها لأنّهم يبنون لهم بيوتهم ويسخّرونهم في جميع أعمالهم

٣،١،٦٧ ومن مناصب الفور ملك الموجيه وإنّما أخّرناه لطول الكلام عليه وغرابته وغرابة المنصب وغرابة أفعال أهله وهو عندهم أدنى المناصب وأقلّها رتبة لكنّ الكلام عليه يحتاج إلى تمهيد وهو أنّ صاحب الحكمة الأزليّة والسلطنة الأبديّة واهب العقل ومانح الفضل وهب لكلّ إنسان عقلاً يميّز به الخير ليتبعه من المكروه ليحذره وأودع في كلّ إنسان حبّ رأى نفسه وعقله بحيث يرى أنّ عقله أتمّ من عقل غيره ورأيه أحسن من رأى غيره إلّا من بصره الله بعيوبه وعلّمه عجز نفسه عن تدبير جلب مصالحها ودفع مضارّها

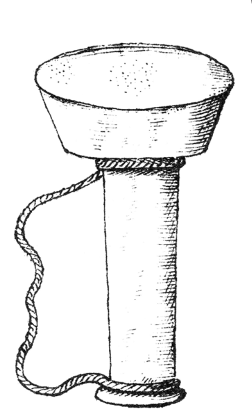
٣،١،٦٨ وإذا تقرّر ذلك فنقول من طبيعة بلاد الفور الميل إلى اللّهو والاستهزاء واللعب والطرب يستفزّهم أدنى مطرب فتراهم لا تخلو أوقاتهم عن مطرب ملوكاً كانوا أو سوقة ولذلك استحضروا جميع ما يمكنهم من آلات الطرب فتجد كلّ ملك له غلمان صغار حسان الأصوات وهم المسمّون كوركوا ومعهم صفافير يصفّرون بها صفيراً هو في نفس الأمر غناء مع حسن أصوات الصفافير وحسن أصوات الغلمان فيسمع من جميع ذلك صوت حسن

---

[1] الأصل: ذخنا.



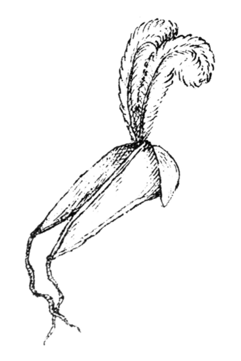
٣،١،٦٩ وكيفيّة ذلك أنّ الملك إن كان عنده من الغلمان عشرة مثلاً يكون منهم أرباب الصفافير اثنين أو ثلاثة والرابع بيده قرعة جافّة خاوية الباطن مستطيلة أحد طرفيها غليظ والطرف الثاني رقيق يقبض عليه باليد صورتها هكذا فيجعلون فيها بعض حصباء ويقبضها الغلام بشرط أن يكون فمها منسدًّا بالقار ويهزّها فيسمع للحصى فيها صوت يوفّق على أصوات الصفافير والستّة الباقون يغنّون وربّما أخرج السلطان بعض جواريه مزيّنات حاملات لحومها ويُجعل في خوابي ويُترك ستّة أيّام من الأطعمة للسلطان ماشيات خلفه صحبة الغلمان فيغنّين مع الغلمان والصفافير وربّما زادوا معهما طبلاً من خشب مستطيل كالطبلة المسمّاة في عرفمصر بالدرابّكة ويسمّى عندهم تِجَگَل وصورته هكذا



وله علاّقة كما في الصورة فيدخل الضارب يده من العلاّقة ويضع العلاّقة على كتفه ويصير الطبل تحت إبطه ويضرب عليه بكلتا يديه نقرات محكمة على صوت الصفافير وما يغنّونه يكون بلسان الفور ولهم معلّمون يعلّمونهم التصفير والغناء والضرب على الطبل المذكور

٣،١،٧٠ والمشاة الذين يمشون أمامه وبين يديه يغنّون غناء وحدهم وكيفيّة ذلك أنّهم يكونوا كراديس كراديس يغنّي من كلّ كردوس واحد والباقي يردّ عليه بصوت عالٍ ولذلك إذا ركب السلطان تضرب الطبول وتغنّي جميع الناس مُشاةً ورُكبانًا فيسمع لذلك ضجّة عظيمة مع أصوات الصفافير وغناء الغلمان يخشى الإنسان على سمعه منه لقوّته وهذه الصفافير تسمّى طير الصعيد وذلك أنّ ببلاد صعيدهم طيور لها أصوات حسان فاخترعوا هذه الصفافير على شكل أصواتها

وينضمّ لتلك الأصوات أصوات الموجيه وهذا اللفظ في لغة الفور يطلق على الواحد والجمع وهم طائفة عظيمة لها ملك مخصوص وهو في عرف الفور كالخلبوص أو المسخرة في عرف أهل مصر أو كالسوتري في عرف الترك لكنّ الموجيه يخالف ما ذكر لأنّه يتولّى قتل من يأمر السلطان بقتله وصفة الموجيه أنّ يلبس على رأسه عصابة فيها صفيحة من حديد مستديرة الشكل مع التجويف وفي العصابة المذكورة قطعة من حديد أيضاً كالمسمار معلّقة بخيط محرّرة على التجويف الذي في الصفيحة بحيث إذا هزّ رأسه تضرب التجويف المذكور ويسمع لها رنّة عليه وأعلى منهما في العصابة ريشة أو ريشتان من ريش النعام وصورتها هكذا



وعلى الطرطور ودع وخرز معلّق أيضاً وفي رجله اليمنى خلخالان من الحديد وفي اليسرى خلخال واحد وتحت إبطه جراب صغير مستطيل إذا حلّ عصابته وطرطوره يضعهما فيه وبيده عصا معوّج أعلاها هكذا معلّق فيه جلاجل فيقف بين يدي السلطان من الموجيه اثنان أو ثلاثة إن كان السلطان في ديوانه وإن كان في سفر أو قنص مشى أمامه أربعة أو خمسة وكلّ منهم يغنّي ويرقص ويقول كلاماً مضحكاً يضحك منه سامعه ويحاكي نباح الكلب وصوت الهرّ وغناؤه بكلام الفور لا بالعربيّ وليس في رقصه تكسّر بل يهزّ رأسه يمنة ويسرة ويضرب إحدى ساقيه بالأخرى فترنّ الحديدة التي في العصابة على رأسه وترنّ الخلخال التي في ساقيه وإذا كان السلطان مسافرًا أو قانصاً لا يغنّون بل يصيحون جميعاً صيحة واحدة بقوّة أصواتهم يقولون يا يا وهكذا مادام السلطان راكبًا ٧١،١،٣

ولا خصوصيّة في ذلك للسلطان بل كل ملك من ملوك الفور الكبار له موجيه يقف أمامه في ديوانه ويمشي قدّامه في سفره والموجيه لا يخشون بأس السلطان ٧٢،١،٣

ولا غضبه ولهم جراءة عظيمة على السلطان فمن دونه لا يكتمون السلطان أمرًا بحيث أنّهم إذا سمعوا أمرًا فظيعًا يقولونه في محفله وينسبون الكلام لقائله حقيرًا كان أو جليلًا لا يخافون لومة لائم وإذا أراد السلطان إشاعة أمر أو إعلان حكم أمر الموجيه أن ينادي به فينادي به الموجيه بعد المغرب وقبل العشاء نداء يسمعه الخاصّ والعامّ

٧٣،١،٣ ومما اتّفق أنّ السلطان عبد الرحمٰن كان يحبّ العلماء ويكثر الجلوس معهم في ليله ونهاره وقلّما يجلس مجلسًا إلّا ومعه عالم أو اثنان فاغتاظ الوزراء منه وقالوا كيف يتركنا ويجلس مع هؤلاء لكن إن مات هذا السلطان لا نولّي علينا بعده رجلًا يقرأ أبدًا فسمع ذلك أحد الموجيه فأمهلهم حتّى جلس السلطان في ديوانه وحضر أولئك الوزراء فجاء الموجيه وقال بلسان الفور كلامًا معناه نحن ما بقينا نولّي علينا من يعرف القراءة والكتابة فالتفت إليه السلطان وقال لِمَ ذلك قال لأنّك تترك الوزراء وتجلس مع العلماء فاغتاظ السلطان لذلك ونظر إليه نظرة الغضب فخاف الموجيه أن يسطو عليه فقال ما ذنبي أنا سمعت هؤلاء وأشار إلى الوزراء يقولون ذلك فقلته فالتفت السلطان إليهم ووبّخهم على ذلك وأراد القبض عليهم فما خلصوا منه إلّا بجهد ومشقّة قلت والجاهلون لأهل العلم أعداء

٧٤،١،٣ ومن ذلك ما حكاه لي بعض الثقات بدارفور أن السلطان تيراب السالف الذكر صنع وليمة لأمر نسيته وحين حضر الطعام تتبّعه لينظر أيّ الطعام أحسن فجاء إلى طعام صنعته إياكري كنانة وكشف عنه فأعجبه فأمر به للعلماء فأبت عليه وقالت أأنا عندك بهذه المنزلة تعطي طعامي للمشايخ وطعام غيري للوزراء والملوك[1] فقال إنّما أمرت به للمشايخ لحسنه ولتحصل لك بركتهم فقالت دع طعامي تأكله الوزراء والملوك ولا حاجة لي ببركتهم فقال لا يأكله غير العلماء فقالت لا وحياتك لا تأكله العلماء وغلبت عليه حتّى أرسله للملوك واختار من طعام غيرها للعلماء

---

١ المكوك.

٣،١،٧٥ وطائفة الموجيه من أفقر أهل دارفور لأنّهم ليس لهم حرفة إلّا السؤال فإنّهم دائمًا يقصدون الأمراء ويتكفّفون الناس وتخاف الأمراء منهم ويكرمونهم لأنّهم لا يكتمون حديثًا إن أحسن إليهم أحد أثنوا عليه وأشاعوا الذكر بكرمه وإن أحرمهم أحد ذمّوه وأشاعوا ذمّه فهم في ذلك كالشعراء من أعطاهم مدحوه ومن منعهم هجوه

٣،١،٧٦ ومن مناصب الفور منصب إيا كري وقد أسلفنا ذكره ومنصب الحبّوبات وقد ذكرناه أيضًا وإن كان للسلطان المتولّي أم فلها منصب وإن كان له[١] جدّة فلها منصب أيضًا لكن هذان المنصبان ليسا مقرّرين بل يطرآن عند وجودهما ولقد رأيت أمّ السلطان محمّد فضل وهي جارية وخشاء لو بيعت في دارفور لما كانت تساوي عشرة من الفرانسا ورأيت جدّته وهي عجوز وخشاء من أقبح ما يرى في عجائز السودان وكانت ناقصة العقل ومن نقص عقلها كانت تجلس على كرسيّ وتحملها الرجال على أعناقهم[٢] للسفر البعيد ومعها من العساكر خلق كثير ووشى إليها بعض الناس بأنّ أهل دارفور يقولون إنّ هذه الخادم قد طغت وبغت فحين سمعت ذلك جلست في ديوانها وأحضرت جميع أتباعها وقالت أنا الحادم الحادم جاب الفضّة وجاب الفضّة الذهب وقولها أنا الحادم بالحاء المهملة ومرادها الخادم بالمعجمة إلّا أنّها لا تقدر على النطق بالخاء المعجمة لعجمتها وهناك مناصب أخر أعرضنا عن ذكرها لحقارتها

الفصل الرابع في كيفيّة مجلس السلطان[٣]

٣،١،٧٧ وأمّا كيفيّة مجلس السلطان فاعلم أنّ بيت سلطان الفور في بلده المسمّاة بالفاشر والناس حوله ولهذا جعل لبيته بابان أحدهما وهو الأعظم هو المسمّى وَرِّيدَيَا معناه باب الرجال والثاني هو المسمى وَرِّيبَايَا ومعناه باب النساء وفي كلّ منهما له مجلس فمجلس وريديا هو الديوان الأكبر وهو بعد أن يدخل الداخل من الباب الأوّل وهذا المجلس واسع ولا يجلس فيه السلطان إلّا في الأيّام العظيمة أو للأحوال المهمّة

١ أضيف للسياق. ٢ الأصل: عناقهم. ٣ الفصل الرابع في كيفية مجلس السلطان – أضيف للسياق.

٧٨،١،٣ وقد نذكر أنّ بناء الفور كلّه بقصب الدخن أو المَرَهَبِيب ومحلّ الديوان يسمّى لِقّدابَة أو راكوبة وصورتها هي أن يؤتى بأخشاب ملساء طويلة في آخر كلّ خشبة شعبتان هكذا فيحفرون في الأرض حفرا متساوية العمق ويجعلون الأخشاب متساوية الطول ويجعلون الحفر سطوراً متقابلة لا يختلّ سطر منها عن الآخر بحيث أنّها تكون هكذا لكن تكون كلّها على نمط واحد وخطّ واحد فيدخلون في كلّ حفرة خشبة من الأخشاب ويجعلون شعاب كلّ صفّ متّجهة لجهة واحدة ويضعون عليها خشبة طويلة تسمّى بَلْدَايَا أي يضعونها بين شعاب الصفّ فإذا كمل على تلك الهيئة يأتون بفروع رفيعة تسمّى مطارق فيجمعون منها كلّ أربعة أو خمسة سواء ويربطونها بلحاء الشجر حتّى تصير حزمة ويوصلونها بغيرها وهكذا حتّى تصير طول اللقدابة المذكورة ويجعلون من الفروع جملة على هذا النمط ويرتّبونها كلّها مربّعاً واحداً مستطيلاً في وسطه مربّعات فتكون صورتها هكذا ويضعونها فوق البلدايات المذكورة ثمّ يضعون البوص عليها وهو مجعول حزماً ويربطونها مع الفروع باللحاء فيتكوّن من ذلك سقف جميل بالنسبة لبنائهم

٧٩،١،٣ ففي وريديا يكون هذا المحلّ واسعاً وعلى هذه الصفة علا[1] السقف بحيث يمرّ تحته الراكب على الهجين ولا يمسّ السقف رأسه وكان قبل ذلك داني السقف لا يمرّ تحته إلّا الفارس فاتّفق أن حضر

---

١ الأصل: عالا.

عند السلطان رجلان ممّن أتقن ركوب الإبل وادّعى كلّ واحد منهما أنّه أفرس من صاحبه في ركوب الإبل وتشاجرا ثمّ اتّفق رأيهما على أن يركبا ويمرّا ببعيريهما من تحت اللقدابة فتراهنا على ذلك وخرج السلطان والناس من اللقدابة وركبا وجاءا راكضين فلمّا وصلا إلى اللقدابة أحدهما نقز فصار على ظهر اللقدابة وترك بعيره وجرى مسرعاً فصادف بعيره وهو خارج من تحت السقف فركبه ومرّ سريعاً لم يعقه شيء والثاني حين وصل إلى اللقدابة مال إلى جانب بعيره ومسكه بيديه حتّى خرج من تحت اللقدابة فكلّ منهما جاء بشيء غريب فأحسن إليهما السلطان واعترف الناس لهما بصناعة الركوب وأنّهما كَرَقَدَيْ سماء وشذّ بعض فادّعى أنّ الذي ترك بعيره وجرى على ظهر اللقدابة أصنع وشذّ آخرون فادّعوا أنّ الذي مال في جنب البعير أصنع وحكم له السلطان ومن ذلك الوقت زيد في علوّ اللقدابة

٨٠،١،٣ ثمّ إن السلطان إن جلس في هذا الديوان يجلس في وسطه ولذلك بنوا له فيه محلاًّ عالياً لكن مركزه أعلى من جانبيه هكذا فالمحلّ العالي المتوسّط هو محلّ جلوس السلطان والذي أقلّ منه من جهة اليمين هو محلّ جلوس العلماء والذي عن يساره هو محلّ جلوس الأشراف والفقهاء وعظماء الناس وأمامه رحبة واسعة فإذا أراد السلطان الجلوس لديوان عامّ أو ملاقاة بعض رسل الملوك أو يوم فرح وسرور زين محلّ جلوسه بالزردخانات والمقصّبات ووضعوا في المحلّ المذكور كرسيّاً وعليه مرتبة من الحرير فجلس السلطان في أبّهته وجلس العلماء والفقهاء والأشراف حوله ووقف وزيراه بين يديه وهما المسمّيان بالأمينين ووقف رئيس تراجمته أمامه قريباً منه ووقف التراجمة الستّة أمام الترجمان الأوّل بين كل ترجمانين مسافة قليلة بحيث كلّ ترجمان يسمع ممّن يليه سمعاً جيّداً ووقف الكوركوا بالصفافير خلفه وصاحب الدنقار معهم ووقف عبيد السلطان وأصحاب سجنه وغضبه وراء الناس وجلس الناس الباقون

كلّ واحد في المحلّ اللائق به ووقف ملك الموجيه قريبا من الترجمان الأوّل وقد انتظم المجلس وقد رسمنا كيفيّته في باب عوائد الفور فراجعه إن شئت وأمّا إن جلس السلطان في وريبايا فإنّ مجلسه يكون مختصرا وهو أشبه بمجلس سرّ لأنّ اللقدابة التي يجلس فيها صغيرة وحينئذ لا يقف أمام السلطان إلّا ترجمان واحد وموجيه واحد أو اثنان وإن كثروا فثلاثة والسلطان قد يكون جالساً وأكثر ما يكون جالساً بالليل

٨١،١،٣ وقد يكون راكبًا وأكثر ما يكون ذلك بالنهار وإن جلس ففي محلّ عال لكنّه غير مزيّن ولا فرش له حينئذ إلّا سجّادة واحدة وبإزائها مخدّة وقد ذكرنا سابقاً أنّ من العوائد أنّ السلطان لا يسلّم عليه إلّا بدوكّاي دونكا وأنّه إذا بصق مسح التراب الذي بصق عليه في الحال وإذا تنحنح قالوا صوتاً كصوت الوزغ وبيّنّاه هناك أتمّ تبيين فلا فائدة في الإعادة.

٨٢،١،٣ هذه كيفيّة مجلس سلطان الفور وأمّا كيفيّة مجلس سلطان الواداي فتختلف فإنّنا نذكر أن الواداي دائمًا يحجبون السلطان عن أعين الناس ويشدّدون في ذلك فلا يتمكّن أحد من رؤيته جيّداً ولا تجتمع عليه الملوك كما تجتمع على سلطان الفور لأنّهم يرون أن عدم اجتماع الناس عليه أَهْيَب له وأنفذ لكلمته ولمّا كان الأمر كذلك وخيفة[١] من وقوع ظلم وإجحاف رسم أن يجلس السلطان للمظالم في يوم الاثنين والخميس وجعلوا لجلوسه ذلك كيفيّة مخصوصة تقام فيها نواميس الملك وينزجر الظالم وينتصف المظلوم ورتّبوا له مجلساً بحيث يحصل المقصود من غير اختلاط بالعالم

٨٣،١،٣ وسنذكر أن بناء الواداي قد يخالف بناء الفور في أنّ الفور لا يبنون باللَّبِن إلّا قليلاً وأنّ الواداي أكثر بنائهم باللبن فجعلوا المجلس المعدّ لذلك عاليًا يجلس فيه السلطان مع بعض خواصّه في يوم الاثنين والخميس ولا تراه الناس وإنّما يعرف جلوسه فيه براية يبرزونها من طاق في المجلس الذي هو فيه وبصوت البَرَدية فمهما برزت الراية وضربت البرديّة وهي طبل كالكوبة المسمّاة في مصر الدربّكة لكن صوتها عالٍ شديد فيسمع الكبرتو فيبوّقون بالبوقات ويضربون بالتجل فتسمع الناس

---

١ الاصل: خيف.

خصوصاً وأنّ من كانت له دعوى[١] يترقّب ذلك اليوم فيجلسون كلّهم في الفاشر وإنّ الكَمَاكِلَة دائمًا جالسون في الفاشر لسماع الدعاوى وأنّ أرباب المناصب والمراتب يترقّبون في ذلك اليوم جلوس السلطان في الديوان فتحضر التراجمة المسمّون بخَشْم الكلام والعَقَدَة والملوك على طبقاتهم ويحضر القاضي وأشراف الناس والعلماء فيجلسون في ظلّ شجر في الفاشر يسمّى ذلك الشجر بالسَيَال فمتى أخرجت الراية من الطاق وضربت البرديّة دخل خشم الكلام ورقي من سلّم في داخل البيت وخرج من طاق لمصطبة معدّة لجلوسه بحيث يصير قريباً بمسمع من السلطان ووقف هناك واصطفّت العساكر وجلس القاضي والعلماء في مراتبهم وكذلك الأشراف والتجّار وجاء من له دعوى[٢] رفعها إلى السلطان ذلك بعد أن يقول خشم الكلام السلطان يسلّم عليكم يأهل الفاشر السلطان يسلّم عليك يا قاضي السلطان يسلّم عليكم يا علماء وهكذا كما يفعل في يوم الجمعة

٨٤،١،٣ ولنرجع إلى ما نحن فيه من ذكر الفور[٣] فنذكر نبذة في صفات تندلتي، فاشر السلطان، وفي بيته وصفة كلّ منهما حسب الإمكان

٨٥،١،٣ فنقول أمّا تندلتي[٤] فهي الآن قاعدة مملكة الفور وأوّل من نزلها وخطّها من الملوك السلطان عبد الرحمن سنة ١٢٠٦ من الهجرة وأمّا صفة أرضها فرمليّة كأحد الأقواز يشقّها وادٍ بالعرض وهذا الوادي رجل من الوادي الأكبر المسمّى الكوع ففي أيّام الخريف يمتلئ ذلك الوادي ماء فلا يعبره عابر إلّا من محلّ بعيد من جهة المشرق وفي وقت نضوب المياه وذلك تارة في آخر الشتاء وتارة في أوّل الصيف يحفرون فيه الآبار ومنها تشرب أهل الفاشر كلّها والسلطان لخوفه من السحر يشرب منه تارة وتارة يأتون له بماء من جديد السيل لأنّه قريب من تندلتي من جهة الشرق بنحو فرسخ

٨٦،١،٣ وبناء الفور كلّه من قصب الدخن وحيطان بيوتهم الخارجيّة كلّها بالشوك ويسمّون الحائط الخارجيّ زريبة والحائط الداخليّ صَرِيفاً والبيوت أعني المساكن كلّها على هيئة

---

١ الأصل:دعوة. ٢ الأصل:دعوة. ٣ ما نحن فيه من ذكر الفور – الأصل: ما نحن بذكر الفور. ٤ أما تندلتي – الأصل: وتندلتي.



قبّة الخيمة فيكون الصريف لها كالطُرْطُك لكنّ البيوت أصناف في البناء فمنها[1] بيوت المساكين وهي مساكن عندهم تسمّى بالبيوت وهي من قصب الدخن وبيوت الأمراء والملوك وهي مبنيّة من المَرْهَبِيْب كما سنذكر ذلك ومنها ما يسمّى سُكّاية ومنها ما يسمَى تُكُلْتي ومنها ما يسمّى كُرُنْك فأمّا السكّاية فصورتها هكذا فهي كقبّة الخيمة إلّا أنّها طويلة رفيعة من أعلى ويأتون ببيض النعام فيثقبونه كلّ بيضة ثقبين من محوريها ويدخلون في الثقب عودا فيجعلون في العود ثلاث بيضات أو أربعاً بينها كرة من فَخّار أحمر إمّا أسفل دُلُّكْ أو أسفل إبريق من صناعة كِيْرِي وينصبونه على قمّة القبّة وأمّا التكلتي فهو بيت شكله هكذا من أعلى نصف كرة وقائم على دُرْزُوِيتَيْنِ وأمّا الكرنك فهو مثله إلّا أنّه قائم على أربع درزويات والسلطان



يضع بيض النعام على سكّاتيّة وتكاليّة وكرانكة ويكسو أعلاها ثياباً حمراء وبيضاء هكذا [رسم] ليتميّز بها عن غيره وأسفل دائرة سكّايات السلطان والإيا كري والسراري وكبار الدولة مبنيّ من الطين وأمّا أعلاها فمن المرهبيب وهو عزيز الوجود وهذه الدائرة تسمّى دُرْدُرْ قطره كقطر الخيمة المعتادة

٨٧،١،٣ واعلم أنّ أهل الفاشر منقسمون إلى قسمين أحدهما أهل وريديا والثاني أهل وربايا وبيت السلطان بينهما فأهل وريديا يسكنون جهة باب الرجال المسمّى بوريديا وأهل وربايا يسكنون جهة الباب المسمّى وربايا فزريبة السلطان موضوعة على شفير الوادي في العلوّ الكائن هناك فهي شمال الوادي وليس بينها وبينه إلّا خطوات قليلة وممتدّة إلى جهة الشمال مسافة بعيدة وباب الرجال يفتح جهة الشمال أمام الفضاء

[1] أضيف للسياق.

المسمّى بالفاشر وهو متّسع عظيم يكاد أن يكون ثلثي دائرة

٣،١،٨٨ ونذكر الآن صفة زريبة السلطان وبيوته أمّا الزريبة فهي من شوك الكِتِر والحَشَاب ثلاثة صفوف بين كلّ صفّين جذوع من خشب فيها بعض تفاريع محفور لها في الأرض حفر عميقة والشوك من أمامها وخلفها كالبنيان المرصوص علوّه أطول من قامة والجذوع بارزة منه وفي كلّ سنة يجدَّد ما حصل فيه خلل وبين الشوك وبين المساكن مسافة نحو أربعين خطوة

٣،١،٨٩ ولوريديا أربعة أبواب كلّ باب عليه بوّابون يتناوبون حفظه والأبواب ليست كالأبواب المعهودة أعني أنّها من ألواح الخشب بل هي أعواد مربَّطة بالقدّ النيء أعني غير المدبوغ على هيئة شِباك هكذا وقد جُعِلَ فيه سلسلة من حديد ولكلّ[١] فجوةِ بابٍ مجعول في حافتها أعواد كثيرة من خشب فتجعل السلسلة في عود منها ويدخل في الحلقتين قفل كأقفال الصناديق ومسكن البوّابين قريب من الباب

٣،١،٩٠ فإذا دخل الداخل في وريدايا من أوّل باب يجد داخل الباب فضاء واسعاً وفي آخره اللقدابة الكبرى التي هي ديوان السلطان فتكون على يسار الداخل وقد ذكرناها سابقاً ورسمنا صورتها فلا إعادة وعلى يمين الداخل محلّ الكورايات وهم في عرفنا سوّاس الخيل والأصابل قريبة منهم وهي لقدابة طويلة قليلة العرض مربوط فيها خيول الملك وبعد الأصابل بيت النحاس وبيوت خدمته قريبة منه والباب الثاني لسومندقلة والباب الثالث للكوركوا والباب الرابع للطواشية وبين كلّ بابين فضاء وصريف حاجز وعليه مركّب الباب وأيضاً داخل الباب الثاني لقدابة أخرى يجلس في هذه اللقدابة السلطان مع خواصّه وداخل الباب الثالث لقدابة ثالثة صغيرة يجلس فيها السلطان مع خواصّ خواصّه وداخل الباب الرابع الحرم والجوار ومحلّ سكنى السلطان كما سنبيّنه بالرسم إن شاء الله

---

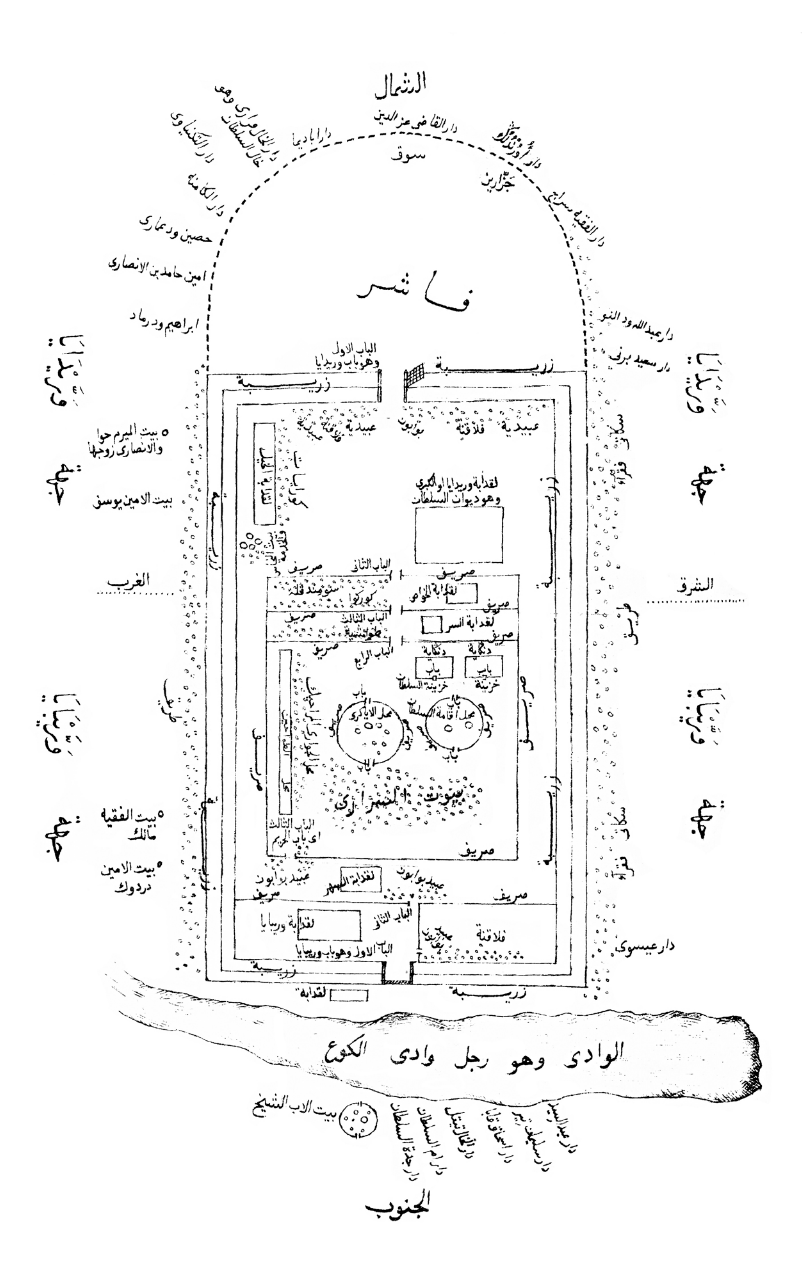
١ الأصل: وكل. ٢

٩١،١،٣ وأمّا وريبايا فهو باب يدخل منه إلى فضاء طوله أكثر من عرضه وفي آخره لقدابة كبيرة تكون مثل ثلث اللقدابة الكبرى التي في وريدايا وهذه اللقدابة عن يسار الداخل وعن يمينه من بُعد أبنيّة للفلاقنة وللبوّابين وداخل الباب الثاني لقدابة أخرى أصغر منها يكون فيها السلطان بالليل مع من يحبّ من خواصّه وعن يسار هذه اللقدابة الباب الثالث وهو كأنّه في ركن [. . .][1] وقد رسمنا هنا صورة الزريبة السلطانيّة والبيوت كما ترى في الصحيفة الآتية بعد هذه لأنّك تعرف ما ذكرناه في ذلك مفصّلا وتكون كأنّك قد شاهدت ذلك عياناً وهذه الصورة فيها صفة دار السلطان في الجملة

٩٢،١،٣ واعلم أنّ أهل الفاشر سواء كانوا أهل وريدايا أو أهل وريبايا كلّ منهم يحافظ على محلّ سكناه خلفاً عن سلف فكلّ من يتولّى منصباً يبني بيته في محلّ صاحب المنصب الأوّل أو قريباً[2] منه فمن كان من أهل وريديا لا يسكن في وريبايا وكذلك العكس ولا خصوصيّة للإقامة في ذلك لأنّهم يحافظون على أماكنهم ولو في السفر فلو انتقل السلطان بعساكره مسافرًا متى ما نصبت خيمته في بقعة نصب العساكر حسب ذلك كلّ منهم في محلّه المعلوم بحيث لا يكون بين المدينة في الإقامة وبين المنزلة في السفر فرق إلّا كبر المنازل واتّساع البيوت وأمّا الجهات فكلّ منهم يعرف محلّ البعض فكأنّهم في المدينة ومن ذلك أنّ السلطان يأتي بالليل إلى المنزلة فيعرف محلّ سكناه من غير سؤال وكذا أتباعه كلّ وزير وأمير يعرف منزله وما ذاك إلّا من المحافظة على المنازل وفي ذلك فوائد منها أنّه لو أرسل السلطان لإنسان يطلبه بالليل لا يسأل المرسل أحدا بل يعرف أنّ منزلة فلان في الجهة الفلانيّة فيذهب إليه من غير سؤال أحد وكذا لو أرسل بعض الوزراء أو الملوك لبعضهم حيث إنّ المنازل محفوظة لهم لا يتعب رسلهم بل كلّ منهم يعرف منزل صاحبه وهذا من أغرب ما يكون

---

١ الأصل ناقص فانظر الترجمة الأنجليزية التي تعتمد على الترجمة الفرنساوية. ٢ الأصل: قريب.


الشمال
سوق
فاشر
الغرب
الشرق
الجنوب
الوادي وهو رجل وادي الكوع

الفصل الخامس في ملابس ملوك الفور[1]

٩٣،١،٣ وأمّا زيّهم في الملابس فاعلم أنّ بلادهم في الحرارة بمكان عظيم ولشدّة حرّها لا يمكنهم أن يلبسوا إلّا الثياب الخفيفة لكن يتفاوتون في ذلك فالأغنياء يلبسون الثياب الرفيعة جدًّا بيضاء كانت أو سوداء وأمّا الفقراء فإنّهم يلبسون ثياب خشنة وأمّا السلطان والوزراء والملوك فإنّ كلّ واحد منهم يلبس ثوبين كالأقمصة رفيعين جدًّا إمّا ممّا يجلب لهم من مصر أو ممّا يعمل في دارفور لكن إن كانا من البيض فإنّهما يكونان في غاية من البياض والنظافة وإن كانا من السود يكونان نظيفين أيضاً

٩٤،١،٣ ولا يتميّز السلطان عن غيره في ذلك إلّا بما يلبسه زيادة على القميصين وذلك أنّه يضع على رأسه كشميرًا وهم لا يمكنهم ذلك والسلطان يتلثّم بشاش أبيض يضع على رأسه منه طيّات وعلى فمه وأنفه لثام منه وعلى جبينه أيضاً بحيث لا يظهر منه إلّا الأحداق لكن اللثام يشارك فيه أوروندلگ والكامنه فإنّهما يتلثّمان كالسلطان وكذلك السلاطين الصغار يتلثّمون أيضاً لكنّه يتميّز بالسيف المذهّب والحجاب المذهّب وبالمظلّة إن كان راكبا وبالريش وبالسروج المذهّبة والركاب وعدّة الجواد التي لا يمكن سواه أن يجعلها على جواده وإن كان في محلّ جلوسه لا يتلثّم إلّا هو وحده ومن ذُكِرَ لا يمكنهم أن يتلثّموا بحضرته إلّا إن كانوا راكبين معه أو كان كلّ منهم في محلّ حكمه وديوانه

٩٥،١،٣ وأنواع ما تلبسه أهل دارفور الأغنياء من الملابس من المجلوب الشاش والبَفْت الإنجليزيّ والثياب الحرير في يوم المهرجان كيوم العيد ويوم تجليد النحاس ولهم ملاحف يتلفّعون بها وهي كالملاءة التي يتلفّع بها في إقليم مصر وهي إمّا من الألاجة أو من الشاش لكن يكون لها هُدّبٌ طويل وهذه الملحفة يُتوشّح بها أو توضع على الصدر والأكتاف وإذا حضر لابسها أمام السلطان يشدّ بها وسطه وذلك من كمال الأدب عندهم

[1] الفصل الخامس في ملابس ملوك الفور – أضيف للسياق

٩٦،١،٣ وإن كان من غير المجلوب فالكَلْكَف وهو ثوب من قطن غزله رفيع جدًّا طوله عشرون ذراعًا وعرضه ذراع واحد ومتوسّطهم يلبس من المجلوب الشَوْتَر وهو كناية عن العَبِك المصبوغ أزرق ويجلب لهم بعض قماش من المغرب أي من بلاد الوادا ي والبرنو والباقرمه يسمّى التِيكَوْ والقدانيّ لكنّها غير عريضة لأنّ عرض الشقّة قيراطان لا غير فيتعبون في خياطتها والتيكو والقداني المذكوران سود لكن القداني مع أنّه أسود يرى في لونه بعض حمرة فهو كلون رقاب الحمام السود ومن عجيب ما رأيته في ذلك أنّ لابسه إذا تنخّم خرجت النخامة من صدره سوداء وذلك أنّ النيلة تدخل في مسامّ جسمه حتّى تؤثّر في صدره وبالجملة فالغنيّ سلطانًا كان أو وزيرًا أو ملكًا يلبس ثوبين وسراويل وعلى رأسه طربوش وباقي الناس لا يلبسون إلّا ثوبًا واحدًا وسراويل وملحفة إن تكن وعلى رأسه طاقيّة بيضاء أو سوداء وأكثرهم يكون رأسه عريانًا

٩٧،١،٣ وأمّا نساؤهم فإنّهنّ يلبسن مئزرًا في أوساطهنّ يسمّى في عرفهم الفَرْدة ثمّ الأبكار يلبسن فوطة صغيرة على صدورهنّ يقال لها الدُرّاعة وهي لبنات الأغنياء تكون من حرير أو ألاجة أو بفت ولبنات الفقراء تكون من التَكاكي ويربطن في أوساطهنّ أشرطة[1] يجعلن فيها الكنافيس والكُنْفوس عندهنّ عبارة عن منسوج عرضه أربع قراريط وطوله نحو من ثلاثة أذرع تأخذه الواحدة منهنّ وتدخل طرفه من الأمام في الشريط التي في وسطها وتفوّت الطرف الآخر بين فخذيها وتشبكه في الشريط من الخلف وهو كالحفاظ عند نساء المدن في أيّام الحيض إلّا أنّ الكنفوس عند نساء الفور لا يلبسنه لأجل الحيض بل يلبسنه مطلقًا وإذا تزوّجت البكر لبست إزارًا كبيرًا يسمّى في عرفهم الثوب وهو عبارة عن ملاءة تلتفّ فيها المرأة ثمّ هو على قدر مقامات الناس في الغنى والفقر فنساء الفقراء أثوابهنّ من التكاكي والأغنياء من الشوتر أو الكلكف أو التيكو أو القداني أو البفت ولا يكون من حرير ولا من ألاجة

٩٨،١،٣ وأمّا حليّ النساء عندهم فإنّهنّ يلبسن الخزام وهو للأغنياء من الذهب وللمتوسّطين من الفضة وللفقراء من النحاس وهو على نوعين حلقيّ وشوكيّ فالحلقيّ عبارة عن

---

١ الأصل: الشرطة.

حلقة فيها ثلم وهذا الثلم تجعل فيه مرجانة وهذه صورته والشوكيّ
عبارة عن حلقة نصفها غليظ ونصفها رفيع كالشوكة يجعلن فيه أربع
مرجانات بينها حبّة من ذهب أو ثلاث حبّات إحداها ذهب
ورأس طرفه الغليظ كحبّة مربّعة الأسطحة وصورته هكذا

٩٩،١،٣ ويلبسن في آذانهنّ أخراصاً كباراً من فضّة يزن الخرص منهنّ
نصف رطل ولئلّا يضرّ آذانهنّ يربطنه بعلّاقة في رؤوسهنّ تحمل ثقله عن الأذن وهو
عبارة عن حلقة واسعة أحد طرفيها شوكيّ والآخر كالحبّة المربّعة الأسطحة كالخزام
ومن لم تجد خزاماً ولا خرصاً تسدّ ثقب أنفها بمرجانة أو حبّة خرز مستطيلة وتسدّ
ثقب أذنيها بقطعة من لبّ بوص الدخن أو الذرة أو قطعة من خشب

١٠٠،١،٣ ويجعلن في أجيادهنّ عقوداً من أنواع الخرز كالمنصوص وهو عندهم عبارة عن
خرز أصفر من كهرباء وهو نوعان كرويّ ومفرطح وتختلف أفراد كلّ منهما في الصغر
والكبر والريش وهو عندهم عبارة عن خرز مستطيل أبيض فيه خطوط حلقيّة
أبيض منه وخطوط سمر وهو على أنواع أحسنها المسمّى عندهم بالسُومِيت وكلّه جامد
صلب كأنّه من رخام. يجلب من الهند وهو خرز رفيع مستطيل كثير الخطوط فيه
سمرة. والعقيق وهو عبارة عن خرز أحمر كرويّ كلّه يتفاوت في الكبر والصغر وهو
من عقيق. والمرجان وهو نوعان نوع يسمّى القصّ وهو خرز أسطوانيّ مستطيل قليلا
ونوع يسمّى المدردم وهو خرز كرويّ ودَمَ الرَعاف وهو نوع خرز أحمر داكن منه ما هو
أسطوانيّ ومنه ما هو كرويّ وهو من زجاج يجلب من بلاد أوربّا والفاو وهو مرجان
صناعيّ كرويّ وطويل كلّه فيعملون من جميع ذلك عقوداً
ويلبسنها كلّ منهن على قدر حالها في اليسار وعدمه فترى
منهنّ من يكون لها عقد واحد ومن يكون لها اثنان هكذا
ومن يكون لها ثلاثة وأغناهن لا تزيد على أربعة عقود هكذا
ويرتّبن الخرز المذكور فيها ترتيباً حسناً بحيث يألفه النظر
ويميل للابسه القلب

١٠١،١،٣ ويضعن على رؤوسهنّ تمائم من حبّ نبات يسمّى الشوش وهو حبّ صغير أحمر كالجُلَّنار وفي جانب كلّ حبّة منه نكتة سوداء وهذا الحبّ رؤيته مفرحة جدّاً وودع وفول وهذا الفول عندهم ذو ألوان منه ما هو أحمر ناصع الحمرة ومنه ما هو تِبْنيّ اللون ومنه ما هو أسود ومنه عسليّ فيثقبن الشوش والودع والفول وينظمن الشوش وحده تمائم لكن يجعلن في أسفل كلّ تميمة إمّا جلجلاً أو ودعة ويجعلنها عناقيد هكذا لكن يفصلن بين كلّ تعريجة بخرز أزرق

١٠٢،١،٣ ويلبسن في أوساطهنّ خرزاً على أنواع فنساء الأغنياء يلبسن خرزاً كبيراً مثل الجوز يسمّى عندهم رقاد الفاقة ونساء المتوسّطين يلبسن المنجور ونساء الفقراء يلبسن إمّا الحَرِش وإمّا الخَدُّور وجميع ما ذُكر يُعمل في الخليل من برّ الشام لكن رقاد الفاقة أملس جدّاً وهو ما بين أخضر وأزرق وأصفر ومِشاهْرة وهو خرز أسود منقّط بنقط بيض والمنجور كذلك في الألوان إلّا أنّه أصغر حجماً منه وفيه حروشة وعدم إتقان في صناعته والحرش في لونهما لكنّه صغير كحبّ السبحة مع الحروشة الكليّة وله غضون وأمّا الخدور فإنّه حبّ أسطوانيّ وهو إمّا أحمر أو أبيض

١٠٣،١،٣ ويلبسن في أذرعتهنّ عقداً يسمّى المَدْرَعة في المفصل بين الزند والساعد وهو عقد مركّب من خرز أسطوانيّ طول الخرزة منه[1] نحو قيراطين وهو إمّا أبيض أو أسود ويسمّى الشُوُور فينظمن خرزة بيضاء وخرزة سوداء ويفصلن بين كلّ خرزتين بحبّة إمّا من المرجان الحرّ أو من المرجان الطبخ أي الصناعيّ أو من حبّ الرعاف وذلك على قدر حالهنّ في الفقر والغناء ومن حليّهنّ اللّدّايّ وهو سلك غليظ من الفضّة نصف دائرة في طرفيه اعوجاج كالسنّارة فيؤخذ سلك رفيع من النحاس وينظم فيه منصوص ومرجان وعقيق ويربط طرفاه في الاعوجاج الذي كالسنّارة من الطرفين فيكون السلك الرفيع وما هو منظوم فيه كالوتر للقوس وصورته هكذا فيجعلن الوتر قريبا من جباههنّ ويشبكن السلك الغليظ في شعورهنّ ويلبسن في أياديهنّ أساور[2] من عاج أو من قرن فإذا كانت من قرن سمّيت

١ الأصل: من. ٢ الأصل: اساورا.

بالكِيم أو من نحاس لكنّ أساور بنات الأغنياء[1] من الفضّة والعاج معا وفي أرجلهنّ الخلاخيل وهي من النحاس للجميع لكنّ خلاخيل بنات[2] الفقراء من النحاس الأحمر وخلاخيل بنات[3] الأغنياء من النحاس المخلوط بالتوتيا فرارًا من حمرة النحاس المعروفة إلى الاصفرار القريب للون الذهب ويجعلن من أنواع الخرز الرفيع الملوّن عصابة على جباههنّ وفي أياديهنّ

١٠٤،١،٣ وأمّا طيبهنّ فهو السنبل والمَحْلَب وكعب الطيب وهو المسمّى بعرف الفور عرق أمّ أبيض لسبب لونه الأبيض بشيء أسمر وأصفر وبعرف مصر عرق بنفسج بسبب رائحته وخشب الصندل وشيء كالمحار الصغير يقال له الظُفْر وهو أسمر إلى سواد والشَيْبة والمَرْسِين وبعض الأكابر يتطيّبون بالجَلَاد وهو جلد نوافج[4] المسك وعندهم ثمر شجر زكيّ[5] الرائحة يسمّى الدايوق وهو حبّ أحمر يميل إلى الصفرة يسحقنه النساء ويخلطنه بطيبهنّ ومن عادتهنّ أن يكتحلن بالإثمد لكن لا يضعن الكحل في أعينهنّ بل يجعلنه على الأجفان السفلى والعليا من الخارج فيلتصق عليها بواسطة الدهن ويكحلن عشّاقهنّ كذلك فترى الشباب والشابّات كلّها متكحّلة كذلك ومن عادتهم أنّ العاشق يأخذ من محبوبته شيئًا من حليّها المعروف ويلبسه افتخارًا له وتذكارًا لاسمها وإذا أصابه مهمّ أو عثر يقول أنا أخو فلانة وهي تقول كذلك أيضاً

١٠٥،١،٣ وأكثرهم لا غيرة له على عرضه فربّما دخل الرجل داره فوجد امرأته مع غيره في خلوة فلا يغضب إن لم يجده على صدرها وأمّا إذا دخل ووجد ابنته أو أخته مع أجنبيّ لا يسوؤه ذلك بل ربّما سرّ به وظنّ أنّ ذلك يكون سببًا لزواجها ومن عادتهم أنّ البنت إذا طعن ثديها يفردون لها محلاّ تبيت فيه ويأتيها من يحبّها فيه وتبيت معه ومن ذلك يقع الحبل بأكثر بناتهم ولا عار عليهم في ذلك وولد زناء عندهم ينسب لخاله وكذلك البنات فالبنت التي تكون من هذا القبيل يزوّجها خالها ويأكل من صداقها مالاً لا سيّما إن كانت جميلة وبالجملة لا يمكن في دار الفور أن تمتنع النساء عن

---

١ لكن أساور بنات الأغنياء - الأصل: وبنات الاغنيا. ١ لكن خلاخيل بنات - الأصل: لكن بنات. ٢ وخلاخيل بنات - الأصل: وبنات. ٣ الأصل: نوافخ. ٤ الأصل: ذكي.

الرجال ولا الرجال عن النساء بل لا يمكن الرجل أن يحرز ابنته تحت كفه ولو كان عظيماً أمّا إن كان فقيراً فإنّه يهان ويؤذى وربّما قُتِل

ومن ذلك ما اتّفق أنّ رجلاً كانت له ابنة وكان يغار عليها ولا يرضى أن يكلّمها أجنبيّ ومن شدة خوفه عليها كان يقهرها على البيات معه في المحلّ الذي هو فيه وكانت من الجمال بمكان فكان الشباب يأتون على عادتهم إلى بيت أبيها فإذا حسّ بهم زجرهم ولعنهم وطردهم فلمّا أعياهم أمره احتالوا عليه وأخذوا قرعة مستطيلة قليلا تقرب من الشكل البيضيّ تنتهي بعنق وفتحوها من أعلى وأخرجوا لبّها وملأوها غائطاً وبولاً وحرّكوه حتّى امتزج ببعضه وتوجّهوا إلى منزله ليلاً ونادوه يا والدنا مر فلانة تأت لنتحدّث معها فقام على عادته ولعن وسبّ وزجر فما أفاد ذلك بل قالوا له نحن لا نبرح حتّى تخرجها لنا فاغتاظ منهم وخرج قاصداً طردهم ومن عادتهم أنّهم كانوا إذا سمعوا أنّه خارج إليهم يفرّون منه لهيبته إلّا في تلك الليلة فإنّهم ثبتوا ومسك أحدهم القرعة من عنقها وكمن له حتّى أخرج رأسه من باب البيت فرفع يده بقوّة وضرب بها رأس الرجل بالقرعة فانكسرت على رأسه وسال الخبث الذي فيها على رأسه وثيابه ووجهه فلمّا شمّ الرائحة الكريهة صاح يشتم فقالوا له اسكت هذه الليلة فعلنا هذا معك والليلة القابلة إن عارضتنا قتلناك فأيقظ الرجل أهله وجاءوه بماء فاغتسل وتطيّب ونام وخاف منهم فلمّا أصبح أفرد لابنته حجرة لنومها قهراً عنه وجرت عليها عادتهم ١٠٦،١،٣

وإن كان غنيّاً صاحب حشمة وأبّهة وعبيد وخدم يتحيّلون في الدخول إلى الحريم بالليل ولو على زيّ النساء ومن ذلك ما اتّفق أنّ رجلاً من أكابر الناس له سبعة أولاد ذكور[١] وله بنت واحدة وكانت فريدة حسن وقد خطبها منه أناس كثيرون فأبى عليهم فحين طال الأمد على البنت تحيّلت وأدخلت شابّاً لطيفاً من الشجاعة بمكان فمكث عندها ما شاء الله أن يمكث وافتقده أهله فلم يعرفوا له جهة فاتّفق أنّه أُتِيَ بشراب فشرب ولمّا أخذته النشوة طلب الخروج فقالت له البنت أَصْبِرْ إلى الليل ١٠٧،١،٣

١ الأصل:ذكورا.

فأبى وقال لا أخرج إلّا الآن وغلب عليها وخرج وكان أبوها وإخوتها جالسين على باب بيتهم فما شعروا بالشابّ إلّا وهو خارج فصاح أبوهم على بوّاب البيت اقفل الباب فلمّا قفل الباب أمر العبيد بالقبض عليه فاجتمعت العبيد ليقبضوا عليه فجرح منهم أناساً وامتنع عليهم فخرج الأولاد السبعة مجرّدين السلاح عليه قاصدين قتله فناشدهم الله إلّا ابعدوا عنه وتركوه[1] يمضي إلى سبيله فأبوا وتراموا عليه ففرّ منهم ورماهم بالحراب فقتل واحداً منهم فكبر عليهم ذلك ورموه بالسلاح يرومون قتله فصار يذبّ عن نفسه ويرميهم حتّى قتل من الأولاد ستّة وجرح السابع جرحاً خفيفاً فحين رأى والدهم ذلك نادى يا غلام افتح له الباب ففتح له وخرج ولم يكن به جرح ولم يعرف من هو لأنّه كان متنقّباً وكانت ابنته سبباً في خراب بيته وقتل أولاده ووقائع كثيرة من هذا القبيل تذهب الدماء فيها هدراً لأنّ البنت التي يكون هذا الأمر من شأنها لا تخبر الناس باسم القاتل ولا من هو بل قصارى أمرها إذا سئلت عمّن فعل هذا الفعل أن تقول لا أعلم ولا يسلم من هذا الأمر بيت فيه أنثى إلّا إذا كانت وخشاء أو بها عاهة تنفّر الناس عنها

١٠٨،١،٣ وقد اجتهد السلطان عبد الرحمن في منع ذلك فلم يمكنه ذلك حتّى إنّه جعل في السوق خصياناً كثيرين يمنعون النساء من مخاطبة الرجال والاختلاط بهم فاحتالوا في ذلك حيلاً عجيبة منها أنّ الرجل كان يمرّ بالبنت التي تعجبه فيقول لها يا بنيّة ماله راسك شين متل ديك السوكّايه وماله يعني[2] لأيّ سبب وشين بعرفهم غير جميل فتقول هي وينو السوكّاية الشين المتل راسي وينو بمعنى أين هو فيقول ديكا أي ذاك وينعتها لها بإصبعه فتعرفها وبعد المساء تذهب إليه فتبيت عنده ولم ينفع الحرس بشيء

١٠٩،١،٣ كما أنّه اجتهد في منع شرب الخمر فما أمكنه واحتالت الناس حيلاً عظيمة حتّى كانوا يأتون لبيوت الخمّارين ويشترون منهم الخمر ويورّون لمن يراهم أنّهم يشترون خبزاً فكانوا يقولون بلغتهم تُقْرُو بَا يِنْسَا أي خبز كم عند هل أي هل عندكم خبز فإن خافوا أن يكونوا جواسيس طردوهم بقولهم اِكَّا يعني ما عندنا وإن عرفوا أنّهم أغراب

[1] الأصل: تركوه ان. [2] الأصل: اعنى.

يدخلونهم داخل الدار ويعطوهم ما يريدون وكان السلطان في أثناء ذلك يأمر بشمّ أفواه من حضر مجلسه من أكابر الدولة وهم أكثر الناس إدمانًا على الخمر فاستعملوا لإزالة الرائحة مضغ فروع شجر يقال له الشَعْلُوب فكانوا يشربون كفايتهم ثمّ يمضغون منه فلا تشمّن أفواههم رائحة الخمر البتّة وهذه عوائد ارتكزت في طبائعهم وامتزجت بدمهم ولحمهم فصارت سنة متّبعة وإن كانت في الإسلام محرّمة

ومن عوائدهم أنّ الرجل إذا تزوّج وكان فقيرًا ولم يواسوه أهله الأغنياء وجاء يوم الوليمة يعمد إلى مرعى المواشي حتّى يجد ماشية أقرب الناس إليه فيعقر منها ما يكفيه لوليمته ثورًا أو ثورين أو بعيرًا إن كان صاحب إبل وإن لم يكن شيء من ذلك ذبح أكباشًا على قدر كفايته فإن فطن ربّ المال له ومنعه قبل العقر ربّما قاتله إلى[1] أن يغلب وإن شحّ وطلبه للقاضي يلزمه القيمة فيدفعها له على التدريج إن لم يكن متيسّر الحال ١١٠،١،٣

ومن عادتهم أنّ الغلام إذا اختتن يجتمع عليه في ثالث يوم ختنه إلى سابع يوم جميع غلمان البلد وغيرهم ممّن له بهم قرابة أو معرفة ويأخذون السفاريك ويخرجون في بلدهم والبلاد القريبة منها فلا يرون دجاجة إلّا قتلوها وإن قدروا على ضبطها بالحياة أخذوها حتّى يجتمع عندهم دجاج كثير ولا يقدر أحد من الناس يعارضهم في ذلك وكل من عارضهم ضربوه وهم صغار لا تقام عليهم شريعة ١١١،١،٣

ومن عادتهم ختن البنات لكنّهم في ذلك على أقسام فمنهم من لا يرى ذلك أبدًا وهم أعجام الفور ومنهم من يخفض خفضًا خفيفًا كعادة أهل مصر وهم أكابر الناس ومنهم من ينهك الخفاض حتّى يلتحم المحلّ ببعضه ويجعلون لمسلك البول ماسورة من صفيح وهؤلاء إذا زوّجوا ابنتهم لا يقدر الرجل على افتضاضها حتّى يشقّون له المحلّ بالموسى وهناك نساء لهذا المعنى وفي وقت الولادة كذلك أيضًا وهؤلاء أكثر بنات الفقراء المنهمكات مع الرجال دائمًا ويفعلون ذلك خوف الافتضاض بالزنا ومع ذلك يقع الحبل فيهنّ وهنّ على تلك الحالة وفي خفاض البنات يعملون أفراحًا عظيمة ويولمون ١١٢،١،٣

---

١ الأصل: الا.

الولائم العظيمة ومن عادتهم أن أقارب البنت المخفوضة من الرجال يقفون خارج المحلّ الذي تخفض فيه البنت والنساء يكن عندها فإن صوّتت وقت الخفاض وصاحت لعنوها وتركوها وإن صبرت وهبها كلّ من أقاربها على قدر حاله وقرابته فمنهم من يهب لها بقرة ومنهم من يهب بقرات ومنهم من يهب لها رقيقاً ومنهم من يهب لها شاة أو شياهاً حتّى تصير من ربّات الثروة وأبوها وأمّها يهبان لها أكثر من جميع الناس إن كانوا أغنياء

١١٣،١،٣ ومن عادتهم أن يثقلوا مهور البنات فربّما تزوّجت البنت الوسيمة من الفقراء بعشرين بقرة وجارية وعبد فيأخذ الأب والأمّ جميع ذلك ويعقدون العقد على جذعة من البقر ولذلك يفرحون بولادة الإناث أكثر من ولادة الذكور ويقولون إن الأنثى تملأ الزريبة خيرًا والذكر يخربها ومن عادتهم أنّ البنت إذا تزوّجت تمكث بعد الدخول بها في بيت أبيها سنة أو سنتين ولا يمكن خروجها لبيت زوجها إلّا بعد جهد جهيد والنفقة في تلك المدّة على أبيها وما يأتي به الرجل في تلك المدّة يكون على سبيل الهديّة ومن عادتهم أن الرجل إذا خطب بنتاً وكان قبل ذلك له اختلاط بأبيها وأمّها وكانت لها اختلاط بأبيه وأمّه أيضاً تذهب تلك المخالطة بمجرّد الخطبة ويستوحش كلّ منهم فبعد ذلك إذا رأى الرجل أبا البنت المخطوبة أو أمّها يفرّ من الطريق التي هو عليها وهما كذلك وكذلك البنت تفرّ مهما رأت أباه أو أمّه وفي أثناء ذلك إذا دخل الرجل البيت يرسل السلام لأمّ البنت إمّا مع البنت أو أختها أو جارية في البيت ونحو ذلك وهي ترسل له السلام أيضاً ولا يتلاقيان ولا يزالون كذلك حتّى يبني بها فعند سابع يوم من البناء يخرج ويقبّل رأس حماه وحماته ويجتمع عليهما وكذلك البنت ومن عادتهم أنّ كلاًّ من الزوج والزوجة يرى أقارب زوجه كأقاربه فيحترم الرجل حماه ويخاطبه يا أبتي وأمّ امرأته يخاطبها بأمّي وأختها بأختي وهي كذلك ويرون ذلك من آكد الحقوق عليهم

الباب الثاني

وفيه فصلان[1]

فصل في اصطلاح تزويج الفور

١،٢،٣ لمّاكان المتوحّد في ذاته وصفاته وأفعاله غنيّاً عن الزوج والولد ما انفصل عن أحد ولا ينفصل عنه أحد إذ لا يحتاج لما ذكر إلّا الحادث المسكين الذي لا سند له إلّا الله ولا معين وهو سبحانه وتعالى حيّ قيّوم ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ واحد أحد فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ خلق آدم أبا البشر من التراب وخلق حوّاء زوجه من أقصر ضلع من الجهة اليسرى على الصواب

٢،٢،٣ ولمّا كان سرّ خلقه أن يكون ﴿خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ ويملأ من نسله طولها والعرض ركّب فيهما الشهوة البشريّة ليحصل التناسل وفق الإرادة السنيّة وكان آدم حين خلقت حوّاء في سنة من النوم ولمّا أفاق رآها أمامه على ترتيب منظوم فوقعت منه موقع الإعجاب وقال لها من أنت يا أعزّ الأحباب قالت أنا حوّاء وقد خلقني الله من أجلك يا آدم وقدّر ذلك من أزل تقادم فقال لها هلمّ إليّ فقالت بل أنت تعال إليّ فقام آدم إليها فصارت عادة الرجال الذهاب إلى النساء

٣،٢،٣ ولمّا أن جلس معها ومسّ بيديه جسمها دبّت فيه الشهوة الإنسانيّة وأراد مواقعتها كما هو مقتضى الحيوانيّة قيل له مَهْ يا آدم لا تحلّ حوّاء إلّا بصداق وعقد نكاح ثمّ إنّ

[1] الباب الثاني وفيه فصلان – أضيف للسياق.

الله سبحانه وتعالى خطب خطبة نكاحهما بكلامه القديم فقال الحمد لعزّتي والعظمة هيبتي والخلق كلّهم عبيدي وإنّي أُشهِدُكم يا ملائكتي وسكّان سمٰواتي أنّي زوّجت بديعة فطرتي حوّاء أمتي لآدم خليفتي على صداق أن يسبّحني ويهلّلني فكان ذلك سنّة لأولاده

٤،٢،٣ لكن لمّا اختلفت الأقاليم واللغات وتعدّدت القبائل والاصطلاحات كان اصطلاح كلّ قوم مبايناً لاصطلاح آخرين وإن كان العقد والمهر واحداً فمن اصطلاح الفور أنّ الشبّان إناثاً وذكراناً ينشئون جميعاً في صغرهم يرعون الأغنام ولا حجاب بينهم على الدوام فربّما اصطحب الشابّ والصبيّة من ذلك الحين وانعقدت بينهما المودّة التي لا تبلى على ممرّ السنين فمتى أحبّها وأحبّته ركن إليها وصار يغار عليها ولا يرضاها تحادث غيره وحينئذ يرسل أباه أو أمّه أو أحد أقاربه فيخطبها فإذا انعقد بينهما الكلام ونفذ على وفق المرام جمعت الناس للإملاك وحضر الشهود للِملاك فيذكرون شروطاً كثيرة ويطلبون أموالاً غزيرة وكلّها يأخذها الأب والأمّ أو الخال أو العمّ ويعقدون لها على شيء قليل من ذلك المال الجزيل وكنّا قد ذكرنا نبذة من ذلك فلتراجع[١] هنالك

٥،٢،٣ ثمّ بعد تمام العقد يتركون الأمر نسياً منسياً مدّة طويلة ثمّ يجتمعون فيما بينهم ويتشاورون فينعقد رأيهم على وقت فيه يزفّون فإن كان العروسان من ذوي البيوت الفخام والمراتب العظام ابتدأ أهلهما في تهيئة الذبائح والشراب قبل العرس بأيّام كثيرة ثمّ يرسلون الرسل إلى أحبابهم من البلاد ويقولون العرس في اليوم الفلانيّ المعتاد ويكونوا[٢] قد حضروا من المِزْر والنبيذ الأحمر المسمّى عندهم بأمّ بلبل ومن البقر والغنم ما فيه كفاية فتأتي الناس في اليوم الموعود أفواجاً أفواجاً وهناك نساء معهنّ طبول صغار وكبار كلّ امرأة معها ثلاثة طبول اثنان صغيران وآخر كبير على هيئة الدربّكة تضعها تحت إبطها الأيسر أحدها وهو الكبير من أعلى والاثنان يحاذيان أسفل الكبير وتضرب بيدها على الثلاثة ومجموعها يسمّى عندهم الدَلُّوكة وكلّما جاءت طائفة خرجت النساء بالطبول ويضربنها ويقلن كلاماً يمدحنها به منه قولهنّ

---

١ الأصل: فلترجع. ٢ الأصل: ويكون.

هَيْ باني هَيْ بَنانْ
وبَنين حِسَّ البَنانْ
يا هزازين القَنا
أَرَيْتْ ما يجيكمِ فَنا
عين الحسودْ بالعمى
يا هزازين الحِراب
أريت ما يجيكمِ خَراب
عين الحسودْ في التُراب

وكلّما قالت كلاماً قالت قبل أن تقول غيره

هي باني هي بنان
وبنين حس البنان

إنّما هذا الكلام لا يعني شيئاً بالحقيقة وكنت مرّة جئت إلى عرس فتعرّضت لي امرأة وقالت

الشريفْ جايْ من المَسِيدْ
الكِتابْ في إيدْ
والسيفْ في إيدْ
ومن قَبَلْ يجَيبْ
البِرقْدْ عبيدْ

وكنت أحفظ من كلامهنّ كثيرًا نسيته
فتخرج أصحاب العرس ويتلقّون القادمين وكلّ طائفة تأتي رجال ونساء فيجعلون ٦،٢،٣
كلّ طائفة في محلّ ويأتون لهم بالأطعمة والأشربة على حسب مقامهم فمنهم يأتونهم

بالعصائد والمزر المسمّى في مصر بالبوزة واللحم السليق والشواء[1] ومنهم من يأتون له بالفطير والشراب الأحمر الذي كالنبيذ المسمّى عنهم بأمّ بلبل وإن حضرهم جماعة من الفقهاء أتوهم بالعصائد واللحوم وبالسوبيا وتسمّى عندهم دِينْزَايَا ثمّ يقيّلون في أماكنهم حتّى يبرد الحرّ ويعظم الفيء

٧،٢،٣ فتخرج الشابّات من النساء متزيّنات والشباب من الرجال في أكمل زينة يقدرون عليه وتصطفّ النساء صفوفاً صفوفاً وكلّ صفّ[2] من النساء يقابله صفّ من الشبّان وتخرج النساء ألّلاتي[3] معهنّ الطبول فيضربن ويقلن من كلامهنّ فيبرز صفّ من صفوف النساء يمشين هَوْناً ويرقصن بأكتافهنّ ويتقاصرن إلى الأرض حتّى يصلن إلى صفّ الرجال فكلّ شابّة تعمد شابّاً حتّى تضع وجهها في وجهه وتهزّ رأسها نحوه حتّى تضربه بضفائرها في وجهه وضفائرها إذ ذاك مدهونة بالطيب وأنواع ما يعرفونه من العطر فيهيج الشابّ ويهزّ حربته على رأسها ثمّ تلتفت راجعة فيتبعها حتّى إلى مكانها الأوّل فيقف فيه الرجل وترجع هي القهقرى حتّى تصل إلى المحلّ الذي كان واقفاً فيه الرجل فحينئذ من يتأمل يجد صفّ النساء ثبت في مكان صفّ الرجال وبالعكس وإذا كان هناك بعض شبّان لم يدخلوا في الصفّ وإحدى الصبايا تريد أن يقابلها واحد منهم تألفه تخرج من الصفّ وتذهب إليه راقصة حتّى تكبّ شعرها على أنفه فيهيج ويصيح ويهزّ حربته ويخرج وراءها وإن لم يخرج كان ملوماً وعليه وليمة للخارجة له وبعد أن يثبت كلّ صفّ في مكان الآخر تخرج النساء راقصات والرجال راقصين وكلّ منهم مقابل للآخر وكلّ شابّة مقابلة لشابّ حتّى يتلاقى الصفّان في وسط المجال وكلّ شابّة تكبّ رأسها في صدر ووجه الشابّ المقابل لها والشابّ يهزّ حربته على رأسها ويصيح صياح الفرح وهذا الصياح عندهم يسمّى الزقزقة وكلّ من النساء والرجال ثمل ممّا شرب ولا يزالون هكذا حتّى يأتي الليل فترجع كلّ طائفة إلى مقرّها ويؤتى لها بالأطعمة والأشربة

١ الأصل: الشِوا. ٢ أضيف للسياق. ٣ الأصل: التى.

٨،٢،٣ هذا ولا يخطر ببالك أنّه ليس عندهم رقص إلّا هذا النوع وهو المسمّى برقص الدَلُّوكة فهناك[1] رقص آخر يسمّى بالجِيل وآخر يسمّى لَنْقِي وآخر يسمّى شَكَّنْدَري ورقص العبيد والإماء يسمّى تُوزي ورقص الفور يسمّى تَنْدِكًا وهناك رقص آخر يسمّى بَنْدَلَهْ وفي الأعراس كلّ أناس يرقصون نوعًا من هذه الأنواع فالنساء الجميلات بنات الأكابر يرقصن مع أمثالهنّ من الشبّان على الدلّوكة وأواسط النساء مع أمثالهنّ من الشبّان يرقصن الجيل ومن دونهم يرقصن اللنقي[2]

٩،٢،٣ فأمّا رقص الجيل فتتقابل فيه النساء مع الرجال يرقصن بأكتافهنّ ويضربن بأرجلهنّ اليمنى على الأرض والرجال كذلك لكن في كل حلقة هناك نساء يغنين والناس ترقص على غنائهنّ وفي رقص اللنقي بعض النساء يغنّين والشابّات والشبّان يضربون[3] بأرجلهم الأرض ويرقص كلّ منهم برجليه اليمنى واليسرى لكن الشبّان يكِرّون كريرًا معروفًا لهم

١٠،٢،٣ وأمّا الشكندري فيجتمع الشبّان والشابّات[4] وكلّ رجل يأخذ شابّة أمامه وتنحني هي ويمسك خصرها بيديه حتّى يكونوا كلّهم كدائرة مسلسلة أعني الأنثى تضع يديها على حَقْوَي الذكر الذي هو أمامها والذكر يضع يديه على حقوي الأنثى التي هي أمامه وكلّهم منحنيون حتّى يكونوا كدائرة تامّة ويمشون رويدًا رويدًا مع ضرب أرجلهم في الأرض لأجل أن[5] يسمع رنين خلاخيلهنّ والبنات التي يغنّين خارجات عن الحلقة

١١،٢،٣ وأمّا البندله فهي من أنواع رقص العبيد وهو أنّ العبد يأتي بالنارجيل المسمّى عندهم بالدَلَيْب ويثقبه وهو أُكْبر مثل كرة المدفع وينظم منه ثلاثًا أو أربعًا في خيط ويربطها في رجله كالخلخال في الرجل اليمنى وكلّ عبد يفعل ذلك وتقف جارية من الجواري خلفه ويكونون كدائرة ولهم كرير مخصوص فيخرج العبد منهم لآخر في وسط الدائرة ويتحاول معه في اللعب وهذا اللعب مبنيّ على القوّة وخفّة الجسم كما يلعب البهلوان فبعد أن يتحاولا مليًّا يضرب أحدهما صاحبه برجله التي فيها النارجيل[6] فلا يخلو إمّا أن

١ الأصل: وهناك. ٢ الأصل: لنقي. ٣ الأصل: ويضربن. ٤ الأصل: والشبات. ٥ أضيف للسياق. ٦ الأصل: النرجيل.

يوقعه في الأرض أو لا فالماهر هو الذي إن ضرب صاحبه أوقعه والباقي يرقصون رقصاً لا تكسُّر فيه وكلّهم يردّون على المغنّيات وهؤلاء[1] المغنّيات خارج عن الحلقة

١٢،٢،٣ وأمّا التوزي فهو أنّ عبداً من العبيد يضرب على طبل كبير والنساء والرجال حوله حلقة وكلّ رجل واضع يديه على حقوي امرأة وكلّ امرأة واضعة يديها على حقوي رجل لكن مع الانتصاب والاعتدال لا مع الانحناء ويمشون رويداً والنساء يضربن أرجلهنّ ببعضها لترنّ الخلاخيل التي في أرجلهنّ ومشيهم كلّهم في الدائرة على نظم نقرات الطبل ويكونون أيضاً كدائرة والمغنّيات خارج الحلقة وأمّا التندكا فهي لعب البرقد والفور وهو أشبه بالتوزي وإنّما الفرق بينهما في كون أنّ التوزي يمشون فيه رويداً والتندكا بحركات عنيفة وبالحقيقة العبارة لا تفي بذلك لأنّ المشاهدة بشيء آخر فربّما يرى المشاهد شيئاً لا يمكن التعبير عنه

١٣،٢،٣ ولكلّ رقص من الأرقاص غناء مخصوص فأمّا غناء الجيل فمنه قولهنّ

يوباني هَيْ يوبانينْ
الليلْ بوبَى يالْمُتْقالْ
أنا راسي إنـدارْ
الليلْ بوبَى يالْمُتْقالْ
أنا راسي إنـدارْ

وهذه الكلمات يوباني هي يوبانين لا تعني شيئاً لكن واحدة منهنّ تنشد وتقول الليل بوبي يالمتقال فتقول النساء الأخر أنا راسي إندار ومنه قولهنّ

الليـلْ بوبَى
دارَفورْ جَفَـهْ
أنا راسي نوى

[1] لأصل: هذه.

ومنه قولهنّ

فُـرَيْعْ[1] الحـانِيَّـهْ
سَبَّتُو الحـانِيَّـهْ
ويا فُرَيْعْ[2] الصَنْدَلْ
في بوِيْتنا قامْ رَنْدَلْ

وأمّا غناء اللنقي فمنه قولهنّ ١٤،٢،٣

يا عِيالْـــ
جيـبوا المـالْـــ
نَهيـضْ دَلْدَكْ وَدْ بِنَـيَّةْ
صَبّوا دَرِيز الخيـلْ في كَرِّبو
نَهِيـضْ دَلْدَكْ وَدْ بِنيَـةْ

وأما غناء التندگا عند الفور فمنه قولهن ١٥،٢،٣

باسي طاهِر دُقُلا
بِي لَبا وَدُويگْ أَبا
كِتابْ مُصْحَفْ لَگْ حَلْفَيْنْ فِيا[3]
تْرَيْمُدو كُبَيْ رايْلا
تارْگا مُدُو صَقَلْ جُوَجِي

ولو تتبّعنا غناء أنواع الرقص لطال الحال

فبعد أن يأكلوا ويشربوا يزفّون العروس بالدلّوكة ويلفّون بها حول البلد ويأتون بها ١٦،٢،٣
للمحلّ الذي أعدّ للدخول عليها فيه ثمّ بعد العشاء بكثير تجتمع الشبّان ويأخذون العريس

١ الأصل: فُرَيْعَ. ٢ الأصل: فُرَيْعَا. ٣ الأصل: حَلْفَيْنْفِيَا.

ويزفّونه بالغناء والزرقة حتّى يأتون به إلى المحلّ المعلوم فيجلسون خارجه وحينئذ جميع الشابّات مجتمعة مع العروس والشبّان مجموعون عند العريس وقد استوزر العريس أعزّ إخوانه لأنّه حينئذ كالسلطان واستوزرت العروس امرأة وسمّوها ميرم فبعد أن يجلس الرجال مع عريسهم يطلبون الميرم فلا تخرج لهم إلّا بعد نحو ساعتين فيتقدّم لها الوزير ويسلّم عليها بلطف ويلتمس[١] منها حضور العروس فتقول لهم من أنتم ومن أين جئتم وما هي العروس التي تريدون فيقول الوزير أمّا نحن فضيوف وقد جئنا من بلاد بعيدة ونريد الملكة تؤانس ضيوفها فتقول له أمّا الملكة فمشغولة بشغل عظيم[٢] وها أنا وكيلتها في ضيافتكم وقِرائكم وما يلزم لكم فيقول الوزير نحن نعلم أنّ فيك البركة والكفاية لكن لنا معها كلام لا يمكن إفشاؤه لغيرها فتقول له إذا كان كذلك فماذا للملكة وماذا لي لأنّ عادتها ألّا تبرز من حجابها ولا تأتي لطلّابها إلّا بجُعْل فيقول لها المال والأرواح وكلّ ما طلبته فلا يزال يحاولها وتحاوله حتّى يتراضيا وهذا كلّه والعروسة قريبة منهم وراء ستارة لكنّها لا تتكلّم بشيء والعريس أيضاً ساكت كذلك والمحاورة بين الاثنين

١٧،٢،٣ فإذا وقع التراضي رفعت الستارة فتخرج العروس فيقول الوزير أمّا الملكة فللملك وماذا لنا نحن فتنادي الميرم للبنات التي مع العروس فيحضرن وتقول لهنّ أيّتها البنات أريد منكنّ في هذه الليلة أن تؤانسن أضياف الملكة فيقلن لها حبّاً وكرامة وهي تعلم كلّ صبيّة ومحبوبها فتقول يا فلانة كوني مع فلان وأنت يا فلانة كوني مع فلان وهكذا حتّى لا يبقى إلّا التي لا محبوب لها أو الذي لا محبوبة له فيأخذ كلّ شابّ محبوبته ويبيت معها إن وسعهم المحلّ الذي هم فيه وصورة ذلك أن يبيت العريس وعروسه والميرم والوزير وكلّ زوجين معاً صفّاً أو صفّين على حسب سعة الموضع وإن لم يسع المحلّ جميعهم بقي من وسعه المحلّ مع العروسين وذهب الباقي فكلّ شابّ منهم يأخذ محبوبته ويتوجّه بها إلى بيتها أو إلى بيت بعض أحبابها ولا يذهب بها إلى بيته لأنّها لا ترضى ذلك لأنّ عادتهم أن الشابّ متى ما أحبّ صبيّة وعلمت أمّها بذلك لا تقابله أبداً ولا يقابلها وإذا رأته في طريق ولم تر لها مَخْلَصاً منه بركت في الأرض وسدلت

١ الأصل: يلتمس. ٢ الأصل: عطيم.

ثوبها على رأسها ووجهها حتّى يمرّ وهوكذلك يفعل يعني إن رآها وعرفها يرجع على عقبه هاربًا إن أمكنه ذلك وإلّا أدار وجهه لنحو حائط أو شجرة حتّى تمرّ ثمّ يرسل لها السلام إن كان معه أحد وكذلك هي تفعل بعد مروره إن لم يكن معه أحد ترسل له السلام إن كان معها أحد وهذا كلّه عندهم من نوع الحياء والتعظيم

١٨،٢،٣ وعندهم أهل الزوجة محترمون فأمّها كأمّه بل أشدّ احترامًا وأبوها كأبيه بل أشدّ وإخوتها كإخوته وهي مثله في ذلك إذا رأت أمّه أو أباه فرّت وسلكت طريقًا غير طريقهما وترسل السلام أو يرسل إليها ولا تواجه أحدًا منهم وتعتبر أباه كأبيها وهكذا مثل ما ذكرنا في الرجل ولذلك تذهب مع محبوبها إلى محلّ آخر ولا ترضى أن تذهب معه إلى بيته بل إن ضاقت الأماكن بكثرة الناس وليس هناك دار سوى دار أبيه لا تذهب معه إليها بل يذهبان إلى الخلاء ويبيتان فيه وأمّا دار أبيها من حيث أنّ لها محلًّا معدًّا لذلك يبيت معها فيه من أرادت ولا يراها أبواها فإنّ الرجل يذهب معها إليه ويخرج عند الفجر وأبواها نائمان فلا يراه أحد منهما

١٩،٢،٣ ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول ثمّ يبيتون تلك الليلة فإذا أصبح الصباح قامت كلّ صبيّة وتوجّهت إلى بيت أبويها فتصلح شأنها أعني أنّها تغسل وجهها وأطرافها بل ربّما اغتسلت ثمّ تتطيّب وتكتحل وتجدّد زينتها وكذلك العروس تدخل عند أمّها فتصلح شأنها وكذا الرجال يذهبون إلى ديارهم إن كانت قريبة فإن كانت بعيدة كأن كانوا من بلد أخرى يذهب كلّ منهم إلى دار صاحب له فيصلح شأنه هناك وكذلك النساء إن كانت المرأة من بلد أخرى تذهب إلى دار حبيبة لها تصلح شأنها فيها لأنّ الشابّات اللائي حضرن للعرس مع كلّ شابّة منهنّ كحلها وعطرها وما تحتاج إليه فتصلح شأنها ويجلسن حتّى يقرب الضحى فتأتي الميرم إلى محلّ الزفاف والعريس غائب عنه أعني عند قيامه لإصلاح شأنه هو الآخر فتقمّه وتنظّفه وتفرشه وتهيّئ مجالسه هي وبعض صواحباتها[١] فيأتي العريس فيجده نظيفًا فيجلس هو ووزيره وتنهلّ عليه الشبّان فيجلسون معه

---

١ الأصل: صواحبتها.

٢٠،٢،٣ ثمّ أصحاب العرس بالخيار إن شاءوا جعلوا السبعة أيّام كلّها بالرقص والدلّوكة وإن شاءوا اقتصروا على يوم واحد فإن ظهر اقتصارهم جلس الضيوف إلى وقت الغداء[١] وبعد تناولهم الطعام رجع كلّ منهم إلى بلده ولم يبق إلّا أهل البلد الذي هم فيه وإن لم يروا الاقتصار وعلموا أنّ أصحاب العرس يريدون أن يمتدّ عرسهم إلى السبعة أيّام أقاموا ويظهر ذلك بتجدّد الذبائح وعصر الخمور والتهيّؤ

٢١،٢،٣ تنبيه: اعلم أنّ أهل كلّ بلد من البلاد الذين دُعوا إلى مثل هذه الوليمة يأتون إمّا ببقرتين أو ثورين أو ثور أو بقرة أو بشياه إعانة لصاحب الوليمة وإن كان لهم أقارب خارجين عن بلدتهم ودعوا يأتون بأثوار أو بقر غير ما تأتي به أهل بلدتهم إعانة

٢٢،٢،٣ ثمّ يمكثون نهارهم كلّه في لعب وضحك وانشراح وأكل وشرب وطيب محادثة إلى العصر فتضرب الطبول التي هي الدلّوكات ويفعلون مثل ما فعلوا في اليوم السابق حتّى إلى الليل فيأتيهم الطعام والشراب وبعد فراغهم من ذلك يجتمعون رجالاً ونساء في محلّ الزفاف فيتحادثون حتّى إلى نحو نصف الليل ثمّ يأخذ كلّ شابّ حبيبته ويبيت معها حيث باتا أمسهما ويبقون على ذلك المدّة المذكورة وإذا أعوز الأمر إلى الذبائح بأن كان ما أعدّ للذبح لم يكف من حضر خرج أبو العروس أو أخوها أو أحد أقاربها إلى المرعى فكلّ ما وجده من البقر أمامه عقر منها ثوراً أو ثورين أو بقرة أو شياهاً وبعد العقر يرسل الجزّارين فيذبحون العقير ويأتون بلحمه إلى الضيوف وهكذا فإذا بلغ الخبر صاحب البقر فلا يخلو إمّا أن يطلب الثمن فيرضونه أو يسكت حتّى يبقى له عرس أو لأحد أقاربه فيعقر هو الآخر ما يريد من بقر من عقر بقره وَدَقّةٌ بِدَقّةٍ ولذلك إذا عُمِلَ عرس تخاف أرباب المواشي من العقر فيأمرون رعاتهم أن يبعدوا بها في الخلاء لأنّهم لا يعقرون إلّا من الأموال القريبة المرعى وهذه سنّة جارية فيهم وفي تلك المدّة العروس كالملكة وصواحباتها معها في لعب وانشراح والعريس كذلك

٢٣،٢،٣ ومن عادتهم أنّ العريس لا يفتضّ عروسه إلّا بعد السبعة أيّام مع أنّهما يبيتان متعانقين لا حائل بينهما ويجعلون ذلك كرامة لها ولأبويها لأنّهم يقولون الليلة الأولى

١ الأصل: الغذاء.

في كرامة أبيها والثانية في كرامة أمّها والثالثة في كرامة أخيها إن كان أو أختها وهكذا حتّى تتمّ السبعة أيّام ومن استعجل وفضّ قبل تمام ذلك عُيِّبَ عليه وقالوا قد استعجل ولكن من المحال أن يفتضّها قبل ثلاث ليال

٢٤،٢،٣ عجيبة: من عوائدهم أنّ المرأة لا تأكل أمام زوجها ولا غيره من الرجال وإذا دخل زوجها وهي تأكل قامت وفرّت وهذا عندهم من أكمل الحياء ويقبّحون على المرأة التي تأكل أمام الرجل وحين كنت هناك ورأيت ذلك قلت لهم أتستحي من الأكل مع الرجل ولا تستحي من النوم معه وأنّه يدخل بين شعبها ويولج فيها ويرى فرجها وما هي عليه قالوا ذلك لا ضرر فيه وأمّا أن[1] تفتح فاها وتدخل فيه الطعام أمام الرجل فهذا شيء قبيح انتهى

٢٥،٢،٣ ومن عادتهم أن الرجل لا يأخذ عروسه ويبني بها في بيته بل في بيت أمّها وأبيها ولا تخرج معه حتّى تلد ولدين أو ثلاثة فإن طلبها للنقلة معه قبل ذلك أبت عليه وربّما وقع الطلاق بينهما بسبب ذلك ومن عادتهم أنّها لا تذكر اسمه على لسانها أبدًا بل دائمًا تقول قال لي كذا وكذا فإذا سئلت من الذي قال تقول هو حتّى يولد لهما فمتى ولد لهما قالت أبو فلان أو أبو فلانة باسم من يولد إن كان ذكرًا أو أنثى

٢٦،٢،٣ ومن عادتهم أنّ الرجل لا ينفق على المرأة بعد الزفاف إلّا بعد سنة فإن جاء بشيء قبل السنة جاء به على سبيل الهديّة مع أنّه لا يأكل إلّا أعزّ ممّا يأكلون فيمكن أنّهم طبخوا شيئًا قبيحًا لهم من المآكل الرديئة ويذبحون له دجاجًا أو حمامًا أو لحمًا ومن عوائدهم أنّ الرجل مدّة ما هو في بيت أبي زوجته يصنعون له طعامًا جميلًا جدًّا غير العشاء يتناوله بالليل إمّا مرّة أو مرّتين أو ثلاث مرّات[2] ويسمّون الأوّل بلغة الفور جُرِي جَرَاكَ والثاني تَارَگَا جِيسُو والثالث صُبُحْ جَلُو ومرادهم بذلك تقويته على الجماع وأمّا اسمه بلغتهم العربيّة وَرَّانِيَّة وأكثر الأغنياء يأكلون بعد أكلهم العشاء لأنّهم ربّما جاءهم ضيف فلم يتمكّن من الشبع لحيائه من الضيف أو كان العشاء غير جيّد فلا بدّ له من ورّانيّة ومعنى قولهم جري جراك انزع القميص فإن جري معناه

---

[1] أضيف للسياق. [2] أضيف للسياق.

قميص وجراكَ معناه انزع وتاركا جيسو معناه مَسْك الرِجّل فإن تاركا معناه رجل وجيسو معناه مسك وصبح جلو معناه طلوع الفجر

٢٧،٢،٣ وأمّا الورّانيّة فهي عربيّة منسوبة لوراء ضدّ الأمام لأنّه يأكلها وراء العشاء أي بعدما يأكل العشاء ولهذا تجد بعض الناس إذا كان عنده من يعزّ عليه من الإخوان وحضر العشاء معه وأراد أن يقوم يمنعه حتّى ينفض المجلس ثمّ يدعو خادمه ويقول هل من شيء يؤكل فيأتيه الخادم بالورّانيّة فيأكلان معاً وهذا لا يُفعل إلّا مع أعزّ الأصدقاء وهذه الورّانيّة تنفع أحياناً للضيف المفاجئ بالليل الداجي

٢٨،٢،٣ وهذا كلّه إن كان عرساً فإن كان ختاناً فعلوا ما ذكرناه من استحضار الأطعمة والمزر وأم بلبل والدينزايا[١] ودعوا الناس ورقصوا على الدلاليك وزفّوا المطاهر وجاء المزيّن فختنه وأبوه واقف فإن بكى المطاهر نفر[٢] أهله منه وتركوه ومضوا وإن صبر حال الختن ولم يبك قال أبوه اشهدوا يا أهل المجلس أنّي أعطيت ولدي بقرة أو ثوراً أو عبداً أو أمة ممّا يقدر عليه وقالت أمّه كذلك وكلّ من حضر من أهله يهدي له شيئاً فإن كان أهله أغنياء ناله منهم شيء كثير فيصير غنيًّا وذلك كلّه بحسب غناء أهله وفقرهم ثمّ يجتمع أترابه في ثالث يوم الطهور ويأخذون السفاريك ويجوسون خلال البلد يضربون الدجاج فيقتلون دجاجاً كثيراً وفي رابع يوم إلى اليوم السابع يذهبون إلى البلاد المجاورة لهم فلا يرون دجاجة إلّا قتلوها وكلّ يوم يتوجّهوا لبلد يقتلون دجاجها وأصحاب الدجاج لا يرون بذلك بأساً وإن كان خفاضاً فعلوا فيه كلّ ما ذكرنا إلّا الدجاج فلا يقتلونه والخفاض لا يتغالون فيه كالختان وممّا ذكرناه يعلم الواقف على رحلتنا أنّنا استقصينا جميع ذلك لتمام الفائدة وحسن العائدة

٢٩،٢،٣ واعلم أنّ أهل دارفور لا يستقلّون بشيء في أمورهم بدون النساء بل إنهنّ يشاركنهم[٣] في جميع أحوالهم إلّا في الحروب العظيمة ولذلك فإنّ[٤] عرساً لا يتمّ إلّا بهنّ أو حزناً كذلك ولولاهنّ ما استقام لأهل دارفور شيء فترى النساء يحضرن في الأمور

١ الأصل: والدنْزايا. ٢ الأصل: ففر. ٣ الأصل: تشاركهم. ٤ الأصل: ان.

المهمّة ومن ذلك الأذكار وهي على ضربين ضرب يفعله أهل البلاد المستعربون أعني من ليسوا بعجم وضرب يفعله أعجام الفور

٣٠،٢،٣ فأمّا الأوّل فهو ما كان على طريقة شيخ من الصوفيّة أو وليّ من الأولياء وعلى كلّ فتحضر حلقة الذكر امرأة تنشد لهم والنساء خلفها وقوف لا يتكلّمن بل ينظرن أزواجهنّ وأقاربهنّ ليعلمن أيّهم أحسن ذكرًا وقد ينشد رجل والنساء يسمعن كبقيّة الرجال

٣١،٢،٣ ومن ذلك ما وقع أن تلميذ الشيخ دفع الله حضر حلقة ذكر تلاميذ الشيخ يعقوب وبين تلاميذ الشيخين معاندة فلمّا حمي الذكر أراد أحد تلاميذ الشيخ يعقوب أن ينكت على تلميذ الشيخ دفع الله فقال

اَلْما عندو شيخًا[١] فَراجابا
لا يدخلْ دَرَقَة ونَشّابا
اَلْما عندو شيخْ مهيوبُ
لا يدخلْ حَلَقَةْ يعقوبُ[٢]

فسمع تلميذ الشيخ دفع الله وعلم أنّه عناه بذلك فقال

نَدْخُلْ وَنُمْرُقْ مَتَعافي
بِالنِّيَّةَ[٣] والعملْ اَلصافي
دفع اَللّهْ فوقي طوّافِ

٣٢،٢،٣ نادرة: حضرت امرأة في حلقة ذكر وأنشدت

نُصَفِّي لكمْ مَرِيسةْ دُواني
وأنا عَزَبَا بيتي طَرْفاني
يا فُقَرا ما فيكمْ زاني

١ كذا في الأصل. ٢ كذا في الأصل. ٣ كذا في الأصل.

فسمعها الذاكرون وكان فيهم شابّ فهم المعنى وكان يقول اللّٰهُ حَيّ فصار يقول أنا زاني أنا زاني

٣٣،٢،٣ وأمّا أعجام الفور فيقفون في الذكر صفّين أو حلقة وكلّ رجل منهم خلفه صبيّة والنساء ينشدن وهم يذكرون وذكرهم كرير فمن إنشادهنّ قولهنّ

كُرُّو كِرُّو يَيِّ عـالمـَّا نِمـا
صِحْ لَگْ كُوِيَّ جَنَّهْ
صِحْ لَگْ كُوِيَّ

ومعنى ذلك كُرُّو معناها شجرة وكِرُّو معناها خضراء وعالمًا نما معناه ظلّ العلماء وصح لگ كوِيي جنه[1] صح لگ كوِيي معناه صحيح نمشي إلى الجنّة صحيح نمشي إلى الجنّة ومعناه إنّ الشجرة الخضراء ظلّ العلماء ونحن ندخل الجنّة حقًّا ندخل الجنّة حقًّا ومنه قولهنّ

جَبْرَاايْلَيَهْ مِيكَاايْليـهْ[2]
كُلُّ سِبا مُلْكا الجَنَّهْ

ومعناه جبرائيل وميكائيل كلّ حسنة يملك بها الإنسان[3] الجنّة ومن قولهنّ

للّٰهِ قُوَى للّٰهِ
شَهَرْ رمضانْ أللّٰهْ أَنَدَوا
كَاَلْفـارِنْبَيَـهْ

ومعناه للّٰه يا إماء اللّٰه شهر رمضان دواء اللّٰه فافرحوا به

---

١ أضيف للسياق. ٢ الأصل: جَبْرَايِلَهْ مِيكَاايْلَيَهْ. ٣ الأصل: للانسان.

ومثل هذا كثير لو تتبّعناه لخرجنا إلى الإسهاب وجلبنا الملل لأولي الألباب وفيما ذكرناه كفاية لكن من حيث أنّنا تكلّمنا في التزويج وما يتعلّق به عَنَّ لنا أنّنا نذكر نبذة في حُجّاب النساء وهم المسمّون في مصر بالطواشية وبأغوات الحريم وبالتركيّة قزلر أغالر لأنهم أمناء على الحريم ونقول ٣٤،٢،٣

فصل في الخصيان المعروفين في مصر بالطواشية

لمّا كان الحقّ سبحانه وتعالى غيوراً على عباده ومحارمه منتقماً ممّن تعدّى حدوده بارتكاب مآثمه وكانت الغيرة وصفاً من أوصافه ولذا حرّم الظلم على نفسه وخلافه جعل الغيرة مركوزة في طباع بني آدم من زمن سلف وتقادم وأوّل من غار قابيل على أخته أقليما لمّا أمر آدم أن يزوّجها من هابيل ويزوّجه من أخته ذميما فكان من الغيرة من أمرهما ما كان وقتل قابيل أخاه كما ورد بنصّ القرآن بل قد توجد الغيرة في غير بني آدم من الحيوانات فيغير الحيوان على أنثاه وتحصل المعاركات سيّما والنساء أكثر شبقاً وغلمة ولا مروءة تمنعهنّ ولا همّة ٣٥،٢،٣

وكان بعض الناس بلغ في الغيرة أعلاها وارتقى إلى منتهاها حتّى إن بعضهم لا يرون النساء إلّا كالإماء ومنهم من هو كثير الغيرة حتّى من الإخوان والأبناء بل منهم من بالغ في الغيرة فصار يغار عليهنّ من الليل والنهار ومنهم من يغار من عيون النرجس أن تراه كما قال الشاعر [كامل] ٣٦،٢،٣

غُـضِّي جُفُونَكِ يَا عُيُونَ ٱلنَّرْجِسِ   مِـنْكِ ٱسْـتَحَيْتُ بِأَنْ أُقَبِّلَ مُؤْنِسِي
نَامَ ٱلْحَبِيبُ تَـذَبَّلَتْ وَجَـنَاتُـهُ   وَعُـيُونُكُنَّ شَوَاخِـصُ لَمْ تَـنْـعَسِ

وبالغ بعضهم حتّى إنّه غار على المحبوب من نفسه ومن المحبوب ومن الزمان والمكان كما قال الشاعر [وافر]

أَغَارُ عَلَيْكِ مِنْ عَيْنِي وَمِنِّي وَمِنْكِ وَمِنْ مَكَانِكِ وَٱلزَّمَانِ
وَلَوْ أَنِّي وَضَعْتُكِ فِي جُفُونِي إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَا كَفَانِي

ومثله قوله [وافر]

فَلَوْ أَمْسَى عَلَى تَلَفِي مُصِرًّا لَقُلْتُ مُعَذِّبِي بِاللهِ زِدْنِي
وَلَا تَسْمَحْ بِوَصْلِكَ لِي فَإِنِّي أَغَارُ عَلَيْكِ مِنْكِ فَكَيْفَ مِنِّي

وارتقى بعضهم إلى أعلى المبالغة فغار من الضمير حيث قال [طويل]

أَغَارُ عَلَيْهِ مِنْ ضَمِيرِي فَيَالَهُ هَوًى رَابَنِي حتّى ٱتَّهَمْتُ جَوَارِحِي

٣٧،٢،٣ فتحيّل الناس في حراسة الحريم لما عندهم من داء الغيرة المقعد المقيم فما رأوا أحسن من حراسة إنسان يكون مقطوع أعضاء التناسل وهو الذي تطمئنّ إليه النفوس في العاجل والآجل وأكثر الناس احتياجاً لذلك الملوك والأمراء لأنّ كلّ واحد منهم يجمع ما قدر عليه من النساء بلا مراء ولمّا كانت ملوك السودان أكثر الناس للنساء جمعاً وأبذلهم في ذلك وسعاً كان يوجد عند الملك من الخصيان عدد كثير وجمّ غفير فيوجد عند سلطان دار الفور نحو الألف أو أكثر وعليهم ملك منهم وهم له كالعساكر وهو الذي يرتّب في بيت السلطان ما يلزم منهم للحراسة ويبقي عنده ما زاد إلى وقت الحاجة

٣٨،٢،٣ والخصيان مكرّمون عند الأكابر خصوصاً في دار الفور فإن لهم فيها سطوة وأي سطوة والكلمة النافذة والقوّة ومقام ومقال وحال لا يماثله حال حتّى إن لهم هناك منصبين جليلين لا يتولاهما غير خصيّ أحدهما منصب الأبوّة والثاني منصب الباب وأقول إنّ منصب الباب غير مختصّ بدار الفور بل في تونس وفي قسطنطينيّة كذلك وأصل الخصيان الذين في دارفور من بلد روگا. يخصونهم هناك ويأتون بهم إلى دارفور على سبيل الهديّة لكنّهم كثيرون جدّاً ومنهم من يُخصى في دارفور

٣٩،٢،٣ ولقد رأيت حين كنت هناك غلاما حسن الوجه جميل الصورة في نحو الثمانية عشر خُصي في دارفور وسببه أنّه كان من خدم السلطان محمّد فضل وأحبّ غلمانه الذين رُبّوا في البيت وكان له سعد قائم تحبّه النساء لقضاء أوطارهنّ غير الخناء وكان اسمه سليمان تير فحسده أقرانه ونمّوا عليه عند السلطان فغضب عليه وأراد قتله فأشار عليه بعض وزرائه بخصيه وقال له من حيث أنّ الأمر كذلك اقطع ما يؤذيك به ولا تقتله فخصاه وعاش واجتمعت عليه وكان ذا منصب جميل وأبّهة حسنة إلّا أنّ السلطان كان لا يألفه لعدم صلاحه[1] ولما قيل فيه ولقد سمعت من ثقات أنّه أحبل امرأة وظهر حملها فسئلت فقالت من سليمان تير فغضب عليه السلطان وخصاه وبعد أن برئ أعطاه المرأة وولدها وقد ذكرنا سابقاً أنّ الأب الشيخ محمّد كرّا كان اتّهم بما اتّهم به سليمان تير فخصى نفسه بيده دفعاً للريب فحظي عند السلطان وصار ما صار من أمره

٤٠،٢،٣ نكتة: ممّا وقع من عتوّهم وتجبّرهم أن اجتمع بعض أمراء الفور في محلّ انشراح ونزهة وانبساط وكان فيهم خصيّ فجعلوا يأكلون ويشربون والخصيّ كواحد منهم فاتّفق أنّ واحداً من هؤلاء الأمراء معه منديل من حرير فأبرزه في المجلس وقال هل تعلمون لماذا يصلح هذا المنديل فقال أحدهم هو يصلح لمسح العرق وقال الآخر هو يصلح للتجمّل والزينة وقال آخر هو يصلح لأن يجعل على صدر أنثى جميلة وطفق كلّ واحد يقول ما بدا له وصاحب المنديل يقول لا ولمّا أعياهم أمره قيل له قل لنا أنت لماذا يصلح فقال هذا يصلح للمسح بعد الجماع فاستحسنوا قوله وسكتوا فما راعهم إلّا أن قام الخصيّ من بينهم صالتاً سيفه يروم قتل صاحب المنديل وقال له أتعرّض بي أنّي مقطوع لا بدّ من قتلك فقاموا إليه وتلطّفوا به وهو لا يرجع عن قوله حتّى أرضوه بخيولهم كلّها وكان الخصيّ للخليفة ابن السلطان تيراب اللذين[2] أسلفنا ذكرهما

٤١،٢،٣ ومن عتوّهم أنّ الأب الشيخ محمّد أُورَدِكَّا كان في أيّام السلطان تيراب في منصب الأبوّة ومن عادة الأب الشيخ أن يتوجّه لبلاده ومحلّ حكمه في كلّ سنة في فصل الربيع

---

١ – الأصل: لا يألف لصلاحه. ٢ الأصل: الذيْن.

ويجمع أهل البلاد في يوم واحد ويعرض الرجال ويرى العساكر فاتّفق أنّه جمعهم في يوم شديد الحرّ في رحبة واسعة أمام داره ولم يخرج لهم حتّى فاتت القائلة فخرج[1] في أبّهته راكبًا جواده والعبيد يظلّلونه من حرّ الشمس ويجلبون له الهواء بالمراوح وخرج[2] العسكر وصفّوا الناس صفوفًا كدائرة وهو واقف ينظرهم وقد اشتدّ الحرّ وأمر الناس بالجُثيّ على ركبهم وسلاحهم ودرقهم في أيديهم فكان الإنسان منهم لا يستطيع الجثيّ لشدّة حرّ الرمضاء وسال العرق وكثر القلق ومكث مليًّا لا يأمر بأمر ولا ينهى عن شيء وعطش الناس وأخذ منهم حرّ الشمس أكبر مأخذ وهم صابرون على ما قضاه الله عليهم حتّى مات بعضهم من العطش ولمّا رأى قلق العالم وتحيّرهم أعجبه ذلك وضحك وقال بلسان الفور نَتُونَتُونَتُو ﴿يوماً عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ وكرّرها مرّتين أو ثلاثًا وكان العالم المجتمع في تلك الجَلَدِگا أي العرض ما ينوف عن زهاء عشرين ألفا وكان فيهم رجل صالح يقال له الشيخ حسن الكَوْ فبرز وقال بأعلى صوته اسكت يا كافر ثلاثًا فأخذه الرعب من الشيخ المذكور وولّى هاربًا ورفع الشيخ يديه إلى السماء وقال اللّهمّ ارحم عبادك فما تمّ كلامه حتّى ارتفع السحاب مثل الجبال ونزل المطر وتفرّق الناس وكان يومًا مشهورًا وسبب[3] غضب الشيخ أنّه مثّل نفسه بالإله ومثّل عرض الناس عليه بعرضهم للحساب ومثّل شدّة حرّ الشمس بشدّة حرّ يوم القيامة ولذلك استشهد بقوله نتو بالآية الكريمة ونَ بمعنى هذا وتُو بمعنى يوم والباقي هو[4] نصّ الآية الكريمة

٤٢،٢،٣ نادرة: حُكي أنّ الأب الشيخ محمّد أوردكا المذكور كان قليل العقل ومن قلّة عقله أنّه لمّا تولّى في منصب الأبوّة أمره السلطان تيراب أن يقرأ ليتعلّم القراءة والكتابة فأحضر فقيهًا يعلّمه فكتب له حروف الهجاء وصار يقرأ عليه في كلّ يوم واستمرّ على ذلك مدّة أيّام ثمّ إنّه ذات يوم طلب المصحف فجيء به له فتصفّحه ونظر في السطور فرأى واوًا مفردة فعرفها وقال للفقيه إِنْمَاكّ وَاوِ يعني أليس هذه واو فقال الفقيه نعم فقال قد ختمت القرآن وأمر بذبح الذبائح وضرب الطبول وصنع وليمة عظيمة فعُدّت هذه من طيشه وخفّة عقله

١ الأصل: فخرخ. ٢ الأصل: وخرخ. ٣ الأصل: وبسبب. ٤ الأصل: هي.

ولنرجع إلى ما كنّا بصدده فنقول ومع كثرة الخصيان في دار السلطان لم يسلم من الدنس لأنّ النساء شياطين لا يغلبهنّ غالب سيمّا وقد قام عذرهنّ بداعي كثرتهنّ في بيت السلطان وهنّ في سنّ الشباب والراحة وحسن المأكل والملبس فللشهوة فيهنّ نصيب أوفر ولمّا سُجِنَّ في هذا السجن تحيّلن على دخول الرجال بكلّ حيلة فمنهنّ من تصاحب من الرجال من الخدمة الذين بالباب ومنهنّ من لها عجائز يأتينها بالرجال بحيلة وهي أنّ العجوز تتأمّل في الفتيان حتّى ترى الشابّ الجميل الذي لا نبات بعِرْضَيْه[1] فتتحيَل عليه بلطف حتّى تأخذه إلى دارها ومن المعلوم أنّ شبانّ السودان لا يحلقون رؤوسهم بل يوفّرونها فتصير الوفرة لهم كشعر النساء وتجعل وفرته ظفائر كظفائر النساء وتلبسه حليًا كحليّهنّ من عقود وتمائم ومدارع ومنجور وتلبّسه درّاعة وفردة وثوبًا بحيث لا يشكّ رائيه أنّه امرأة وتدخله دار السلطان بين نساء فمتى ولج ذهب خوفها وسلّمته لمن أدخلته برسمها فيمكث ما شاء الله أن يمكث فإن ستر الله عليه خرج كما دخل وإن عثر عليه قُتل ولا يُعثر عليه إلّا بأسباب منها أن تعلم أمره إحدى ضرائرها فتطلبه منها فتأبى هي بخلاً به أو لا يرضى هو أن يذهب فحينئذ يحملها الغيظ على أن تَفْتِنَ عليه فيعثر عليه ومنها أنّ السلطان يأمر بالتفتيش فيحضر الطواشية كلّهم ويفتّش معهم البيوت ومن وجدوه قتلوه ومنها أنّه يزهق من طول المكث فيخرج وحده فيعثر عليه البوّابون وهو خارج فيقتلونه وإن ستر الله عليه خرج وأغلب من يدخل بالصفة التي ذكرناها لا يخرج إلّا بالليل أو مع نساء كثيرة وهو في وسطهنّ ٤٣،٢،٣

ومن العجائز من يتحيّلن[2] في خروج النساء من بيت السلطان بأن ينكّرن المرأة منهنّ بثياب مهنة قذرة ويخرجنها أمام الناس جهارًا فإذا عثر بها البوّاب أو أحد الخصيان قيل له هذه امرأة مسكينة كانت دخلت معنا تلتمس معروفًا ومنهنّ من يدلّس عليها الخصيان وذلك لا يكون إلّا إذا علم الخصيّ أنّه إن عرض انفتح له مهوى فقتل فيه فحينئذ يسكت قهرًا عنه وتدخل المرأة وتخرج وتدخل من شاءت ولم تخش بأسًا ومن ٤٤،٢،٣

[1] الأصل: بعَرَضَيْه. [2] الأصل: يتحيل.

ذلك ما وقع من بعض محاظي السلطان صابون مع تُرْقُنَكْ محمّد بن عمّها وسنذكر ذلك في سيرة السلطان صابون سلطان دار الوَادَایْ إن شاء الله تعالى

٤٥،٢،٣ واعلم أن نساء السودان كثيرات الشبق والغلمة أكثر من غيرهنّ لأمور. الأوّل لفرط حرارة الإقليم. الثاني لكثرة مخالطتهنّ للرجال. الثالث لعدم صونهنّ واستقرارهنّ في البيوت فمن ذلك ترى المرأة منهنّ لا تقنع بزوج ولا بخليل واحد على حدّ قول الشاعر [هزج]

أَيَا مَنْ لَيْسَ يُرْضِيهَا خَلِيلٌ وَلَا أَلْفَا خَلِيلٍ كُلَّ عَامِ
أَرَاكِ بَقِيَّةً مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَهُمْ لَا يَصْبِرُونَ عَلَى طَعَامِ

الرابع لعدم اقتصار أزواجهنّ عليهنّ لأنّ الرجل منهم إن كان ذا قدرة نكح من الحرائر أربعاً وتسرّى بغيرهنّ من السراري وكلّ ذلك على قدر حاله والنساء شقائق الرجال والنفس واحدة في الشهوة والطبع خصوصاً وعندهنّ من الغيرة ما لا مزيد عليه فيتحيّلن على الاجتماع بغير زوجهنّ وتأخذ[1] كلّ منهنّ في ضروب من الحيل تتوصّل بذلك إلى مرغوبها وإن كان لا يقدر على التسرّي طمح نظره إلى غير امرأته فمتى علمت امرأته بذلك حداها حادي الغيرة على الاجتماع بغيره. الخامس العادة لأنهنّ من صغرهنّ قد تعوّدن الاجتماع مع أترابهنّ من الذكور حتّى كبرن على ذلك والعادة إذا استحكمت صارت طبعاً فلذلك إذا تزوّجت لا يمكنها الاقتصار على زوج واحد إلّا من رحم الله ومن حيث أنّ هذا الطبع مركوز فيهنّ يصدر منهنّ ما يصدر فلذلك لا يرى منهنّ من اقتصرت على بعلها إلّا القليل وكلّما تقادم الزمن كلّما كثر الفساد عندهم

٤٦،٢،٣ نادرة: ومن المجرّب في دارفور أنّ النار إذا اشتعلت في دور واشتدّ وقدها وعجزوا عنه نادوا هل من طاهرة فتأتي امرأة عجوز لم تَزْنِ قطّ فتُخْرِج كفوسها وتشير به للنار فتطفأ[2] بإرداة الله تعالى وهذه من مجرّباتهم وحين كنت هناك وقع حريق في بيت جدّة

---

١ الأصل: وياخذ. ٢ الأصل: فتطفى.

السلطان واشتدّ وحضر السلطان بنفسه وأرباب دولته فما أمكنهم إطفاؤه ونادى منادي السلطان هل من طاهرة وتكرّر النداء في البلد فما قدرت امرأة تأتي لذلك الحريق ومن هنا يعلم أنّه لا يوجد الآن فيهنّ طاهرة لكن سمعت بأنّ ذلك قد يوجد في نساء أعراب باديتهم وأمّا نساء السودان فقلّ أن يوجد فيهنّ طاهرة لأنّ المرأة منهم حيث لا عقل يردعها ولا خوف يزجرها ولا دين تراعيه تفعل ما أرادت بل قد تفتخر بكثرة الأصحاب وتقول لو كنت قبيحة ما جاءني أحد ولولا أنّي من الحسن بمكان ما ألفني الرجال وارتكبوا من شاني الأهوال

٤٧،٢،٣ ومن العجب أنّ في بلاد العرب إذا أسنّت المرأة وكان لها ولد جليل ذو شهرة يمنعها ذلك عن ارتكاب الزنا وعن التطلّع للرجال إمّا لعلمها بعدم الرغبة فيها إن كانت مسنّة أو لخوفها على مقام ولدها وجلالة قدره إلّا نساء السودان فقد حكى لي من هو أعزّ أصحابي وصوناً لصحبته لا أذكر اسمه أنّ خال السلطان محمّد فضل المسمّى محمّد تَيْتَلْ زوّجته أخته وهي أنبوسة[١] أمّ السلطان وعمرها بنحو خمس وثلاثين سنة بامرأة من بيتها وصنعت له مهرجاناً عظيماً هرع الناس للفرجة عليه

٤٨،٢،٣ فأخبرني أنّه كان من جملة المتفرّجين قال بينما أنا واقف إذ جاءت أمّ السلطان ومعها سرب من النساء كأنهنّ الغزلان وهي تمشي أمامهنّ وهنّ خلفها وهي كانت جارية بشعة المنظر مشوّهة الخلق دنيّة الأصل لأنّه لا يوجد في سكّان دار الفور أدنى أصلا من البيقو الذين هي منهم فصار كلّ من الواقفين يتعجّب من صنع الله تعالى أن قدّم هذه المرأة مع ما هي عليه من قبح الذات والأصل على من هنّ أحسن وجهاً وأصلاً وذاتاً وبهاءً وجمالاً قال فدخلت على أخيها تيتل وكان وقت بنائه بعرسه فمكثت عنده برهة ثمّ خرجت قال فلم نشعر إلّا برنين الخلاخل والحليّ وعبق الطيب فعلمنا أنّها خارجة فوقفنا صفّاً حتّى إذا خرجت لم أشعر بها إلّا وقد قبضت على يدي وجذبتني للذهاب معها فأردت الامتناع وكأنّي تعاصيت فدفعني النساء اللائي خلفها وكرهت أن يشعر الناس بذلك فمشيت معها محاذياً لها وهي بجانبي قابضة عليّ

١ الاصل: أَنْبُوس.

٤٩،٢،٣ فلمّا كنّا في أثناء الطريق قالت أنا تعبت مع أنّه لم يكن بين بيت أخيها وبيتها أكثر من مائة خطوة وقد بلغني أنّها قبل اتّصالها بالسلطان كانت من أقلّ الجواري المبتذلات للمهنة فكانت تأتي بالماء والحطب على رأسها من الخلاء والآن تتعب من مشي[١] مائة خطوة قال فقلت لها من كثرة ما عانيت في هذا اليوم قال ثمّ دخلنا الدار والخصيان واقفون على الباب لا يجترئ أحد منهم أن يتكلّم وقد عرفوني معها

٥٠،٢،٣ فلمّا وصلت إلى حجرتها دخلت فدخلت معها فأطلقت يدي فجلست على فراش هناك وانطرحت هي على سريرها تتقلّب يمنة ويسرة وتهزّ منجورها بيديها ثمّ قالت لي إنّ بي صداعاً فقلت لها لا بأس عليك قالت فاقرأ لي عليه لعلّه يذهب فجئت إليها وقد علمت أنّ ذلك حيلة منها لمقصودها وأنّ الكبر يمنعها أن تقول لي هيت لك مع أنّ جميع من كان معها من النساء ذهب ولم يبق إلّا أنا وهي وهناك جارية جالسة خارج الباب إن احتاجت إلى شيء دعتها له

٥١،٢،٣ قال فلمّا أكثرت من التقلّب ولم ترمنّي ميلا إليها دعتني لأقرأ على صدغها فحين وضعت يدي على صدغها وابتدأت القراءة ارتعشت تحت يدي وصارت تضطرب اضطراب المذبوح وتتأوّه فشممت منها رائحة الطيب فأنعشتني وأخذني ما يأخذ الرجل من النشاط فهممت أن أعلوها فأدركني خوف من ابنها السلطان لأنّه متى وجد مع أمّه أحداً قتله وقد تكرّر منه ذلك مراراً ويهجم عليها بغير استئذان لكنّها قد رصدت له أناساً يخبرونها بمجيئه فإن كان عندها أحد تحيّلت في إخراجه قال وخفت أيضاً لي لأنّي كنت سمعت أنّها مصابة بداء الحَصَر وهو المعبّر به عند الحكماء بالسيلان الأبيض أعني أنّ كلّ من واقعها ابتلي به سيّما وقد شاهدت من مرض به منها قال فحين أدركني الخوف من هاتين الجهتين برد ما بي قليلاً وكانت قد اطّلعت على حالي أوّلاً فلمّا رأت منّي الفتور ظنّت أنّي جائع فدعت بجارية لها اسمها ذراع القادر وقالت لها ائت بطعام جميل فأتت الجارية بإناءين في أحدهما حمام مقلوّ في السمن وفي الآخر فطير بالعسل وقالت لي كل قال فأبيت واعتذرت بأنّي غير جائع

---

١ الأصل: شي.

فخلفت عليّ فتناولت من الطعام وأعجبني وكنت في تلك الليلة محتاجاً للطعام[1]

٥٢،٢،٣ وبينما أنا آكل إذ سمعت حركات عنيفة وكركبة وجاء الخدم يهرعون ويقولون إنّ السلطان قد أتى فقالت خذوا هذا وأخرجوه من الباب الثاني فأخذني الجوار وأسرعوا في المشي حتّى أخرجوني من الزريبة ومن لطف الله تعالى أنّ السلطان لم يدخل عليها من الباب الذي عادته الدخول منه بل من[2] الباب المذكور وأوقف عليه حرساً ودار حتّى أتى للباب الذي خرجت منه لأنّي بمجرّد خروجي وانفصالي عن الباب رأيت نواصي الخيل قد أقبلت فوقفت على بعد أرى ما يكون فسمعته يقول للبوّابين من خرج الآن من هنا فقالوا لا أحد فقال أحد الفرسان أنا رأيت إنساناً انفصل من هنا وأظنّه كان هنا فقال جميعهم ما رأينا أحداً كلّ ذلك وأنا واقف أسمع وحمدت الله الذي أخرجني قبل وصولهم وإلّا لو وصلوا إلى الباب قبل خروجي كنت أوّل قتيل

٥٣،٢،٣ فحين سمعت منه هذه القصّة تعجّبت غاية العجب وعلمت أنّ الخصيان لا ينفعون إلّا مع عدم غرض النساء ومتى كان للمرأة غرض لا يقدر الخصيّ أن يصنع شيئاً فانظر يا أخي كيف وقعت هذه القصّة من هذه المرأة مع أنّها أمّ ملك ولو وقعت من غيرها لكان للكلام فيها مجال فكيف بهذه وبالجملة فالنساء لا خير فيهنّ إلّا من حفظها الله ورحم الله من قال [طويل]

فَفِيهِنَّ مَنْ تَسْوَى ثَمَانِينَ بَكْرَةً ... وَفِيهِنَّ مَنْ تَغْلُو بِجِلْدِ حُوَارِهِ
وَفَفِيهِنَّ مَنْ تَأْتِي ٱلْفَتَى وَهْوَ مُعْسِرٌ ... فَيُضْحِي وَكُلُّ ٱلْخَيْرِ فِي صَحْنِ دَارِهِ
وَفَفِيهِنَّ مَنْ تَأْتِي ٱلْفَتَى وَهْوَ مُوسِرٌ[3] ... فَيُصْبِحُ لَمْ يَمْلِكْ عَلِيقَ حِمَارِهِ
وَفَفِيهِنَّ مَنْ لَمْ يَسْتُرِ ٱللّٰهُ عِرْضَهَا ... إِذَا غَابَ عَنْهَا ٱلزَّوْجُ رَاحَتْ لِجَارِهِ
فَلَا رَحِمَ ٱلرَّحْمٰنُ خَائِنَةَ ٱلنِسَا[4] ... وَأَحْرَقَ كُلَّ ٱلْخَائِنَاتِ بِنَارِهِ

١ أضيف للسياق. ٢ الأصل: الى. ٣ الأصل: مؤسر. ٤ الأصل: النساء.

وليعلم أنّ كلّ مصيبة تقع أصلها النساء فكم بسببهنّ قتلت ملوك وخربت ممالك وسفكت دماء فهنّ لنا شياطين على حدّ قول الشاعر [بسيط]

إِنَّ ٱلنِّسَاءَ شَيَاطِينُ خُلِقْنَ لَنَا   نَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنْ شَرِّ ٱلشَّيَاطِينِ

٣،٢،٥٤ غريبة: مقتضى أنّهم جعلوا الخصيان لصيانة الحريم عن الرجال أنّ الخصيان أمناء عليهنّ من طرف السيّد والأمر يخالف ذلك فقد رأينا منهم من عنده عدّة نساء يتمتّع بهنّ وأوّل من رأيت عنده ذلك محمّد كرّا الذي أسلفنا ذكره وحكى لي من أثق به أنّه لمّا رأى الغلب عليه في قتال السلطان محمّد فضل كان عنده امرأة من أجمل النساء فذبحها بالليل قبل موته لئلّا يُحَظَى[1] بها غيره وهذه نهاية الغيرة ورأيت في دارفور وفي الواداي كثيرًا من الخصيان كلّ منهم حائز نساء عديدة وسألت من أهل الخبرة ما يصنعون بهنّ وهم كهنّ من حيث إن أعضاء التناسل مفقودة فقيل لي إنّهم يساحقون النساء ويشتدّ بهم الحال وقت المساحقة حتّى إنّه يعضّ الأنثى وقت الإنزال عضّاً مؤلماً وكنت إذ ذاك لجهلي بعلم الطبّ أصدّق ذلك لكنّ الآن لا أصدّقه لأنّ وظيفة العضو قد فقدت بفقده والعلّة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً

٣،٢،٥٥ وكنت سألت أهل الخبرة عن كيفيّة الخَصْي فأخبرني بعضهم أنّه يؤتى بمن يراد الفعل به فيضبط ضبطاً جيّداً وتمسك المذاكير وتستأصل بموسى حادّ ويوضع في ثقب مجرى البول أنبوبة صغيرة من صفيح لئلّا ينسدّ ويكون قد سُخّن السمن على النار تسخيناً جيّداً حتّى غلى ثمّ يكوى به محلّ القطع وبعد أن يكون محلّ القطع جرحاً حديديّاً ينقلب جرحاً ناريّاً ثمّ يداوى بالتغيير عليه بالتفتيك والأربطة حتّى يشفى أو يموت ولا يشفى منه إلّا القليل فإن قيل إنّ في هذا تعذيباً للحيوان الناطق وقطعاً للتناسل المأمور بكثرته شرعاً فهو حرام قلت نعم قد صرّح غير واحد من العلماء بحرمته خصوصاً جلال الدين السيوطيّ رحمه الله فإنّه صرّح بالتحريم في كتابه الذي ألّفه في حرمة خدمة الخصيان لضريح سيّد ولد عدنان لكن الحرمة على الفاعل وإنّما يخصي الخصيان قوم

[1] كذا في الأصل.

من المجوس ويأتون بهم إلى بلاد الإسلام فيبيعونهم ويهادون بهم ولا يخصى على يد المسلمين منهم إلّا القليل النادر وأمّا استخدامهم بعد الخصي فلا ضرر فيه بل فيه ثواب عظيم لأنّهم لو لم يستخدموا لحصل لهم الضرر من وجهين الأوّل ممّا وقع عليهم من الخصي الموجب لفقد اللذّة العظيمة وقطع التناسل والثاني من ضيق المعيشة

٥٦،٢،٣ فإن قيل إن كان الأمراء كالملوك ومن يجري مجراهم يجمعون كثيرًا من النساء في دورهم وكلهنّ شابّات ومن المعلوم أنّ الغيرة موجودة فيهنّ كما هي موجودة في الرجال لأنهنّ شقائقهم فكيف يعاشرن بعضهنّ خصوصاً إذا أحبّ الرجل واحدة منهنّ وأعرض عن غيرها قلت إنّ العداوة واقعة بينهنّ على قدر أحوالهنّ فكلّ منهنّ تتمنّى أن يخلو[1] لها وجه زوجها ولا يألف سواها لكن لمّا كنّ تحت قهر الزوج خصوصاً إن كان ملكاً يخفين البغضاء ويظهرن المودّة وهذه عادتهنّ في إخفاء ما يُبْطِنَّ وإظهار ضدّه ولا يظهر ما أخفت المرأة منهنّ إلّا إذا زال[2] خوفها وملكت رشدها وحينئذ تظهر ما كان كامناً في صدرها

٥٧،٢،٣ فإن قيل ما رتبة نساء السودان في الجمال قلت اعلم أنّ نساء السودان على أقسام في ذلك ومن المعلوم أنّ كلّ قبيلة يوجد فيها الجميل والقبيح لكنّ هناك قبائل يوجد فيها الجمال أكثر وأخرى يوجد فيها الشوه أكثر وأقلّ قبيلة في دار الفور معروفة[3] بالجمال هم التموركه لأنّهم وحشيّون أهل جبال وسوء معاش وكذا الكراكيت وقد ذكرنا سابقاً أنّ قبيلة البرتي والميدوب أجمل نساء من غيرهما ويليهما قبيلة البيقو والبرقو والميمه والتنجور وأشوه قبائل الفور نساء أعجام الفور ويليهم الداجو والبرقد والمساليط كما أنّ في دار الوادي قبيلتي أَبْ سَنُونْ ومَلَنْقا أو مَنَنْقا أجمل الوادي نساء ويليهم الكوكه والميمه وكَشْمِرَة وأقبحها نساء التاما ويليها البرقد والمساليط والداجو ولا يقدر الإنسان أن يساوي بين جمال أهل السودان وغيرهم من أهل بلادنا لاختلاف اللون

٥٨،٢،٣ تنبيه: أجمل أهل بلاد السودان عموماً من مشرقها لمغربها نساء عَفْنو ويليهم باقرمه وبرنو وسنّار وأوسطهم الوادي ويليهم الفور وأقبحهم التُبُو والكَنْكو وبالجملة فالجمال

---

١ الأصل: يخل. ٢ الأصل: زاد. ٣ أضيف للسياق.

يوجد في كلّ قبيلة لكن قد يقلّ في واحدة ويكثر في أخرى وسبحان من خصّ من شاء بما شاء لا ربّ غيره ولا معبود سواه فما كلّ أسمر مسكًا ولا كلّ أحمر ياقوتًا ولا كلّ أسود زبادًا ولا كلّ لمّاع ماسًا وإن شئت قلت ما كلّ أسود فحمًا ولا كلّ أحمر لحمًا ولا كلّ أبيض جيرًا فقد يوجد في الأسود والأسمر من الجمال ما لا يوجد في الأبيض الشاهق وكأنّي بقائل يقول وهل تستوي الظلمات والنور أو الظلّ والحرور لكن من الناس من تعشق في السمر حيث قال [طويل]

وَفِي ٱلسُّمْرِ مَعْنًى لَوْ تَأَمَّلْتَ حُسْنَهُ لَمَا عَشِقَتْ عَيْنَاكَ بِيضًا وَلَا حُمْرَا

٥٩،٢،٣ وأحبّ بعضهم السواد وبالغ حتّى قال من الوافر

أُحِبُّ لِأَجْلِهَا ٱلسُّودَانَ حتّى أُحِبَّ لِأَجْلِهَا سُودَ ٱلْكِلَابِ

وكنت قديمًا مغرمًا بهذا المذهب فقلت [وافر]

يَلُومُونِي عَلَى حُبِّي بِسَوْدَا[١] وَمَا عَلِمُوا ٱلسِيَادَةَ فِي ٱلسَّوَادِ
فَقُلْتُ لَهُمْ دَعُونِي لَا تَلُوموا فَإِنَّ ٱلسُّودَ سَادُوا بِٱلسَّوَادِ
وَجُلُّ ٱلْبِيضِ لَوْلَا ٱلحَاجِبَانِ وَخَالُ ٱلْخَدِّ حَالِكُ فِي ٱلسَّوَادِ
لَمَا عُشِقُوا وَلَا نُظِرُوا بِعَيْنٍ وَلَكِنَّ ٱلْفَضِيلَةَ فِي ٱلسَّوَادِ

وفي الأوّل السواد بمعنى السُودَد وفي الثاني بمعنى المال وفي الثالث بمعنى السواد الحقيقيّ وفي الرابع العالم الكثير أنتهى

٦٠،٢،٣ وقال بعضهم [بسيط]

١ الأصل: لسودا. ٢

قَالُوا تَعَشَّقْتَهَا سَوْدَا فَقُلْتُ لَهُمْ   لَوْنُ ٱلغَوَالِي وَلَوْنُ ٱلْمِسْكِ وَٱلْعُودِ
إِنِّي ٱمْرُؤٌ لَيسَ حُبُّ ٱلْبِيضِ مَكْرُمَةً   عِنْدِي وَلَوْ خَلَتِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلسُّودِ

وقال الفاضل الشيخ عبد الرحمن الصَفْتيّ [كامل]

بِٱلرُّوحِ أَسْمَرَ نُقْطَةٌ مِنْ لَوْنِهِ   تكْسُو ٱلْبَيَاضَ مِنَ ٱلْجَمَالِ شِعَارَا
وَلَوِ ٱسْتَقَلَّ مِنَ ٱلْبَيَاضِ بِمِثْلِهَا   لَٱعْتَاضَ[1] مِنْ ثَوْبِ ٱلْمَلَاحَةِ عَارَا
مَا مِنْ سُلَافَتِهِ سَكِرْتُ وَإِنَّمَا   تَرَكَتْ سَوَالِفُهُ ٱلْعُقُولَ[2] حَيَارَى
حَسَدَ ٱلْمَحَاسِنُ بَعْضَهَا حتّى ٱشْتَهَتْ   كُلُّ ٱلْمَحَاسِنِ أَنْ تَكُونَ عِذَارَا

وكنت عارضته بقصيدة منها قولي [كامل]   ٦١،٢،٣

اَلْحَقُّ أَبْيَضُ دَعْ مَقَالَةَ مَعْشَرٍ   قَدْ عَانَدُوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارَا

وقال الصفتيّ أيضاً [بسيط]

قَالُوا تَعَشَّقْتَهَا سَمْرَا فَقُلْتُ لَهُمْ   لَوْنُ ٱلْغَوَالِي وَلَوْنُ ٱلْمِسْكِ وَٱلْحَدَقِ
وَمَا تَرَكْتُ بَيَاضَ ٱلْبِيضِ عَنْ غَلَطٍ   إِنِّي مِنَ ٱلشَّيْبِ وَٱلْأَكْفَانِ فِي فَرَقِ

٦٢،٢،٣   وتعالى بعضهم في مدح البياض وذمّ السواد بكلام يطول وقال من عاند في ذلك عميت بصيرته عن قوله تعالى ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾

وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبُ

[1] الأصل: لا اعتاض. [2] الأصل: القول.

الباب الثالث

وفيه فصلان[1]

فصل في أمراض السودان والمأكولات وصحّة الأقاليم والصيد وبعض الحيوانات

١،٣،٣ يجب على العبد أن يعلم أنّ الله خصّ كلّ إقليم بما لا يوجد في غيره وجعل في كلّ قبيلة خاصيّة لا توجد في غيرها ولذا إذا تغرّب إنسان من بلده لأخرى يكون هواؤها مخالفاً[2] لهواء بلده تحصل له مشقّات فيمرض حين يتغيّر عليه الهواء فربّما مات وإن لم يمت يطول مرضه ولا يصحّ جسمه حتّى يعتاد بهواء البلد التي سكن فيها بعد طول المدّة

٢،٣،٣ ولمّا كان الأمر كذلك كان الأولاد الذين يتناسلون من أمّ وأب فوراويّين مثلاً أطول أعماراً وأقوى بنية ولذلك ترى الرجل له عشرة من الولد وأكثر أقوياء أصحّاء وكذا أعراب البادية هناك لا يموت الرجل منهم حتّى يرى من ولده عدداً كثيراً فلو انعكس الأمر بأن تزوّج فوراويّ عربيّةً أو عربيّ فوراويّةً ترى سلالته ضعيفة نحيفة لا يعيش منها إلّا ما قلّ وندر وهذا ممّا يدلّ على أنّ في البلد والجنس خاصّيّة لا توجد في غيرهما لأنّ كلّ ولد يوجد من أبوين من نوع واحد وبلد واحد كان أقوى بنية وأعدل صحّة وترى من العكس فيه الأمر ضعيفاً فاسد اللون نحيفاً

---

١ الباب الثالث وفيه فصلان – أضيف للسياق. ٢ الأصل: مخالف.

٣،٣،٣ ورأيتهم في دارفور ودار واداي يستعينون على صحّة الطفل بأخذ الدم فيأخذون الطفل حين يستكمل أربعين يوماً من ولادته ويشرطون بطنه من الجهتين أعني اليمنى واليسرى تشاريط كثيرة وينزل منه دم غزير وحين يستكمل ثلاثة أشهر يفعلون به ذلك وإن لم يفعل به ربّما هاج عليه الدم فقتله

٤،٣،٣ وأكثر أمراض الأطفال عندهم المرض المسمّى أبو لسان وهو داء يعتري الطفل في غلصمته أي عند اللّهاة فتحدّث له فيها زائدة كلسان العصفور عند أصل اللسان فيعالجونها بالقطع وصورة الآلة التي يقطعونها بها هكذا وهي حديدة مركّبة في يد من خشب ومعها قطعة خشبة ناعمة فيدخل الطبيب الخشبة أوّلا حتّى يوصّلها إلى المحلّ الذي فيه الزائدة ويكون العليل قد ضبط ضبطاً جيّداً ثمّ يدخل الحديدة حتّى يصل رأسها المعوّج إلى أصل الزائدة من الجهة الأخرى وتبقى الزائدة بين الحديدة والخشبة ويتّكئ عليهما معا فتنقطع الزائدة بينهما فيخرج الحديدة والخشبة معا فيرى على الخشبة قطعة لحم صغيرة ويكون قد استحضر على قليل من النطرون وسُحِقَ جيّداً بين حجرين ثمّ يبلّ الرجل إصبعه ويجعله على المسحوق فيلتصق به ويدخله في فم العليل بعد أن يكون قد أدخل الخشبة إن كان الطفل قد أثغر لكن لا يوصلها إلى محلّ الألم بل حتّى تتجاوز أسنان العليل ثمّ يدعك محلّ القطع بالمسحوق الذي على إصبعه دعكاً جيّداً فيبرأ العليل بذلك وإذا ترك أبو اللسان المذكور أنحل جسم الطفل ونشأ عنه إسهال عجيب فيكون سبباً في قتله

٥،٣،٣ ويليه مرض آخر يسمّى عندهم أمّ صُقُع ولا يعتري إلّا الأطفال أيضاً وهي استرخاء يقع في اللّهاة وبثرة تحدث فيها فلا يشرب العليل اللبن ولا يأكل ويصفرّ لونه فيدعون له بالطبيب فيأتي ويسحق النطرون كما تقدّم ويضع الخشبة وحدها في فم العليل ويدخل إصبعه فيرفع لهاته ويفقأ البثرة التي توجد فينزل منها دم وقيح ثمّ يغمس إصبعه مبلولاً بريقه في النطرون ويحكّ به البثرة واللّهاة لكن يفعل ذلك ثلاثة أيّام فيبرأ العليل

٦،٣،٣ وقد يقع الإسهال المفرط لكن يُنظَر في الطفل فإن كان ابن سنين ووجدوا المقعدة تبرز من محلّها حكّوها بشقفة حتّى فقأوا ما فيها من البثور وينزل منها دم كثير وقلّلوا مأكله فيبرأ وإن كان صغيراً كابن سبعة أشهر أو ثمانية أو نحوها كووه حول السرّة أربع كيّات هكذا أعني تكون السرّة في الوسط ويكون الكيّ أعلاها وأسفلها وأيمنها وأيسرها

٧،٣،٣ وقد يعتري الأطفال المرض المسمّى بالغُزَيِّل وهو مرض ناشئ عن إصابة في المخّ يترك الطفل يعبث بيديه ورجليه على غير الحالة المألوفة وأهل مصر كأهل تونس يقولون إنّه من الجانّ حين يترك الصبيّ وحده في محلّ يعتريه هذا الحادث فيقتل في مصر وتونس وبلاد العرب أطفالاً كثيرة فأمّا أهل مصر فيستعينون[1] في علاجه بالكتّابات لاعتقادهم أنّه من الجانّ فيأتون بمن له شهرة في الرُقَى والعزائم والأقسام فيكتب للعليل[2] ويَرْقِي وهذا قد يصادف أنّ العليل يخفّ ألمه وقد لا ينجع وأمّا أهل السودان فيعالجونه بالكيّ في الجبهة بأنّ يأتوا بلبّ قصبة من قصب الدخن ويلامسون بها النار حتّى تأخذ فيها وتبقى لها زهرة كزهرة الشمعة التي تُقَطّ فيكوون العليل بها فيبرأ لوقته ومن أمراض الأطفال هناك أبو صفّير وهو مرض يعتري الطفل فيفسد لونه ويصفرّ صفرة ظاهرة وهو المسمّى في كتب الطبّ باليرقان الأصفر

٨،٣،٣ وهناك أمراض عامّة الصغير والكبير فيها على حدّ سواء فمنها الوِرْدة وهي الحمّى ولا يكاد ينجو منها أحد في كلّ سنة وتتسلطن عندهم في أيّام الخريف وأوّل الربيع المسمّى عندهم بالدَرَتْ وهو وقت خريفنا وتتنوّع فمنها حمّى الوِرْد التي تأتي في كلّ يوم في ساعة معيّنة ومنها حمّى الغِبّ وهي التي تأتي يوماً وتغيب[3] يوماً ومنها حمّى التثليث وهي التي تأتي بعد كلّ يومين ومنها حمّى الربع وهي التي تأتي بعد كلّ ثلاثة أيّام وهي أقوى أنواع الحمّى وأقلّ منها بدرجة حمّى التثليث ومنها الحمّى المُطْبِقة وهي التي لا ترتفع عن صاحبها إلّا بالشفاء أو بالموت وتسمّى في مصر بالنوشة وهي في عرف

١ الأصل: يستعينون. ٢ الأصل: العليل. ٣ الأصل: ويغيب.

الأطبّاء الآن التهاب معديّ معويّ وكلّها عند أهل السودان تسمّى بالوردة . لا يميّزون فيها . ومن الأمراض العامّة الوبائيّة عندهم الجدريّ وهو عندهم كالطاعون في مصر ويشتدّ خوفهم منه لأنّه قتّال جدًّا وكلّ من مرض به منهم أخرجوه من البلد إلى محلّ آخر في الخلاء وبنوا له عشّة تسمّى عندهم بالكَرّابة وتركوا عنده من يخدمه ممّن يكون قد مرض بالجدريّ وكلّما مرض آخر نقلوه إليه وهكذا وهذا هو الكرنتينة بعينها . تنبيه: أخوف أهل السودان من الجدريّ أعراب باديتهم لأنّ الجدريّ إن دخل في حيّ من أحيائهم أفناه فلذلك تراهم أخوف الناس منه

٩،٣،٣ ولقد أخبرني رجل من أكابر البرقد يقال له عثمان ود عَلَوْ أنّه كان مرض بالجدريّ وقاسى ما قاسى ثمّ شفاه الله فلمّا قشر جدريّه وقبل أن يندمل صار يؤذيه الذباب فكان يتلثّم لأجل ذلك قال بينما أنا ذات يوم متلثّم واقف على باب داري إذ رأيت أعرابيًّا قد جاء يمشي مشية الخائف فلمّا رآني أقبل عليّ حتّى دنا منّي وسلّم عليّ ثمّ قال أمانة عليك هل في حلّتكم هذه جدريّ فقلت كفانا الله شرّ الأمانة ورفعت اللثام عن وجهي فحين رآني صاح صيحة عظيمة وسقط إلى الأرض فجاء لصيحته إخوانه من الأعراب فرفعوه وذهبوا به وكنت أنا حين جاء إخوانه فررت لئلاّ يقتلوني فبلغني بعد ذلك أنّه مات بعد ثلاثة أيّام

١٠،٣،٣ ومن خرافات أهل السودان أنّهم يقولون إنّ الجدريّ حيوان لا يُشاهد إلّا أثره يعلق بالإنسان فيقتله وسمعت من كثير منهم أنّه رأى أثره ويتواطأون على ذلك ويصدّق بعضهم بعضاً وسألتهم عن أثره كيف هو فقالوا[١] أثره نُكَت مستديرة متوالية هكذا ٥٥٥٥٥٥ على سطر واحد فكلّ بيت أصبحنا ورأينا ذلك الأثر دخل فيه نجد أهله قد أصيبوا

١١،٣،٣ عجيبة: أخبرني القاضي الدليل قاضي القضاة بمملكة الواداي حين جاء إلى القاهرة سنة ١٢٥٧ أنّ المرض المسمّى بالهَيْضة وأهل مصر سمّوه الهواء الأصفر الذي كان أتى إلى مصر من الحجاز سنة ١٢٤٧ ذهب إلى بلادهم وأخربها وقتل منها عالمًا

١ الأصل: فقال.

كثيرًا كنّا نظنّ أنّه لا يصل إلى هناك فسبحان الفعّال لما يريد لا معقّب لحكمه

١٢،٣،٣ ومن الأمراض العامّة الكثيرة الحصول عندهم المرض الإفرنجيّ ويسمّى عندهم بالجِقّيل وكثرته بينهم لكثرة الفساد وليس له عندهم دواء إلّا الكيّ وصفة هذا الكيّ أنّهم يأتون بحديدة وهي المسمّاة عندهم بالحَشّاشة وهذه الحديدة مستطيلة مفرطحة عرضها بنحو قيراطين وطولها بنحو خمسة قراريط أو ستّة فيحمّوها بالنار حتّى تحمرّ ولها صورة أنبوبة مركّبة في وسطها عرضاً فإذا احمرّت الحديدة أخرجوها من النار وصبّوا على الأنبوبة ماء قليلا ثمّ يدخلون في تلك الأنبوبة عودًا يرفعونها به ويكوون به المحلّ الذي ظهر فيه الداء من غير استثناء ومتى ما شهد هذا الداء على أحد وله أهل كووه ولو قهرًا عنه وبهذه المعالجة شفاه الله بأقرب زمن

١٣،٣،٣ وهذا المرض في كردفال أكثر من دارفور ودارفور أكثر من الواداي حتّى إنّه في الواداي لا يسمع بإنسان مرض بهذا الداء إلّا نادرًا وسبب كثرته في كردفال أنّ من أصيب منهم به يعتقد أنّه كلّما أعدى غيره به يخفّ عنه ما هو فيه ولم يدر أنّه لو أعدى مائة ألف لم ينقص ممّا هو فيه شيء فترى المريض منهم سواء كان امرأة أو رجلاً يعدي خلقاً كثيرًا فلذلك كثر عندهم وفي دارفور وإن كان كثيرًا لكنّه لمّا كان منهم من لا يستحي أن يراه الناس مريضا فيعدي غيره وهو قليل ومنهم من يستحي من ذلك فيجلس في بيته حتّى يبرأ وهو كثير فقلّ عندهم وأمّا في الواداي كلّ من مرض به لزم محلّه حتّى يبرأ فكان وجوده نادرًا

١٤،٣،٣ ومنه الحصر وهو السيلان الأبيض ومثله الهَبُوب وهو ريح ينعقد في البطن السفلى من المرأة أو الرجل وأكثر ما يوجد في النساء ويقولون إنّهما معديان ومن الأمراض الفاشية عندهم الجُذام وهو تأكل مارن الأنف وأطراف الأصابع وكذلك البَرَص إلّا أنّه أقلّ ومنها أبو الصفوف وهو ذات الجنب وعلاجه عندهم بالتشريط على الأضلاع فيشرّطون أربعة صفوف أو خمسة كلّ صفّ أربع شرطات أو خمس هكذا ويدعكون المحلّ بعد التشريط بمسحوق النطرون فينزل من الفتحات دم كثير فيبرأ المصاب ومنها الفَرَنْدِيتّ وهو كثير عندهم ويسمّى في مصر بالفَرْتيت

وهو ورم يحدث في الساق أو اليد أو في محلّ آخر فيتكوّن فيه قيح فيُبَعَ ويخرج من محلّ البج خيط أبيض طويل أشبه بالعصب إلّا أنّه غير متين كالعصب والظاهر أنّه حيوان لأنّه يخرج ويدخل وعلاجه البج والتدفئة بورق العُشَر المدهون بالسمن المسخّن على النار

١٥،٣،٣ ومن الأمراض العضويّة عندهم السُوتيّة وهي مرض يخصّ الركبة وهو ورم كالفرنديت إلّا أنّه لا يظهر له خيط ويتكوّن داخله قيح كثير ولا يبرأ حتّى يبج المحلّ بجًا غائرًا ثلاثة صفوف في كلّ صفّ ثلاث بجات أو أربع فينزل منها قيح كثير وبالتدهين بالسمن والتدفئة يبرأ العليل ومنها الدُقْري وهو مرض يخصّ الساق على طولها وهو ورم كورم السوتيّة إلّا أنّ هذا يمتدّ على قصبة الساق وذاك مقصور على الركبة وعلاجه كعلاج السوتيّة إلّا أنّ البج يكون صفّين من وَحْشِيَّة الساق وصفّين من إِنْسِيَّتِها ومن الأمراض عندهم التي تصيب الأطفال الحصبة[١] والبُرْجُك وهي القرمزيّة ومن الأمراض العامّة وجع الطحال أعني كبره والاستسقاء بأنواعه وأغلب الأمراض عندهم إلّا الطاعون والسلّ فلا يوجدان وإن وجد السلّ فنادر

١٦،٣،٣ وأمّا الجراحة فمتقدّمة بينهم لكثرة الفتن والحروب فتراهم يخيّطون الجروح حتّى إن من خرجت أمعاؤه يردّونها ويخيّطون عليها ويبرأ وكذا يداوون الشجاج بأنواعها[٢] وهناك ناس يسمّون الشَلاّكين يعملون عمليّة الكَتَرَاتَا من العين مع المهارة التامّة ولكن لا أعلم كيفيّة العمليّة ولا الآلات المستعملة عندهم لذلك وأعرف منهم رجلاً شهيرًا يسمّى الحاجّ نور غير أنّهم لا يستعملون البتر ولا القطع ولا الاستئصال وأمراض الأُدْرة قليلة عندهم هذا ما انتهى إليه علمي في ذلك

١٧،٣،٣ وأطبّاؤهم مسنّوهم فلا تجد فيهم طبيباً شابّاً إلّا نادراً ومن برع في صناعة الطبّ تهرع إليه الناس ولو من مسافة أيّام ويكرمونه إكراماً تامّاً وأكثر علاجهم التشريط والكيّ ولا يستعملون من الباطن إلّا التمرهنديّ والعسل النحليّ[١] والسمن البقريّ

١٨،٣،٣ عجيبة: أخبرني شيخي الفقيه مدنيّ الفوتاويّ عليه سحائب الرحمة أنّه كان أصيب بالنقرس الذي هو وجع المفاصل وهو المسمّى في كتب الطبّ بداء الملوك وأنّ أعرابيًا

---

١ الأصل: الحصْبا. ٢ الأصل: بانواع.

من البادية وصف له الوقوف في السمن البقريّ فقال أمرت بإحضار كثير من السمن البقريّ وسُخِّنَ على النار حتّى ذاب ذوباناً تامّاً فنُزِّلَ عن النار وترك إلى أن هدأ وصار يتحمّله الإنسان ورُبِطَ لي حبل في سقف البيت وصار[٢] طرفاه بيدي وأفرغ السمن في قصعة كبيرة وغسلت رجلي ووقفت في السمن ومَسَكْتُ الحبل المذكور فكان معيناً لي على طول الوقوف قال فلم أشعر إلّا والسمن يسري في جسمي كسريان السمّ غير أنّه أوّلاً صعد إلى ساقيّ ثمّ إلى ركبتيّ ثمّ إلى فخذيّ ثمّ سرى في النصف الأعلى فصرت أحسّ به يصعد في جسمي شيئاً فشيئاً حتّى وصل إلى عنقي فأخذني دوار وغشي عليّ وكدت أسقط فتلقّاني الخدم ودثّروني في ثيابي وأضجعوني على فراشي وأنا لا أشعر بشيء من ذلك فقِلْتُ نهاري كلّه وليلي كذلك ثمّ أفقت عند الصباح وأنا ناشط كأنّما حللت من عقال ورأيت أنّه خرج منّي عرق كثير كريه الرائحة وبذلك شفاني الله وأخبرني غير واحد أنّ أهل البادية كذا يفعلون حتّى بلغ هذا الخبر مبلغ التواتر ولكونهم يتعاطون السحر كثيرًا يتداوون بالكتابة وعندهم أناس مشهورون بذلك وأكثرهم شهرة فَلّاتا

١٩،٣،٣ وكيفيّة الولادة عندهم أنّه إذا أخذ المرأة الطلق أتاها بعض العجائز من النساء وربطوا لها حبلاً في سقف البيت فتمسكه وهي واقفة وتعتمد عليه كلّما اشتدّ بها الوجع وتفرج بين رجليها حتّى يسقط المولود فتتلقّاه إحدى النساء الحاضرات وتقطع سرّه وتضْجِعن النفساء على فراشها فإذا تمّ للولد أسبوع عملوا له عقيقة كلّ إنسان على قدر حاله فتجتمع النساء عند النفساء والرجال مع الرجل ويكون قد ذبح شاة فتأكل النساء والرجال لحم الشاة ويسمّون المولود ثمّ يتفرّقون ويطعمون النفساء في ذلك الأسبوع عند الصباح المديدة وهي الحريرة بلغة أهل مصر والحسو بلغة أهل المغرب والكَرَيْمَ بلغة الإفرنج وعند الظهر لحم دجاجة إن كانوا أغنياء فإن كانوا فقراء فالمديدة أيضه وهي مركّبة من دقيق الدخن ودقيق التبلدي أو الهِجْليج فإن كانت من الهجليج كان بها مرار وإن كانت من التبلدي كانت حامضة فإن تمّ للمولود شهران أو ثلاثة حملته أمّه على ظهرها وربطته بثوبها ويسمّى ذلك الحمل قوقو فتحمله كذلك وتذهب إلى شؤونها من زرع وماء وحطب حتّى يشبّ

٢٠،٣،٣ ومن عادتهنّ أنّهنّ يرضعن أولادهنّ حولين فأقلّ كالإسلاميّين ولا يزوّجن بناتهم إلّا إذا بلغت البنت الحلم وعرفت منفعة الرجل ولقد مكثت عندهم سبع سنين ما رأيت عروساً تزوّجت قبل بلوغها وإن عقد عقدها قبل البلوغ لا يبني بها الرجل إلّا بعد بلوغها لأنّ عادتهم أنّ الرجل يملك ويترك مدّة فمنهم من لا يبني بعرسه إلّا بعد سنتين ومنهم بعد ثلاث والمستعجل منهم يبني بعد سنة لأنّهم لا يُملّكون عليها إلّا إذا نهزت البلوغ. هذا في البكر وأمّا الثيّب فيبني بها الرجل يوم ملاكه أو غده

٢١،٣،٣ وأمّا قراءة القرآن فمتأخّرة جدّاً لأنّهم لا يُقْرِئون القرآن إلّا بالليل في المكاتب فيكون الصبيّ في النهار سارحاً بماشيته من غنم أو بقر وبعد أن يرجع في المساء يأخذ لوحه ويذهب إلى المكتب وعلى كلّ صبيّ الإتيان بالحطب يوماً فيقيدون النار ويحيطون بها فيستضيئون بضوئها وعلى ذلك الضوء يحفظون ويكتبون وحفظهم غير جيّد فلذلك قلّ من يحفظ القرآن منهم حفظاً جيّداً وأمّا قراءة العلوم فمتأخّرة أيضه لعدم العلماء وأكثر قراءتهم للفقه والتوحيد وأمّا المعقول فقليل جدّاً ومع قلّته لا يقرءون إلّا قليلاً من النحو وأمّا المعاني والبيان والبديع والمنطق والعروض فلا يعرفون منه إلّا الاسم ومن يعرفه منهم يكون قد تغرّب لبلد آخر كمصر وتلقّاه فيه فإذا رجع إلى بلده كان هو العالم وأكثر ما يعانونه الروحانيّ والسحر ويسمّون علم السحر علم الطبّ ومن مهر فيه سمّي طَبَّابيّ وهذا العلم يوجد عند الفلاّن أكثر من غيرهم وقد نذكر ما وقع من الفقيه مالك في أولاد السلاطين وسحره إيّاهم حتّى رجعوا إلى الفاشر بعدما هربوا منه وما وقع من الفقيه تَمُرُّو

٢٢،٣،٣ تنبيه: اعلم أنّ دارفور وإن كانت كلّها إقليماً واحداً ومملكة واحدة هواؤها مختلف وأصحّها القوز فلذلك تجد من فيه من أعراب البادية أقوياء أجرياء لسلامة أرضه من العفونات والوَخَم لكنّ ماؤه قليل فقد ذكرنا سابقاً أنّ منهم من بينه وبين الماء مسافة يومين وأكثر ويليه في الصحّة بلاد الزغاوة المسمّاة بدار الريح فلذلك تجد الزغاوة والبِدَيَات القاطنين بها في غاية القوّة وسلامة الأعضاء وأردأها هواء الصعيد لكثرة

مياهها خصوصاً جبال مرّة ووخمها وعفونتها لكن لا تكون أرضه وخيمة إلّا على من لم يعتدها وأمّا المولودون فيها تراهم أصحّاء أقوياء لكن عندهم الحمى كثيرة وأردأ من الصعيد المدن وأقواها الفاشر ويليه كوبيه وكبكابية وأمّا سلا وفنقرو وبيگا وشالا فأوخم الأماكن كلّها لكثرة الرطوبة عندهم واستمرار الأمطار لأنّها لا تنقطع في السنة إلّا مدّة شهرين أو ثلاثة

٢٣،٣،٣ ومع ما في دار الفور ممّا ذكرناه من الأمراض كلّ منهم يحبّ وطنه ويألف سكنه وإذا تحوّل إلى غيره يبكي عليه ويتمنّى الرجوع إليه وهذه غريزة جبل عليها الإنسان وانطبع عليها الجنان من قديم الزمان فلذلك كان المصطفى صلّى الله عليه وسلّم يحنّ إلى مكّة حنين المشتاق ولولا أنّ الله أمره بسكنى المدينة لأقام بمكّة بعد الفتح باتّفاق لكن من حيث أنّ أمراض بلاد السودان لم تكن وبائيّة قتّالة كانت أعمارهم أطول من أعمار غيرهم فلذلك تجد فيهم المسنّين حتّى تجد من تجاوز المائة وعشرين وأمّا أبناء السبعين والثمانين والتسعين فلا يكاد أن يحصرهم العدّ ولا يوقَف لكثرتهم على حدّ. هذا مع ما ابْتُلِيُوا به من الفتن والحروب والمحن لأنّ كلّ قبيلتين منهم بينهما دم مسفوك وثأر مطالب به غير متروك كما بين البرتي والزيادية وبني عمران والميمة وفلاّتا والمساليط والمسيريّة الحمر والرزيقات والمجانين وبني جرار والزغاوة والمحاميد ممّا لا يكاد يحصى. هذا خلاف فتن الملوك وخلاف ما يصير من القتل في مجلس الشراب أو في المعاندة على الكواعب الأتراب ولولا ذلك لكانوا في الكثرة كياجوج وماجوج وضاق بهم الفضاء والمروج

٢٤،٣،٣ فإن قلت إذا كان الأمر كما ذكر فما بال النساء العجائز قليلة مع أنّهنّ لا يقاتلن ولا يحضرن حروباً فلو كان ما ذكر صحيحاً في عدم كثرة الرجال كان وجود النساء المسنّات كثيرًا مع أنّهنّ مثلهم أو أقلّ قلت لماّ كنّ يحزن على من قتل لهنّ من الرجال ويتحمّلن بعدهم الضرّ والنكال كنّ عرضة للأمراض المردية الجالبة للمنيّة بسبب ما يحصل لهنّ من الانفعالات النفسانيّة ومع ذلك هنّ أكثر من الرجال المسنّين ولقد كنت في بلدة أقلّ عماراً وسكّاناً وهو أبو الجدول ورأيت فيها من المسنّين والمسنّات كثيرًا

وكلّما دخلت حلّة أرى فيها أكثر من ذلك مع أنّ معيشتهم في غاية الانحطاط لو تناول منها أحد من أهل بلادنا مرّة واحدة لذهب منه النشاط لأنّ أكثر مآكلهم إمّا مُرّة أو متعفّنة ويرون أنّ هذه هي النعمة المستحسنة

٢٥،٣،٣ وكنت حين حللت ببلادهم ولم أعتد باعتيادهم صنعوا في الدار ويكة ودعوني أن آكل منها فأبيت ولمّا سمع والدي بذلك قال لي حيث لم ترض أن تأكل من هذه الأُدُم لِمَ جئت هنا وصار متحيّرًا فكان يتكلّف ويصنع لي أرزًا بلبن ولمّا توجّهت إلى الفاشر ونزلت في بيت الفقيه مالك الفوتاويّ حضر العشاء فرأيت الأدم مرًّا فسألت ما هذا فقيل لي هذه ويكة الهِجْليج فأبيت أن آكل منها فجاءوني بأدم آخر فشممت منه رائحة منتّنة فقلت ما لهذا منتّن فقيل لي هذه ويكة الدَوْدَري وهي جيّدة عندهم فأبيت أن آكل منها فأخبر الفقيه مالك بذلك فأرسل لي لبناً حليباً عليه عسل فأكلت منه ولمّا حضر في ديوانه للسمر قال لي لِمَ لم تأكل من ويكة الهجليج أو الدودري فقلت له إحداهما مرّة وثانيتهما متعفّنة فقال هذا هو الطعام الذي يصلح في بلادنا ومن لم يأكل هكذا يخشى على نفسه من الأمراض

٢٦،٣،٣ والدودريّ ويكة تتّخذ من عظام الغنم والبقر وسائر الحيوانات وهو أنّهم يأخذون عظم الركبة وعظم الصدر ويجرّدون ما عليها من اللحم ثمّ يضعون العظام في خابية ويتركونها أيّاماً حتّى تعفن فيخرجونها ويهرسونها في هاون حتّى ينهرس العظم في اللحم ويصنعونه كرات في جرم البرتقان الكبير فإذا أرادوا الطبخ أخذوا قطعة من كرة وذوّبوها في الماء فإن كان فيها قطع من عظم صفّوها من مصفاة ثمّ صبّوا ذلك الماء في القدر ووضعوه على النار حتّى يصير له قوام فيأتون بقدر صغير يقطعون فيه قليلاً من البصل ويقلونه في قليل من السمن ويضيفونه لذلك ويضعون فيه شيئاً من الملح والفلفل والكُمُّا إن وجدت وهذا طعام لا يوجد إلّا في بيوت أمراء الفور

٢٧،٣،٣ وأمّا ويكة الهجليج فلا يخلو إمّا أن تكون من الورق أو من الثمر فالتي من الورق هي أنّهم يجنون الوريقات الطريّة الحديثة ويدقّونها وتوضع في القدر على النار وتحرّك بالمسواط حتّى تمتزج مع ما فيه من الماء والدهن وإن كانت من الثمر فكيفيّتها أنّهم

يأخذون الثمر وينقعونه في الماء ثمّ يهرسونه باليد حتّى يذهب لحمه كلّه في الماء ويأخذون ذلك الماء ويصفّونه في قدر فإن كانوا فقراء وضعوا عليه قليلا من الشحم وأكلوا وإن كانوا أغنياء قادوا النار حتّى يصير له قوام ثمّ عملوا تقلية كالتي ذكرناها في الدودري وأضافوا لها لحمًا مدقوقًا من القديد وصبّوا فيها الماء وتركوا الجميع على النار حتّى يحصل الامتزاج التامّ فتنزل عن النار وهذه من أعظم وِيِاكِهم. هذا طعام أغنيائهم

٢٨،٣،٣ وأمّا فقراؤهم فقد ذكرنا سابقًا أنّهم يأكلون الدخن بغير تقشير وأنّ أدمهم قبيح جدًّا لأنّه إمّا كَوَل أو ورق الهجليج الصغير الطريّ المسمّى عندهم بالنِيَلْو أو ثفل السمسم أو ثمر الهجليج الأخضر المسمّى عَنَقَلُو أو ثمره الناضج ومِلْح كلّ ممّا ذُكِرَ الرمادُ المسمّى بالكنبو لقلّة الملح وغلوّه وأترف الفقراء من تكون له شياه أو بقرة يحلب لبنها ويأخذ زبده ويأتدم مخيضه ولا يعرفون اللحم إلّا بعد أشهر إن ذبحت في البلد بقرة أو ثور واقتسموها فيأخذ الفقير منهم قسمًا على قدر حاله بأمداد من الدخن لا بشيء آخر ولذلك تجد أكثر شبّانهم يعانون القنيص

٢٩،٣،٣ وقد ذكرنا سابقًا أيضًا أنه في كلّ سبت يضرب الوَرْناگ طبله ويخرج[١] الشبّان كلّهم معه للصيد فكلّ منهم يأتي في المساء بما تيسّر معه لأنّ غاباتهم فيها كثير من الحيوانات الوحشيّة فأكثر ما يصيدونه الأرنب ثمّ الغزال ثمّ أبو الحُصَيْن ثمّ بقر الوحش وإن وجدوا تيتلًا مريضًا أو أخذوه على غرّة قتلوه واقتسموا لحمه والتيتل حيوان وحشيّ على صورة البقر الأهليّ إلّا أنّه أصغر جرمًا فأعظمه كالعجل وله قرنان صاعدان مائلان قليلًا إمّا للخلف أو للأمام طولهما بنحو شبرين وأقلّ ومع وحشيّته فيه نوع بلادة فلا يفرّ إلّا من ناس كثيرين وأمّا من رجلين أو ثلاثة رجال فلا يفرّ بل يثبت مكانه وينظر إليهم نظر المتأمّل ومن عادة الفور أنّهم إذا رأوه ينادونه بصوت عال يا تيتل يا كافر فيصير شاخصًا إليهم كأنّه غير مكترث بهم فلا يبرح من مكانه إلّا إذا يدنون إليه دنوًّا كلّيًّا فحينئذ يمشي رويدًا رويدًا فإن رآهم جدّوا في طلبه هرول والفرق بين التيتل وبقر الوحش المعتاد أنّ التيتل وإن كان نوعًا من بقر الوحش إلّا أنّه أصغر

---

١ الأصل: وتخرج.

جمًا وقرونه تنبت معتدلة كقرن الغزال وبين القرنين من أعلى انفراج كثير ولون التيتل أصفر كلّه وأمّا البقر الوحشيّ فمنهم الأسود والأصفر والأبلق الذي لونه مختلط ببياض كثير وقرونه كقرون البقر الأهليّ في الغلظ والاعوجاج وحجمه كحجم البقر أيضاً وبهذا تعلم أنّ التيتل نوع من البقر وبينه وبين البقر الفروق المذكورة

٣٠،٣،٣ وهناك أناس مشغولون بصيد الحيوانات لا حرفة لهم سواها وكلّ منهم قد أعدّ لذلك عدّة فأمّا الشبّان فيستعينون على الصيد بالكلاب والسفاريك لا غير وأمّا الحدّادون فيحتالون ومنهم طائفة الصيّادين المذكورين لا حرفة لهم سواها وهم على قسمين

٣١،٣،٣ منهم من يتمحّض لصيد ذوات الأربع كالغزال وبقر الوحش والفيل والجاموس والضباع والسباع والخرتيت ونحوها وهؤلاء يجتمعون فرقًا فرقًا كلّ فرقة منهم خمسة أنفار أو ستّة فيأتون للطريق التي يمرّ عليها الفيل وغيره حين وروده على الماء ويحفرون فيها حفرة عميقة أطول من قامة ويدقّون في مركزها وتدًا مدبّب الرأس حادّ السن كالرمح ويصلّبون على الحفرة أعوادًا ضعيفة ويغطّونها بالحشيش ثمّ يغطّون الحشيش بالتراب فيأتي الفِيَلة أو السباع أو بقر الوحش أو الجاموس أو الخرتيت واردة للماء فتمرّ على تلك الحفرة فمتى ما ثقل على الأعواد الوطء تكسّرت تحت أرجلهم وسقط في الحفرة منها حيوان أو اثنان فمتى نزل الحيوان بثقله على الوتد الذي في المركز دخل ذلك الوتد في لحمه فلا يقدر أن يتحرّك حتّى يأتي صاحب الحفرة فيتمّم قتله ويأخذ لحمه بعد سلخ جلده فيعملون اللحم قديدًا وهو المسمّى عندهم بالشراميط لأنّهم يشرمطونه أي يقطعونه سيورًا ويأكلون منه طريًّا

٣٢،٣،٣ فإن كان فيلاً أخذوا سنّه وجلده وقدّدوا لحمه وإن كان خرتيتاً أخذوا قرنه وجلده وقدّدوا لحمه وهذا القديد يأكلون منه ويبيعون منه وكلّ فرقة لها جماعة في البلد يفتقدونهم في كلّ أسبوع ويأتونهم بما يحتاجونه من الزاد وغيره ويكون معهم جمل يحملون ما يجدونه عندهم من القديد والجلود والقرون وسنّ الفيل فيأتون بالجلود فيعملون منها الدرق والسياط ويبيعون العاج وقرن الخرتيت والسياط للتجّار ويبيعون

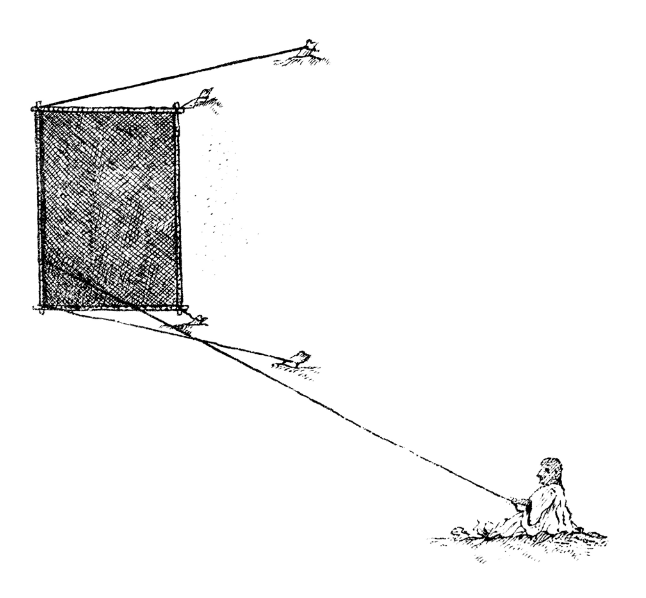
الدرق للعسكر وهم قوم لا عهد لهم ويسمّون الدرامدة فلا يناكحونهم أبداً ولا يتزوّج الدرموديّ إلّا من جنسه

٣٣،٣،٣ ومنهم من يتحيّل على الصيد بأن يأتي لمحلّ الوحوش ويأتي بحبل من قِدّ متين يجعله خُرْتة واسعة فإذا مرّ عليه شيء من الوحش ودخلت رجله في الخرتة وهي دائرة أشبه بالعروة فرفع الوحش رجله انخرطت عليه وهي ماكنة الأوتاد فلا يقدر الوحش على قطعها ولا قلعها فيمكث حتّى يأتوا[1] إليه فيقتلوه[2] ومنهم من يعلو على شجرة يقيّل تحتها الوحش ويكون معه حربة أو حربتان من الحراب الواسعة الحادّة التي هي هكذا فيمكث في أعلى الشجرة حتّى يأتي الوحش ويقيّل ويهدأ فينظر لمن هو قريب منه ويطعنه وهو نائم في بطنه فتنفر باقي الوحوش التي معه ويمكث المطعون فينزل إليه الصيّاد ويتمّم قتله

٣٤،٣،٣ ومنهم من يتمحّض لصيد الطير وأحسن طير يصاد عندهم الحبارى وهو طائر عظيم أكبر من الدجاج الروميّ لونه أبيض يميل إلى الاصفرار والخضرة يسمن في أيّام الدرت سمناً مفرطاً ويكون لحمه طريّاً لطيفاً وهذا يألف دوداً معروفاً عندهم وحشرات صغيرة فيأتي الصيّاد بذاك الدود والحشرات ويكون معه خيط قد فتله من العصب فتلاً جيّداً وهو رفيع لا يكاد أن يرى للطائر ويقصد المحالّ التي يصيد فيها فمتى رأى الصيّاد الحبارى في محلّ ربط حشرة أو دودة في خيط وربط الخيط في أسفل شجرة ويذهب إلى الحبارى فيسوقها وفي الحبارى بلادة لا تكاد تطير حتّى يقرب الإنسان أن يمسكها فيسوقها لجهة الحشرة أو الدودة حتّى تراها فمتى ما رأتها هرعت إليها وابتلعتها ولمّا صارت الحشرة في حوصلتها وأرادت تذهب يمنعها الخيط من الذهاب فيأتي الصيّاد فيذبحها ويضعها معه ويربط في الخيط حشرة أخرى إن كان هناك حبارى ويوجد أيضه طير آخر يسمّى أبا طَنْطَرَة وهو أبيض وهو طائر أكبر من الحبارى بقليل وله في عنقه كيس طويل مخروطيّ الشكل أسفله واسع وأعلاه ضيّق يبتلع الحشرات أيضاً كالحبارى

[1] الأصل: فياتون. [2] الأصل: فيقتلونه.

٣٥،٣،٣ ومنهم من يصيد الطيور الصغيرة بالشباك وهذا أقلّ الدرامدة كسباً لكونه يغرم حَبّاً إذ العصافير وأبو موسى وأمثالها لا تقع إلّا على الحبوب فيأتي في المحلّ الذي يريد الصيد فيه بحيث يكون قرب نهر أو بركة وينصب شبكته وهي شبكة مربّعة وصورتها هكذا



ولها أربعة أوتاد وتدان منها مربوطان لصق ركنيها ووتدان مربوطان في حبلين طويلين في ركنيها الآخرين[١] فيدقّ الأوتاد في الأرض وفي قرب أحد أركانها الوحشيّ حبل متين طويل جدّاً فينصب الشبكة ويبذر الحبّ أمامها ويأخذ طرف الحبل الطويل ويمكث بعيداً عنه فمتى نزلت الطيور وكثرت على الحبّ كفأ الشبكة عليها بالحبل الذي في يده وعيون الشبكة ضيّقة جدّاً فلا يخرج منها عصفور ولا يفلت منها شيء فيأتي صاحب الشبكة ويأخذ الطيور منها فإن كان فيها ما هو غالي الثمن كالدُرّة أو الببغاء ونحوه أخذ ريش جناحيه وتركه في مِكَلّه وإن لم يكن فيها ذلك ذبحها كلّها وبذر حبّاً آخر وحين كنت هناك كانت لي شبكة وكنت أصطاد بها في بيتي فطالما شبعت

١ في الأصل: الاخريين.

من العصافير بصيدي بها وهناك من هو مغرم بصيد القرود والنسانس في الجبال ولا أعرف كيفيّة اصطيادهم بها

٣،٣،٣٦ وأحسن من ذلك كلّه الصيد بالبارود لأنّ الإنسان هناك متى ما كان معه بندقة جيّدة يشبع من لحوم الحيوانات بغير مشقّة ومن الأغنياء من يشتري من الدرامدة عبدًا ولا يكلّفه إلّا بالصيد فلمّا نصح ذلك العبد أشبع سيّده من اللحم ولقد رأيت عند شيخنا الفقيه مدنيّ عبدًا يسمّى سعيدًا مسنًّا فأخبرني أنّه صيّاد وأطعمني لحم غزال وذكر أنّه من صيده وأنّه لا بدّ له في كلّ جمعة أن يأتي له باللحم مرّتين أو ثلاثًا فصرت أتمنّى أن يكون لي عبد مثله فما عثرت عليه

٣،٣،٣٧ وقسم متمحّض لصيد الزراف والنعام وهم أعراب البادية كالمحاميد والزَبَدَة والعريقات بدار الواداي والمجانين والزَيَاديّة وبني جرار والعريقات بدار الفور وكلّ من هؤلاء يصطاد على الخيل فأكثرهم صيدًا أسبقهم جوادًا ثمّ إنّ الإنسان منهم إذا رأى صيدًا وتبعه لا يقفو أثره بل يباريه حتّى يحاذيه ومتى تمكّن من فريسته عقرها فأمّا النعام وإن كان شديد العدو فيوجد من يلحقه وأمّا الزراف فلا يكاد يلحقه في العدو فرس ولذلك لا يلحقه إلّا الفرس الذي يمرّ كالريح وأعراب البادية في دارفور ودار واداي منعّمون فيما يشتهون لا يحتاجون إلّا إلى الدخن والذرة والملبوسات لكن يشترون ما يحتاجونه من ذلك بما زاد عن كفايتهم من السمن والعسل والمواشي وجلود الصيد والبقر والإبل حتّى إنّهم يجلبون لدار الواداي ولدار الفور الأجربة والقرب والبُطَط والحبال المصنوعة[1] من سيور الجلد ويسمّون هذه الحبال الجلديّة بالوَجّ والسياط وغير ذلك

٣،٣،٣٨ وأمّا السمن فمن أنعامهم والعسل فمن الأشجار لأنّ النحل يعشّش فيها وهم يجتنونه والصيد كثير فلذا ترى ريش النعام عندهم لا قيمة له وكذا قرن الخرتيت وحين كنت في دار الواداي جاء بعض التجّار من فزّان يطلب ريش النعام وطلب من الشريف أحمد الفاسيّ الذي توزّر بعد أبي أن يكتب له كتابًا إلى الشيخ شوشو شيخ المحاميد بالوصيّة عليه وأن يأمر الأعراب بالصيد له برفق في الثمن وكان معه خمسون ريالًا فرانسا[2]

١ الأصل: وبطط وحبال مصنوعة. ٢ الأصل: من الفرانسا.

فكتب له الشريف بذلك فأخذ الكتاب وتوجّه إلى المحاميد بدليل من العرب ومكث هناك ما شاء الله أن يمكث ولمّا جاء أخبرنا بأنّه حين وصل إلى حيّهم وسأل عن بيت الشيخ دلّ عليه فنزل في أكرم ضيافة وأرحب نزل ولمّا أراهم كتاب الشريف زاد الشيخ في إكرامه وبالغ في التلطّف والبرّ[1] به وأفرد له بيتاً من الشعر بفرشه وجميع ما يحتاجه ووكّل وصيفاً ووصيفة لقضاء مهمّاته

٣٩،٣،٣ وكان ذلك التاجر أخذ معه هديّة للشيخ المذكور فقدّمها له فقبلها منه وأثاب عليها ثمّ إنّ التاجر سلّم للشيخ الخمسين ريالاً فطلب الشيخ العرب وقال لهم هذا رجل غريب أضافني والتجأ إليّ ويريد ريش النعام فمن كان له أرب في الريالات فليغد للصيد من الصباح وكلّ من أتى بجلد ظليم فله نصف ريال ومن أتى بربداء فله ربع ريال فاهتزّ العرب لمطلبه وأصبحوا قانصين ففي يوم واحد جاءوا بنحو عشرين ظليماً فمكث عندهم نحو من عشرين يوماً فجمع فيها نحو مائة جلد ظليم وحملها له الشيخ على إبله وزوّده بزاد كثير وكان من جملة ما جاء به دهن النعام فإنّه جاء منه بكثير وأتى ومعه من العسل والكَنَيكَنْيا[2] والسَرَنة والكَرْنُو شيء كثير وباع في وارة الظليم بثلاثة ريالات ولم يبق معه إلّا نحو عشرة من الجلود وربح ربحاً كثيراً

٤٠،٣،٣ وأمّا الزراف لا نفع في المتجر إلّا بجلوده يبيعونها وأمّا لحمه فيأكلونه طريّاً وقديداً ويوجد عند العرب من الأرز والدفرة والكوريب والهجليج والتمر هنديّ والعسل والكرنو والسرنة ما لا يوجد عند غيرهم وأمّا اللبن فلا قيمة له عندهم لكثرته. يأخذون منه السمن ويرمون رائبه حتّى إنّ من أتى إلى أحيائهم وخصوصاً أحياء الرزيقات والمسيريّة[3] الحمر والحبّانيّة يجد الغدران والبرك القريبة منهم كلّها لبناً

١ الأصل: واكبر. ٢ الأصل: والكَنْياكُنْيا. ٣ الأصل: ومسيرية.

فصل في معاملة أهل دارفور

٤١،٣،٣ قد تقرّر في علم التوحيد أنّ الحق تعالت أسماؤه غنيّ عن المحلّ والمخصّص فهو صاحب الغناء المطلق لا يحتاج إلى أحد من خلقه وجميع الخلائق لفضله محتاجون ولنواله سائلون وعلى أبواب رحمته مزدحمون فنظر إليهم بعين رحمته ووهب لكلّ منهم ما يقوم به وبعائلته وفضّل بعضهم على بعض في الرزق فجعل منهم الملوك ومنهم الغنيّ ومنهم الصعلوك وجعل لهم أسباباً يتبعونها في طلب الأرزاق وأمر بالسعى والاجتهاد خوف الإملاق

٤٢،٣،٣ ومن عظيم مِنَّتِهِ أن جعل البيع والشراء حلالاً بين الناس لينالوا ما في نفوسهم ويذهب عنهم الباس فجعل في البلاد المتمدّنة النَقْدَيْنِ قرّة للعين ينالون[1] بهما ما يحتاجونه من أمور معاشهم ويضطرّون إليه فى ارتياشهم وخصّ سبحانه وتعالى كلّ مملكة بسكّة معروفة ودراهم ودنانير بينهم مألوفة

٤٣،٣،٣ لكن لمّا كانت أهل السودان في بون عن التمدّن العظيم وفي ظلمة وحشيّة كالليل البهيم كان أغلبهم لا يميّز الذهب من النحاس ولا القصدير من الرصاص حتّى من كان في بلادهم معدن الذهب يبيعونه تبرًا ويرون أنّ بيعه كذلك أحرى وسيّما مملكة دارفور ليس بها شيء من المعادن إلّا ما جلب إليها من الأقطار حتّى إنّ أعظم حليّ نسائهم كما تقدّم من أنواع الأحجار فهم جديرون أن يكونوا بمعزل عن المعاملة بالفضّة والنُضار لكن لمّا وطئت بلادهم التجّار وتمصّرت بالمتاجر فيها الأمصار احتالوا إلى سكّة بها يتعاملون ويشترون بها ما يشتهون فانقسموا في ذلك أقساماً وأذهب كلّ قسم منهم بما اصطلح عليه من المعاملة يواماً[2]

٤٤،٣،٣ فأوّلها الفاشر وهو مقرّ السلطنة وتخت المملكة. جعلوا من القصدير خواتيم يشترون بها ما يحتاجونه من لحم ودجاج وطيب وحطب وخضراوات وغير ذلك وتسمّى بالفوراويّة تَارْنَيَهْ وهي على قسمين غليظة وتسمّى تَارْنَيَهْ تُونْقَانَيَهْ ورفيعة وتسمّى تَارْنَيَهْ بَيَّيَا يتعاملون بها فى سفاسف أمورهم كما ذكرنا والأمور المهمّة يتعاملون فيها بالتكاكى

---

١ الأصل: يتنالون. ٢ الأصل: أُوامًا.

جمع تُكِّيَّة وهي شقّة من غزل قطن طولها عشرة أذرع وعرضها ذراع وهي على نوعين شِيكه وهو منسوج خفيف غير مندمج وكَتَكات ومنسوجها ثقيل مندمج فمن الأوّل كلّ أربع تكاكى بريال فرانسا ومن الثاني كلّ اثنين ونصف بريال فرانسا وما عدا ذلك فبيعهم كلّه استبدال شيء بشيء والأمور العظام عندهم تباع بالرقيق فيقال هذا الفرس بسُداسيَّيْن أو بثلاثة سداسيّاً والسداسيّ عندهم العبد الذي إذا قيس بالشبر من كعبه إلى شحمة أذنه كان طوله ستّة أشبار والسداسيّة كذلك وقيمة السداسيّ من التكاكى ثلاثون تكّيّة ومن الشواتر الزرق ستّة والبيض ثمانية ومن البقر ستّة ومن الريالات فرانسا عشرة ريالات وكل إنسان يشتري بما عنده ولا يعرفون المحبوب ولا القرش ولا الفرانك ولا الخيريّة ولا شيء من معاملات أهل المدن سوى الريال الفرانسا المسمّى عندهم أبا مدفع

٤٥،٣،٣ وأمّا أهل كوبيه وكبكابيّة وسرف[١] الدجاج فإنّهم يتعاملون بالحَرَش وهو خرز ليس بالغليظ ولا بالرفيع منه أخضر ومنه أزرق. يعمل سبحاً كلّ سبحة مائة حبّة وقد قدّمنا الشرح عليه في حليّ النساء وزينتهنّ فيتعاملون به في سفاسف الأمور عوضاً عن التارنيه في الفاشر ومن العجائب أن التارنيه في هذه الأسواق الثلاثة لا تسقي شربة ماء بل المعاملة بالحرش من خمسة[٢] حبّات إلى مائة ومن سبحة إلى عشرة إلى ما لا نهاية له وقيمة التكّيّة عندهم ثماني[٣] سبح وبقيّة الأحوال كالفاشر

٤٦،٣،٣ وأمّا قرلي وما وليها[٤] فيتعاملون بالفلقو وهو ملح صناعيّ مستخرج تراباً من الأرض ويصبّون عليه الماء على غالب ظنّي لرسوب الأوساخ والأتربة ويصفّي ويقطرون ماءه لنقص هذا الماء ويتلقّون المقطّر منه في قوالب كالأصابع فيجمد بعد برودته ويصير كالأصابع وقد شاهدت محالّ استخراج هذا الملح ورأيت أواني التقطير ويشابهون البرام الأفرنجيّة ولا نعلم من أوصل هذه الصناعة إليهم وأهل البلد لا يعلمون أيضاً بل قصارى أمرهم إذا سئلوا وقال لهم قائل من علّمكم هذه الصناعة أن يقولوا شيء وجدنا آباءنا يفعلونه ففعلناه ولا نعرف أوّل من صنعه ولقد عاملت بهذا

---

١ الأصل: صرف. ٢ كذا في الأصل. ٣ الأصل: ثمان. ٤ الأصل: ولاها.

الملح واشتريته وله لذّة عجيبة في طعمه تخالف لذّة الملح الطبيعيّ إلّا أنّه غير شفّاف وفيه سمرة

٤٧،٣،٣ وأنواع الملح في دارفور ثلاثة: زغاويّ وهو ملح طبيعيّ يخرج من بئر الزغاويّ وفلقو[١] وقد قدمنا ذكره وميدوبيّ وهو ملح طبيعيّ أيضاً إلّا أنّه لونه أحمر كالدم وقد يستخرج قطعاً كباراً كأحجار[٢] الطاحون في العظم والاستدارة وثقله لا يحمل الجمل منه إلّا حجرين وله طعم لذيذ أكثر من النوعين الآخرين وأغلى ثمناً منهما ولا نعلم ما سبب احمراره وبالجملة فأغلى الأملاح الميدوبيّ وأوسطها الفلقو وأدناها الزغاويّ فأهل سوق قرلي وما وليها[٣] يتعاملون بالملح الفلقو في سفاسف أمورهم كالحرش في كوبيه والتارنيه في الفاشر ولا يباع عندهم الملح بكيل ولا وزن بل بالأصابع فيباع هذا الشيء بفلقويه بفلقويتين[٤] بثلاثة فلقويّات وهكذا وباقي الأمور هم كغيرهم

٤٨،٣،٣ وأمّا سوق كُسَا فيتعاملون فيه بالدخان ويسمّى بلغتهم تابا كما يسمّونه الإفرنج وهذا الاتّفاق من العجائب ولا خصوصيّة لأهل دارفور بل جميع السودان يسمّون الدخان تابا وأما أهل فزّان وأهل طرابلس المغرب فيسمّونه تبْغاً وفي سنة ١٢٣٢ رأيت قصيدة لبعض البكريّين في حلّ شرب الدخان وأظنّ تاريخ كتابتها في وسط القرن التاسع من الهجرة يقول فيها [طويل]

وَقَدْ أَظْهَرَ اللهُ ٱلْقَدِيرُ بِمِصْرِنَا   نَبَاتاً يُسَمَّى ٱلتَّبْغَ مِنْ غَيْرِ مُرْيَةِ
بِتَاءٍ مُثَنَّاةٍ وَبَاءٍ مُوَحَّدٍ   وَغَيْنٍ وَضَبْطُ ٱلْغَيْنِ فِيهَا بِفَتْحَةِ

ومنها

وَمَنْ يَدَّعِي ٱلتَّحْرِيمَ جَهْلاً فَقُلْ لَهُ   بِأَيِّ دَلِيلٍ أَمْ بِأَيَّةِ آيَةِ
وَلَيْسَ بِهَا سُكْرٌ وَلَا اللهُ ذَمَّهَا[٥]   فَقَوْلُكَ بِٱلتَّحْرِيمِ مِنْ أَيِّ وِجْهَةِ

١ أضيف للسياق. ٢ الأصل: كالحجار. ٣ الأصل: ولاها. ٤ الأصل: بفلقوبه بفلقوتين. ٥ الأصل: زمها.

ومنها

فَإِنْ تَنْتَشِقْ دُخَّانَهَا فَتَرَى ٱلشِّفَـا فَلَا تَنْسَ بِٱسْـمِ ٱللّٰهِ أَوَّلَ مَـصَّةِ
وَقُلْ بَعْدَ ذَاكَ ٱلْحَمْـدُ للّٰهِ وَحْـدَهُ فَحَـمْدُكَ لِلْمَوْلَى زِيَادَةُ نِعْـمَةِ

٤٩،٣،٣ انتهى. وهذا التابا هو أقماع أهراميّة الشكل مصنوعة من ورق الدخان بعد دقّه وهو أخضر فى مهراس من خشب حتّى يصير كالعجين ويجعلونه أقماعًا ويجفّفونها في الشمس وبعد جفافها يبرزونها إلى سوقهم ويتعاملون بها في سفاسف أمورهم وهذا الدخان قويّ الرائحة يكاد إذا شمّه إنسان أن يأخذه الدوار وهذه[١] الأقماع منها ما هو كبير ومنها ما هو صغير فكبيرها كأكبر الكمّثرى وصغيرها كصغيرها

٥٠،٣،٣ وأمّا كريو والريل والشعيريّة فإنّهم يتعاملون فيها بالرُبَط وهي ربط غَزْل من قطن طولها عشرة أذرع وفيها عشرون فتلة لا غير فيتعاملون بالربط في سفاسف أمورهم ويتعاملون في الأمور التافهة جدًّا بالقطن كما يُجتنى من شجرته أي بغلافته التي خرج منها فيتعاملون بقطع منه كأوقيّة وأوقيّتين وثلاث أواقٍ على سبيل الحدس والتخمين لا بالوزن والأمور المهمّة كباقى الأسواق

٥١،٣،٣ وأمّا سوق نمليه وما والاها فمعاملتهم بالبصل يشترون به جميع أمورهم التافهة والقطن أيضه والربط وباقى أمورهم بالتكاكي ولا يعرفون الشواتر ولا الريالات

٥٢،٣،٣ وأمّا سوق راس الفيل فبالحشّاشات وهي قطع من حديد مصنوع صفائح ولها أنبوبة وصورتها هكذا فيدخلون في طرفها الأنبوبيّ قضيبًا ويحرثون بها الزرع فتقطع الحشيش الذي في الزرع ولذلك سمّيت الحشّاشة فيتعاملون بها في سفاسف أمورهم وتافهها من حشّاشة إلى اثنين إلى عشرين وما زاد على ذلك فبالتكاكى والشواتر كباقي الأسواق

٥٣،٣،٣ وأمّا تموركه فمعاملتهم بدمالج النحاس وهي في مهمّات أمورهم وبالخدّور في سفاسف أمورهم وقد تقدّم تعريف الدمالج والخدّور في حليّ النساء فلا إعادة

١ الأصل: ومن هذه.

وأمّا أهل القوز فيتعاملون بالدخن فى سفاسف أمورهم كلّها كقبضة وحفنة وحفنتين إلى نصف مُدّ وباقي أمورهم المهمّة بالتكاكي والريالات كباقي الأسواق وأكثر ما يتعاملون به البقر فيقولون هذا الفرس بعشر بقرات أو بعشرين ٥٤،٣،٣

فانظر أيّها المتأمّل إلى أهل مملكة واحدة كيف تنوّعت معاملاتها واختلفت أحوالها فترى هؤلاء يرون شيئاً حسناً وهؤلاء يرونه قبيحاً والملك لا يحكم عليهم بإجراء معاملة واحدة في جميع الأسواق بل أبقى كلّ قوم على ما اعتادوا فسبحان الفعّال لما يريد ولنمسك عنان القلم عن الركض في ميدان المعاملات لأنّ ما ذكرناه فيه كفاية في الاعتبارات ٥٥،٣،٣

باب فيما ينبت في دارفور من النبات
وفي السحر والتعزيم وضرب الرمل وغير ذلك

اعلم أنّ الغنيّ عن المتى والأين والكيف والمنزّه عن الجور والظلم والحيف قسم الأشياء وعدّلها وأنزل كلّاً منها منزلها فجعل في البلاد الشماليّة البرد الشديد وفي الجنوبيّة الحرّ الذي ما عليه من مزيد لكن لرحمته بعباده منّ على أهل الشمال بالدفء بالملابس وبالأكنان التى لا يبرد فيها المجالس ونظر لأهل الجنوب بعين الإسعاف والتلطيف فجعل المطر ينزل عليهم وقت اشتداد المَصِيف ١،٤

ولمّا كانت أرض الفور من هذا القبيل وفي وقت الصيف يشتدّ فيها الغليل كان مدرار الوبل مطفئاً لوهج ذلك الحُرور لطفاً من العزيز الغفور فيزرعون على مطر الصيف ويسمّون ذلك الفصل بالخريف فلذلك على ظنّي لا يزرعون بُرّاً ولا شعيراً ولا فولاً ولا عدساً ولا حمّصاً ولا ينبت عندهم المشمش ولا الخوخ ولا التفّاح ولا الرمّان ولا الزيتون ولا البرقوق ولا الكمّثرى ولا الترنج ولا الليمون الحلو ولا «البرتقان» ولا اللوز ولا البندق ولا الفستق ولا الجوز ولا الزعرور ونحو ذلك ٢،٤

بل يزرعون الدخن وهو حبّ صغير أصفر منه يقتاتون هم ودوابّهم ومواشيهم فهو الغذاء الرئيس عندهم ويزرعون الذرة على اختلاف أنواعه ويسمّى عندهم الماريق وهو أنواع فنوع منه يسمّى العزير وهو الذرة الحمراء ونوع يسمّى أبا شَلَوْلَوْ وهو الذرة البيضاء ونوع يسمّى أبا أَباطَ وهو الذرة المعروفة في مصر بالذرة الشاميّ ولا يزرع القمح عندهم إلّا في جبل مرّة لكثرة الأمطار فيه أو في كوبيه وكبكابيّة ويسقونه من الآبار حتّى يتمّ نضجه كما تقدّم ذلك والدخن عندهم نوعان نوع معتاد و[1]نوع يسمّى دِنْبي وهو ما يزرعه أعجام الفور في الجبال وغيرها وهو حبّ كالدخن المعتاد إلّا أنّه ٣،٤

١ نوع معتاد و – أضيف للسياق.

يميل إلى البياض وسنبله أغلظ منه وينضج زرعه قبله بنحو عشرين يوماً وهو قليل في سهل دارفور ولا يألفونه كالدخن الأصفر وأمّا أنواع الذرة فلا يألفون منها إلّا الأبيض ومع ألفتهم له لا يكثرون من تناوله وأمّا أبو أباط فيزرعون منه قليلاً للشهوة فيأكلونه مشوياً ولا يخزنون منه حبّاً وأمّا العزير فهو مبغوض عندهم لا يأكله إلّا الفقراء وعند الاضطرار وينبت عندهم في البرك والغدران أرزّ ينبت بدون زارع فيجمعون منه ما قدروا عليه في أيّام الربيع فيطبخونه باللبن من قبيل الترفّه وعندهم نوع آخر يقرب من الأرزّ وليس بأرزّ ويسمّى بالدِفْرة وهو حبّ صغير أصغر من حبّ الأرزّ وفيه بعض فرطحة شديد البياض يألفونه أكثر من الأرزّ

٤،٤ ويزرعون من السمسم شيئاً كثيراً ومن العجب أنّهم لا ينتفعون منه بزيت بل يأكلونه حبّاً ويطبخون منه في أطعمتهم. كما أنّ العسل النحليّ كثير عندهم ولا ينتفعون بشمعه بل يأخذون العسل ويرمون الشمع وهم أحوج الأنام إليه وإلى زيت السمسم لأنّهم يستصبحون في بيوتهم بالحطب ومع كثرة الحطب عندهم لا يفحمون منه فحماً ينفعهم ولا يعرفونه

٥،٤ ويزرعون اللوبيا والبطّيخ مع الدخن سواء فأمّا اللوبيا فهي كاللوبيا بأرض مصر إلّا أنّها أكبر لأنّها عندهم تقرب من حبّ الفول المصريّ وأمّا البطّيخ فأكثره صغير الجم كالبطّيخ الذي يكون فى آخر فصل البطّيخ فى المقثأة وإذا كسر يكون غير نضيج لكن الذي في دار الفور مع صغره نضيج ولهم في البطّيخ ثلاث منافع الأولى أنّهم يأكلون منه حال نضجه كما نأكل بطّيخنا ويشربون ماءه كذلك الثانية أنّهم يأخذون البطّيخة وينزعون قشرها بالسكّين ثمّ يقطعونها أربع قطع ويتركونها حتّى تجفّ فيخزنون منه من هذا القبيل شيئاً كثيراً وفي وقت الاحتياج يدقّونه في مهراس من خشب حتّى يصير دقيقاً فيعملون منه حَسُوّاً يشرب وتسمّى عندهم مديدة وهي المسمّاة بعرف الأوروبّا بالكريمة وربّما أكلوا منه بغير دقّ ولا طبخ الثالثة أنّهم يجمعون من البزر شيئاً كثيراً ويخزنونه ويدقّونه وقت الاحتياج وينسفون قشره ويأخذون اللبّ فيطبخونه في أدمهم أو يعملون منه الكريمة أيضاً

٦،٤ ويـزرعون البصل والثوم والفلفل وهو حبّ صغير والكسبرة وحبّ الرشاد في كوبيه وكبكابيّة وفي أودية جبال الفور كما تقدّم ويـزرعون القرع بأنواعه ويـزرعون نوعًا من القثّاء وفي كوبيه وكبكابيّة يـزرعون الخيار والفقّوس الطويل والباذنجان والملوخيّة والبامية وفي غيرهما لا وهناك واد بين البلد المسمّاة[1] بمربوطة والفاشر يسمّى وادي الكوع يفيض وقت الخريف من كثرة الأمطار فلا يعبره إلّا من يعرف السباحة وفيه تيّار شديد فإذا فاض هذا الوادي وطفا الماء على شاطئيه ثمّ نضب ينبت فيه من البامية شيء كثير فيهرعون إليه من الجهات القريبة له ويجمعون تلك البامية ويجفّفونها ويدّخرونها لأدمهم العام كلّه[2] وهذا الوادي يشقّ دارفور بالعرض من أوّلها إلى آخرها ونشاؤه من جبال مرّة وعلى شاطئيه سياج من شجر السنط وإذا فاض يعمّ من كلّ جهة من جهتيه ما ينوف عن فرسخين إلّا في بعض المحالّ ضايقته الرمال وسعته في بعض المحالّ كخليج مصر وفى بعضها أوسع بمرّتين. يسافر المسافر على شاطئه نحو خمسة عشر يومًا وإنّما ذكرت أنّه بين مربوطة والفاشر لأنّي مررت به كثيرًا من هناك وإلّا فهو ممتدّ كما ذكرت ويـزرعون فولًا قرونه تكون تحت التراب وليس كالفول المسمّى في مصر السنّاريّ الآن لأنّ ذاك فيه ألوان عجيبة من أحمر ناصع وأصفر وأبيض وبنّيّ كما تقدّم ذلك

٧،٤ وأمّا الأشجار فليس عندهم من الأشجار المعروفة إلّا النخل وهو في كوبيه وكبكابيّة وسرف الدجاج ونمليه كمّا تقدّم ذلك في التكلّم على جبل مرّة وفي نمليه بعض شجر من الموز وفي قرلي شجرات من الليمون الحامض وبقيّة الأشجار الموجودة هناك كلّها نابتةٌ طبيعةً في الخلاء فأعظمها منفعة الهجليج وله نوعان الهجليج الأصفر والهجليج الأحمر وذلك بحسب لون ثمرها وهذا الثمر كالبسر الغليظ والهجليج شجر يعظم كما يعظم الجُمَّيْز في أرض مصر أوراقه بيضيّة قليلًا وله ثمر حلو الطعم ببعض مرارة وله رائحة خاصّة به ولهذا الثمر غلاف يكون عليه وهو قشرة ليست بالغليظة ولا بالرفيعة فينزعونها ويمصّون الثمر مصًّا لأنّه خشب مكسوّ بشيء كالطلاء يمتصّ أو يبلّ بالماء فإذا ذهب

١ الأصل: المسمة. ٢ الأصل: كلها.

صار الخشب أي نواه أبيض وهو غلاف لشيء كالصنوبر هيئةً وبياضاً وهو بزر إلّا أنّه أكبر منه حجما لكنّه مرّ الطعم فيعطنونه في الماء نحو ثلاثة أيّام ويغيّرون ماءه في كلّ يوم فتذهب مرارته وحينئذ بعضهم يملّحه بالملح وبعضهم يقلوه وبعضهم يطبخه بالعسل وإذا كان مملوحاً كان طعمه كطعم اللوز المملوح وهناك نوع ثاني من الهجليج وهو الهجليج الأحمر فيأخذون لبّه بعد نضجه ويضيفون عليه الصمغ ويعجنونه به فيصير حلواً مرًّا لذيذاً وعلى الإطلاق يأكلون ثمر الهجليج على كيفيّات مختلفة

٨،٤ ولشجر الهجليج هذا منافع لا توجد عندهم في غيره من الأشجار. لا يرمون منه شيئاً بل ينتفعون بجميع أجزائه فأمّا ورقه[١] فإنّهم يطبخون الطريّ الغضّ منه في أدمهم وإذا كان بإنسان جرح[٢] فيه دود يمضغون من هذا[٣] الورق حتّى يصير كالعجين وينفخونه في الجرح فينقى من الدود وينظّف من اللحم النتن ويأخذ في البرء وإذا أخذ ثمر الهجليج وهو أخضر وهُرس في مهراس حتّى صار كالعجين نفع كالصابون في غسل الثياب فإنّ له رغوة كالصابون يُنقّي الأوساخ وينظّف الثياب المغسولة به إلّا أنّه يصفّرها قليلاً وإذا لم يكن وقت الثمر تؤخذ جذور الشجرة وتُدقّ ويُغسل بها فتفعل ذلك وخشبه يستصبح به في البيوت بالليل عوضاً عن السراج لأنّه لا دخان له ومن خشبه تعمل ألواح القراءة ومن رماده يعمل الكنبو وهو ملح سائل يؤخذ من الرماد المذكور ويطبخ به إلّا أنّ به مراراً وذلك عند إعوازهم للملح لقلته وغلوّه

٩،٤ والنبق وهو نوعان عربيّ وكَرْنو والثاني أكبر حجماً من الأوّل وأكثر لحماً ويخالفه في اللون فإنّ النبق المعتاد العربيّ إذا نضج احمرّ لونه والكرنو إذا نضج اصفرّ وهذا أنفع من الأوّل ومن منافعه أنّ الثمر عجينه يمسك إطلاق البطن وقبل ما يدقّ ويعجن ينحت جلدته الظاهرة ثمّ يعملون منه أقراصاً ويجففونها ويأكلونها وإذا كسر نواه يوجد فيه بزرتان في مسكنين والعرب يأخذون هذا البزر الصغير ويجفّفونه فى الشمس ثمّ يطبخونه بالعسل فيصير لذيذاً ويبيعونه في دار الفور ويسمّى كَنِيكنيا فيؤكل كالحلوى وإذا مضغ من به دود القرع[٤] من ورق النبق الكرنو وازدرد ريقه قتل دود القرع[٥] وأخرجه ميتاً

١ الأصل: ورق. ٢ الأصل: جراح. ٣ الأصل: هذه. ٤ الأصل: القرح. ٥ الأصل: القرح.

والتبلدي وهو شجر عظيم ضخم أجوف الجذع ينبت في الفيافى وأهل البادية إذا اشتدّ بهم العطش في غير وقت الأمطار يأتون إلى التبلدي فيجدون في تجويفه ماء مجتمعاً من المطر فيشربون منه ويذهب أوامهم ولهذا الشجر ثمر مستطيل كبير كالألواز في باطنه بزر أحمر كحبّ الترمس في الجم وكبزر الخرّوب فى اللون إلّا أنّه فيه دقيق أبيض حامض الطعم يستفّ منه فيوجد مرًّا والاستفاف منه على الريق يقبض إطلاق البطن وتعمل منه الكريمة مع الدقيق فتصير لذيذة ١٠،٤

وشجر الدُلَب وهو المسمّى في عرف مصر بالجوز الهنديّ إلّا أنّ هذا الشجر لا يوجد في جميع دارفور بل لا يوجد إلّا في الجهة الجنوبيّة منها ويسمّى في عرف الفور بالدَلَيْب وهو شجر طوال كالنخل أو أطول وينتج جوزاً كبيراً إذا كسر غلافه وجد ماء في باطنه في غاية اللذّة لا سيّما قبل تمام نضجه فإنّه يكون كاللبن مع الحلاوة واللذّة ١١،٤

ومن أشجارهم الحُمَيِّض وهو شجر شائك كأضخم ما يكون وله ثمر كالتفّاح الكبير إلّا أنّ له عَجَماً وفيه حموضة لذيذة ولونه أبيض يميل إلى الصفرة ومن أشجارهم الدوم وهو شجر معروف فى صعيد مصر ويسمّى بالمُقْل أيضاً ومن أشجارهم العَنْدُراب وهو شجر متوسّط في الطول والغلظ يحمل ثمراً أشبه بعنب الذئب إلّا أنّه أحمر قانئ الحمرة ولا عجم فيه وهذا الثمر حلو[١] الطعم جدّاً ينضج في أوّل فصل الدرت أي الربيع بلغتهم وهو أوّل فصل الخريف عندنا ١٢،٤

ومن أشجارهم القِدِّيم وهو شجر أشبه بشجر[٢] الرمّان يحمل ثمراً صغيراً ذا فلقتين عليه جلدة حمراء ناصعة الحمرة في غاية الحلاوة وعجمه كبير ولا أجد له شبيهاً في فواكهنا أمثّله به ١٣،٤

ومن أشجارهم شجر المُخَيِّط وهو شجر صغير يحمل ثمراً كالنبق فيه مرار فيؤخذ وينقع في الماء أيّاماً فتذهب مرارته فيرشّ عليه الملح ويطبخ ويؤكل ومن الناس من يجفّفه بعد النقع ويسحقه حتّى يصير دقيقاً وتعمل منه عصيدة وهذا الفعل خاصّ بأيّام الغلاء واشتداد الكرب ١٤،٤

---

١ الأصل: حلوا. ٢ الأصل: شجر.

١٥،٤ ومن أشجارهم اللُولُو وهو شجر يقرب من شجر الجوز المسمّى بعين الجمل. يحمل ثمراً كثمر أبي فروة إلّا أنّ ثمر أبي فروة فيه تفرطح وهذا كحبّ البندق لكنّه أكبر من البندق في الحجم يساوي حجم أبي فروة وأبو فروة هو المسمّى في بلاد الترك بالكاستنا وفي تونس بالقَصْطَل ولهذا الثمر لبّ دسم ولا يوجد إلّا في الجهة الجنوبيّة في آخر دارفور أي في جهة بلاد الفرتيت وأهل تلك الناحية يعصرون منه زيتاً ولقد رأيته ووجدته أكثر شبهاً بالشيرج فى الهيئة وبزيت الزيتون في الطعم فيدهنون منه ويجعلونه أدماً في أطعمتهم ويوجد الخَرّوب والجمّيز لكنّهما رديئين لا ينفعان بشيء

١٦،٤ ويزرعون القطن بنوعيه البلديّ ويسمّى عندهم بالعربيّ والهنديّ ويسمّى عندهم بلَوِيّ وينتفعون عنه أتمّ المنافع لأنّ منه كساويهم وبه معاملتهم كما قدّمنا ذلك في باب المعاملات

١٧،٤ وأمّا الأشجار التي لا يؤكل لها ثمر فكثيرة جدّاً تكاد ألّا تدخل تحت حصر ولكن نذكر أشهرها وأنفعها فنقول من أنفعها العُشَر وهو شجر قصير متعدّد الفروع جذعه مكسوّ بشيء أبيض كالشحم إذا ضغط بين الأصابع يتفتّت ورقه كبير وإذا كسر يخرج منه عصارة بيضاء كاللبن وله ثمر كالكرة باطنه ممتلئ بشيء كالزغب أو الوبر يتطاير في الهواء لخفّته ولهذا الشجر منافع منها أنّ عصارته إذا وضعت على جلد حيوان أزالت شعره ويلحّون لحاءه فتوجد فيه خيوط رفيعة كالحرير فتجمع ويفتل منها خيوط تنفع لخرز القرب ويفتل من اللحاء حبال فتنفع للربط والحمل والوبر الذي في الثمر تسدّ به خروق القرب ومن عادتهم إذا سرقوا حماراً أو فرساً وأرادوا تغيّر شعر موضع منه يدهنون المحلّ الذي يريدون تغيّره بهذه العصارة فيذهب الشعر ويخلفه شعر أبيض فيشتبه على أربابه لكن منهم من يعرف ذلك للاعتياد به وخشبه خفيف كخشب القَفَل ورأيتهم يسوّدون البارود بفحمه وفي اسبتاليّة أبي زعبل شجرة منه وفي الصعيد كثير منه أيضه

١٨،٤ منها شجر يسمّى الحَشَاب وهو شجر ذو شوك ومنه يؤخذ الصمغ العربيّ ولقد رأيته واجتنيت منه الصمغ ليّناً يمتدّ كالعلك وينبت في الأماكن المعطّشة الرمليّة ومنها السَنْط وهو شجر القَرَظ وهو شائك ضخم ومنها الطَلْح وهو من فصيلة السنط والطلح

شجر يعلو أكثر من قامة ولحاؤه أحمر وله شُوَك طويلة كالإبر وورقه مركّب من وريقات صغيرة. السَيَال[1] شجر طويل يعلو أكثر من قامة لكن أصغر من الطلح ولون قشره أخضر يضرب إلى البياض وله شوك أبيض وأوراقه مركّبة كلّ ورقة من وريقات صغيرة ومنها الكِتِر وهو شجر ذو شوك وفروع كثيرة وشوكه كالسنّارة وله صمغ يجتنى منه لكنّ صمغ الحشاب أغلى وأحسن منه

١٩،٤ ومنها اللَّؤُوت وهو شجر صغير ذو شوك صغير وفروع كثيرة فيه اخضرار لا يفارقه وإن جف. ˜إذا قشر لحاؤه تشم˜[2] منه رائحة كريهة خاصّة ومنها القَفَل وهو شجر ليس بالكبير ولا بالصغير لكنّ أكثره ينبت في الجبال ومنها الحَرَاز وهو شجر هائل الضخم والكبر ذو شوك يعظم جذعه حتّى لا يعتنقه الرجلان إذا مدّا باعيهما ظلّه ظليل حتّى إنّ منه ما يجلس في ظلّه مائة رجل وأكثر

٢٠،٤ وبالجملة فالأشجار التي لا يؤكل لها ثمر تنتفع في أمور أخر فإنّهم يقطعون منها الأخشاب لبيوتهم أمّا السنط فقرظه للدِباغ وشعبه الطويلة عمد لبيوتهم وأمّا اللؤوت فلحاؤه يربطون به سقف البيوت وفروعه يجعلونها في السقوف وفي الصريف والصريف عندهم عوض عن الحائط عندنا وأمّا الكتر والحشاب فيأخذون منهما الصمغ وأحيانًا يقطعون شوكهما يجعلون منه الزرايب لمواشيهم ولبيوتهم لأنّ لكلّ بيت زريبة غالبا وهى كناية عن السور وصريفًا وهو كناية عن الحائط والبيوت فى الوسط أشبه شىء بالخيم والطُوزْلُك المضروب حولها والبيوت إمّا من قصب الدخن أو من قصب رفيع يسمّى المرهبيب والثاني لا يعمل إلّا للأغنياء وأكابر الدولة وهو قصب ناعم قليل الكعوب رفيع كالسمار أبيض يميل إلى الصفرة زكيّ[3] الرائحة خصوصًا بعد نزول المطر

٢١،٤ واعلم أنّ النبات في بلاد السودان كثير لا يحصى أفراده العدّ ولا يوقف له على نهاية ولا حدّ ولا أعرف منه إلّا ما اشتهر وذاع وملأت شهرته البقاع لأنّي كنت إذ ذاك في سنّ الشباب والجهل سابل عليّ جلباب لكن لكثرة مخالطتى بهم وأسفاري

---

١ الأصل: السَيَّل. ٢ الأصل: وتشم. ٣ الأصل: ذكي.

معهم عرفت ما عرفته بالاسم ولا أقدر أن أميّزه تمييزًا[1] كليًّا

٢٢،٤ فمنه شجر الشاو وهو شجر كبير وصغير وصغيره أكثر من كبيره وهذا الصغير أطول من القامة وقشوره خضراء بالنسبة للكبير لأنّ قشرة كبيرهِ مغبَّرة أعني أنّ لونها أغبر وهو اللون الذي يقرب للبياض وليس أبيض ناصعاً ويحمل في إبّان حمله عناقيد تأكل منها أهل السودان وهذه العناقيد فيها حبّ كأصغر العنب. ما نضج منه يكون أسود وما قرب للنضج يكون أحمر وما لم يقرب منه يكون أخضر وطعمه حلو فيه بعض حرافة وورقه يغلب على ظنّي أنّه بيضيّ أو يقرب من أن يكون بيضيّاً أخضر الظاهر والباطن

٢٣،٤ والبُطُّوم شجر كبير هائل المنظر أغبر اللون غليظ الساق صلب الخشب أوراقه صغيرة بيضيّة في حوافيها تسنّن وترى قشرة الساق من أسفل مشقّقة شقوقاً غير منتظمة وثمره كثمر الشاو وعناقيده أيضاً إلّا أنّ هذا لحبّه أذناب طويلة ولا يؤكل ثمره وهو أصغر من ثمر الشاو وتعلو ساقه أكثر من قامتين ويتفرّع فروعاً كثيرة

٢٤،٤ وأمّا الأَبَنُوس فهو شجر متوسّط وقشرته خضراء داكنة والأبنوس قلبه فإذا لُحِّيَتْ القشرة انكشفت عن عود أسود إلّا أنّه يكون سواده خفيفًا وهو أخضر فكلّما يبس ازداد سوادًا وأحسن الأبنوس ما أخذ من الجذور وهذا النبات لا يوجد في دار الفور وإنّما يجلب من دار الفرتيت إليها والجُوخان أو الجُوغان كذلك إلّا أن الجوخان له ثمر كالبندق في الحجم حلو الطعم فيه بعض يبوسة كالغضروف وأمّا الجَجَع فهو شجر متوسّط أيضاً ولون ساقه يميل إلى الحمرة وفروعه ليست كثيرة التفرّع وفيه شوك طويل وأذناب أوراقه قصيرة فربّما ظنّ أنّها ملتصقة بالفروع لقصر أذنابها وهذه الأوراق مستديرة مسنّنة تسنّنًا غائرًا وثمره كثمر الزعرور وفيه مساكن إلّا أنّه غضروفيّ أو فيه خشبيّة وأغلب ظنّي أنّ في كلّ ثمرة أربعة مساكن بينها حواجز

٢٥،٤ وأمّا دار فرتيت وهم مجوس السودان المحاذون لجنوب دارفور فينبت فيها القنا ومنها يصنعون أعواد حرابهم وأكثر أعواد حراب أهل الدولة فى دارفور من القنا وهو جميل جدًّا ويجلب من دار فرتيت

---

[1] الأصل: تميزا.

وأمّا النباتات التي فيها الخواصّ فمنها شجرة كِلِي وهي شجرة متوسّطة لا شوك فيها تثمر ثمرًا كالزعرور إلّا أنّه خشبيّ. يؤخذ الثمر وينقع في الماء ويسقى المتهوم ولون هذا الثمر كلون الرمّان الحامض إذا جفّ والشَعْلوب وهو شجر نصف خشبيّ كثير الفروع لينّها ورفيعها تمتدّ فروعه وتشتبك ببعضها متراكمة حتّى تصير الشجرة وحدها كالأكمة وله ثمر كالبلح الكبير الأخضر ولا عجم ولا نوى فيه وفيه عصارة لبنيّة ببعض لزوجة.[1] لطعمه بعض حلاوة ابتداءً وحرافة انتهاءً. أخضر لا يفارقه لون الخضرة ولو جفّ إذا مضغه شارب الخمر أزال ريحتها وقد تقدّم ذلك — ٢٦،٤

ومنها دَقَرَة وهو نبات حشيشيّ ينبت في الأراضي الصلبة أوراقه رقيقة فيها نوع استدارة إذا دقّ الورق في هاون وعصر ماؤه في العين الرمداء المتورّمة بالتهاب حادّ ثلاثة أيّام صباحًا ومساءً أبرأه ولقد كنت في سوق نمليه في غير رؤية الجبل ومسكت بيدي الفلفل وصرت أعبث به ثمّ هبت ريح فقذيت عيناي فدعكتهما بيدي ونسيت أمر الفلفل فتألّمت ألمًا عظيمًا والتهبتا[2] في الحال وورمتا[3] فركبت وسافرت فلم أقدر على الركوب من شدّة الألم فدخلت في بلدة وبتّ عند امرأة عجوز فيها فلم أكتحل بنوم وبتّ بأقبح ليلة وانقلب الجفنان وغلظًا حتّى خشيت على عينيّ من العمى وصرت لا أعرف ما ينقذني من ذلك — ٢٧،٤

فلمّا أصبح الصباح جاءتني عجوز ونظرت عينيّ وتوجّعت لي ثمّ قالت هذا أمر سهل ثمّ دعت بابنة لها صغيرة تكاد أن تكون ابنة سبع سنين أو ثمانية وقالت لها بلغة الفور اذهبي إلى أسفل الجبل وائتيني بأوراق من النبات المسمّى دقرة فذهبت الصبيّة وغابت قليلاً ثمّ جاءت ومعها أوراق كثيرة فأخذتها العجوز ودقّت بعضها بين حجرين حتّى صار كالعجين وأمرت بفتح عينيّ ومسك يديّ ثمّ عصرت في عينيّ من عصارة النبات المذكور فنزل في عينيّ باردًا ثمّ ابتدأ يأكل بغير ألم حتّى كأنّما في عينيّ دود وأريد أدعكهما بيدي فلا أستطيع للضبط عليّ فعانيت من ذلك مشقّة حتّى اضمحلّ الأكلان وجاءني النوم فنمت واستغرقت في نومي مدّة عظيمة فلم أفق إلّا قرب العصر — ٢٨،٤

---

[1] الأصل: لزوجة. [2] الأصل: والتهبا. [3] الأصل: وورما.

فأحسست في عينيّ خفّة وذهب الألم ولمّا كان من الليل جاءت وعصرت لي من تلك العصارة وبتّ بأنعم ليلة وفي الصباح عصرت لي منها أيضاً فانفتحت عيناي وكأنّي لم أرمد بهما فذبحت إذ ذاك كبشاً سميناً ولمة لشفائي وأعطيت العجوز جدياً سميناً

٢٩،٤ وغالب النبات والشجر يثمر في آخر زمن الخريف وهو الصيف عندنا لأنّهم يسمّون صيفنا خريفاً وخريفنا درتاً وفي عرفهم يعنون به الربيع وربيعنا صيفاً ولم يوافقونا إلّا في الشتاء فإنّ الشتاء عندهم هو الشتاء عندنا وفي الصيف الحقيقيّ تمطر السماء عندهم ويزرعون لأنّ أوّل سقوط المطر عندهم في الجوزاء ويسمّونه الرُشاش وفي السرطان تنفتح عزالي السحاب ويكثر المطر وتمتلئ الأودية وبذلك تعلم سبب زيادة النيل المبارك وممّا يؤكّد أنّ كثرة الأمطار عند أهل السودان هي السبب في كثرة نيل مصر ما وقع من الاتّفاق أنّ سنة ١٢٥٣ هجريّة وقع في مصر غلاء عظيم حتّى أبيع الأردبّ من القمح بمائة وخمسين غرشاً بل أكثر وسببه عدم فيضان النيل كعادته وحينئذ كنت متشكّكاً هل وقع ذلك بأرض السودان أم لا وبقيت على الشكّ إلى سنة ١٢٥٧ فجاء القاضي الدليل قاضي القضاة بمملكة الواداي فأخبرني أنّه في تلك السنة قلّ القَطر حتّى أجدبت الأرض وغلت الأقوات وأكلت الناس الجيف والكلاب وهو اتّفاق عجيب وأدلّ[١] دليل على أنّ زيادة بحر النيل من أمطار تلك البلاد ولله في ذلك حكمة لا يعلمها إلّا هو

٣٠،٤ وفي وقت الرشاش يكثر هبوب الرياح والمؤتفكات وأكثر مجيئها في أوقات العصر وإذا هبّت ترى من بعد كالسحاب فتارة تكون حمراء وقد سدّت الأفق من الجهة التي تأتي منها وغالب المؤتفكات تأتي من قبل المشرق ونادراً أن تأتي من الجنوب وفي مجيئها من الشرق تحمل رملاً كثيراً من القوز الذي تمرّ عليه وكلّ مؤتفكة تأتي بمعيّة مطر لأنّ قبل ذهابها يرعد الرعد وبعد الرشاش ينزل المطر برعد قويّ حتّى إنّه ربّما نزلت منه صواعق فضرّت ولقد رأيت صاعقة نزلت على شجرة هجليج فكسرت منها فرعاً عظيماً وساخت في الأرض وأخرى نزلت على بيت فدخلت نار من خلال البيت وأصابت

---

١ الأصل: ادل.

رجلاً فأحرقت ذراعه وساخت في الأرض وسمعت منهم أنّ من كان معه حديد لا تقربه الصاعقة وهذا خلاف رأي الإفرنج

٣١،٤ وفي فصل صيفهم الذي نسمّيه ربيعاً تكثر الزوابع ويرى السراب في الأرض ولا أعلم أرضاً يكثر فيها الزوابع والسراب كأرض السودان وأحسن المطر عندهم وأهنأه ما يقع بالليل والناس نيام وهو وإن كان يحصل فيه رعد إلّا أنّه لا يضرّ كما يضرّ الرعد الذي يأتي بالنهار ويكثر قوس قزح عندهم في وقت نزول المطر حتّى إنّه يكون في الساعة الواحدة في أربعة محالّ أو خمسة. منها ما يكون كالقوس ومنها ما يكون على خطّ مستقيم وهو قليل وأكثره يكون على خطّ منحني

٣٢،٤ والرشاش عندهم نحو خمسة عشر يوماً فيه يزرعون الدخن والذرة بأنواعه وأطول خريف عندهم ستّون يوماً غير أيّام الرشاش وأوسطه ستّون يوماً بأيّام الرشاش وأقلّه لا حدّ له وأغلبه أن يكون خمسة وأربعين أو خمسين يوماً وأقلّ من ذلك قحط وجدب فهو كالعدم إلّا إن جاءت في تلك المدّة أمطار غزيرة روت الأرض ريّاً عظيماً خصوصاً عند آخر الفصل وختام الزرع وإذا طالت مدّة الخريف وكثرت أمطاره سمّوه خريف التِيمَان

٣٣،٤ وأسماء الشهور في بلاد الفور والواداي بالعربيّة فلا يعرفون الأشهر الروميّة ولا القبطيّة ولا الأعجميّة فأهل العلم منهم يسمّونها كما سمّتها العرب قديماً بالأسماء المشهورة الآن كمحرّم وصفر وربيع الخ وأمّا عوامّ الناس فيسمّون الشهور بأسماء أخر وهذه الأسماء وإن كان معناها عربيّاً لكنّها مستهجنة ويبدأون في حساب السنة بشوّال لكن باسم آخر فيسمّون شوّالاً بالفُطر وذي القعدة فَطَرَيْن وذي الحجّة بالضحيّة ومحرّماً بالضحيّتين وصفر بالوحيد وربيعاً الأوّل بالكرامة وربيعاً الثاني بالتَوَم وجمادى الأوّل بالتومين وجمادى الثاني بسايق التيمان ولم يسلم من التغيير إلّا رجب ورمضان فيقولون رجبا ويسمّون شعبان القُصَيِّر ورمضان رمضان انتهى

٣٤،٤ وبالجملة فخواصّ النبات في دارفور عجيبة حتّى أنّي أخشى إن ذكرتها يكذّبوني ولا أجد لي شاهداً على ذلك وأكثر الخواصّ في الجذور وهناك معلّمون نباتيّون لهم تلامذة

عديدة أكثر أوقاتهم مسافرون يصعدون أعالي الجبال ويتخلّلون بطون الأودية يحفرون على النبات ويعلّمون تلامذتهم وهؤلاء القوم يسمّون بالمُعَراقيّين ولهم في دارفور شنآن ولهم معاندة مع بعضهم كلّ منهم يريد أن يرتفع صيته وجميع الجذور التي يأخذونها يضعونها في قرون الغنم بل وفي قرون البقر

وهي على أنواع منها ما هو للمحبّة والقبول والجذور التي لذلك تسمّى نارة وكان في أيّامنا أشهر الناس بها رجل يسمّى بَكُرْلوكو وكان مقرّه بجديد السيل وكان من عشق صبيّة وامتنعت عليه بغضاً فيه ذهب إلى بكرلوكو فأخذ منه نارة ودلك بها وجهه ويديه وذهب إلى محبوبته ومسح بيده على كتفها أو شيء من جسمها فوقع حبّه في قلبها بحيث لا تقدر تفارقه فيفعل بها ما يريد وإن خطبها وأبى أبواها فرّت معه حيث يريد وتزوّجته قهراً عنهما ومن كان له حاجة بباب الملك وخشي ألّا تُقَضَّى وذهب إلى بكرلوكو وأخذ منه قطعة من النارة ودلك بشيء منها بين كفّيه ومسح على وجهه أحبّه الملك وقضّى حاجته وإن كان ضامراً له سوء واشتهر بكرلوكو بهذا الأمر حتّى إن النساء ليغنّين به ويقلن ٣٥،٤

بكرلوكو أَبَا
بنتين بسدى

ومعناه أنّ بكرلوكو إن أراد أن يرخّص مهور البنات يجعل الرجل يتزوّج بنتين[١] بسدًى[٢] واحد والسدى هو عشرة أذرع غزلاً قِياماً وممّا اتّفق لي في ذلك أنّه في يوم من الأيّام جاءني رجل معه نارة يدّعي أنّها عظيمة جدّاً وأنّه أخذها من بكرلوكو وعرضها[٣] عليّ للشراء فقلت له يا هذا إنّما يحتاج إلى النارة من تبغضه النساء وأنا في شبابي هذا وتيسير حالي لو أردت ابنة الملك لما تعذّرت عليّ فكيف بغيرها ويحتاج إليها من يخشى سطوة الملك وأنا في أمن من ذلك لأنّي غريب وشريف ولي عند الملك حرمة فاعرضها على غيري فهو أولى بها منّي لأنّي أنا في نفسي نارة فما أصنع بالنارة أنتهى

---

١ أضيف للسياق. ٢ الأصل: بسداءٍ. ٣ الأصل: عرفها.

٣٦،٤ ومنها ما يستعمل للمضرّة وهو على أنواع نوع يستعمل لقتل العدوّ وكيفيّة ذلك أن يؤخذ الجذر الذي فيه خاصيّة القتل ويغرز في ظلّ رأس المراد قتله ففي الحال يتأثّر ويلتهب المخّ ويبقى الشخص لا يعي شيئاً فإن لم يتدارك سريعاً بضدّ ما فعل له مات وإذا أريد إبطال عضو منه يغرز الجذر في ظلّ العضو المراد إبطاله كاليد أو الرجل ففي الحال يتألّم العضو ويلتهب وينتفخ وربّما حدثت فيه غدّة كغدّة الطاعون وإن لم يتدارك سريعاً ينتفخ وينتهي بفقد إحساس العصب وبطلان الوظائف كلّها

٣٧،٤ وإذا أريد أن يصاب بالدوار وبالقيء هناك جذور توضع على الجمر ويتلقّى دخانها ولو في كمّ الثوب ويطبّق عليه طبقاً جيّداً ويتوجّه للشخص المقصود فيفتح كمّ الثوب ونحوه بقرب أنفه فتسطع رائحة دخان الجذر في أنفه فيقع في الحال حتّى تبقى رجلاه أعلى من رأسه فإن لم يتدارك في الحال بقي كذلك أيّاماً

٣٨،٤ ومنها جذور خاصيّتها جلب النوم وهذه الجذور تستعملها السارقون وتجعلها في قرون فيدخل السارق بالليل على المحلّ وأهله مستيقظون فيشير إليهم بالقرن الذي فيه الجذر ثلاث مرّات فيضرب الله على آذانهم فلا يعون شيئاً فيدخل السارق ويأخذ ما يريد أخذه وربّما ذبح الشاة وسلخها وشوى من لحمها وأكل ووضع في يد كلّ من أرباب المحلّ قطعة من الكبد ثمّ أخذ ما أراد وخرج وبعد خروجه من الدار يفيقون ويسأل بعضهم بعضاً عن الرجل الذي كانوا رأوه فكلّ منهم يقول رأيته ولا أدري ما فعل فإذا بحثوا في محلّهم يرون أنّه ما ترك لهم شيئاً وقد فاز بما أخذ فيعضّون أناملهم تلهّفاً وقد امتنع عليهم

٣٩،٤ وبالجملة فهذا الأمر في دارفور مشهور لا ينكر وكنت سألت عن تلك الخواصّ أستاذي الفقيه مدنيّ الفوتاويّ أخا الفقيه مالك الذي تقدّم ذكره فأخبرني أنّ الكتب المنزلة على آدم وشيث وإبراهيم وغيره من الأنبياء دفنت في الأرض وأنبت الله هذه النباتات في المحلّ الذي دفنت فيه وانتشر بزرها بهبوب الرياح في الأرض فعمّ نباتها وانتشر واستفيدت منها هذه الخواصّ بالتجربة. أقول وهذا نوع من أنواع السحر وضرب من ضروبه

ومنها نوع يعمل بالكتابة والتعزيم على الأملاك العلويّة والسفليّة ومن هذا النوع تظهر أمور كثيرة خارقة للعادة لقد أخبرني الثقات[١] بدارفور أنّ في محاربة الخليفة للسلطان عبد الرحمن كان للخليفة عدّة رجال يقوّسون بالبندق فسحرهم جماعة السلطان حتّى إن البارود كان يخرج من البندق كالمبلول لا يسمع له صوت ورصاصه كان لا يضرّ وبندق جماعة السلطان بعكسه في الصوت والضرر ٤،٤٠

وممّا وقع من هذا القبيل أنّ لمّا توفّي السلطان عبد الرحمن وولي ابنه السلطان محمّد فضل مكانه أبى عليه أولاد السلاطين كأولاد السلطان تيراب وأولاد السلطان أبي القاسم وأولاد الخليفة وأولاد السلطان عمر وخرجوا عن الطاعة وركبوا خيولهم وخرجوا إلى القرى وجيّشوا جيشاً عظيماً فخشي الأب الشيخ محمّد كرّا من خلل يقع في البلاد فدعا بالفقيه مالك الفوتاويّ وأعلمه بما يخشاه من غائلة هذا الأمر فضمن له أن يأتي بهم إلى بين يديه أذلّاء فأخرج الأب الشيخ محمّد كرّا جيشاً لنظر الملك محمّد دلدن ابن عمّة السلطان محمّد فضل وذهب الفقيه مالك فعمل من سحره ما عمل وكانت أولاد السلاطين في محلّ بينه وبين الفاشر مسيرة يومين فلمّا عمل فيهم السحر ركبوا خيولهم عند المساء خوفاً من الملك محمّد دلدن أن يهجم عليهم بجيشه وأرادوا البعد فعموا عن الطريق وباتوا ليلتهم تلك سارّين إلى جهة الفاشر والملك دلدن في إثرهم فما أصبحوا إلّا وهم تحت الفاشر ولمّا أصبح الصباح ورأوا أنفسهم بقرب الفاشر ندموا على سريانهم وسمع بهم الأب الشيخ محمّد كرّا فأرسل لهم وحينما وصل الجيش إليهم أطبق عليهم جيش الملك محمّد دلدن لأنّه في أثرهم ولمّا صاروا بين العسكرين انهزمت الناس الذين كانوا التفّوا عليهم وبقيت أولاد السلاطين في نفر قليل فقبض عليهم الملك محمّد دلدن وتوجّه بهم إلى الأب الشيخ محمّد كرّا فأمر بهم إلى السجن واكتفى شرّهم وكان ذلك من السحر ولولاه لجاسوا خلال دارفور وعاثوا فيها واتّسع الخرق على الراقع ٤،٤١

١ الأصل: الثقاة.

٤٢،٤ والمخصوص بالأعمال السحريّة في دارفور هم قبيلة الفلاّن ولقد رأيت منهم رجلاً يسمّى الفقيه تَمُرُّو بفتح المثنّاة الفوقيّة وضمّ الميم وآخره راء مشدّدة مضمومة يذكرون عنه أموراً عجيبة ويفيضون في[١] ذكرها مع التصديق لها حتّى بلغت هناك مبلغ التواتر الذي يمتنع تكذيبه فمنها ما أخبرني به الثقة من فقهاء دارفور أنّه سافر مع الفقيه تمرو المذكور من جديد كريو إلى الفاشر ورجع معه إلى جديد كريو فقال لمّا كنّا في أثناء الطريق اشتدّ علينا حرّ الشمس وكان الفقيه تمرو راكباً على جمل فأخذ ملحفته وفردها ثمّ رجع وضمّها بين يديه وقرأ عليها بعض أسماء ثمّ قذفها إلى أعلى فانفردت[٢] على رأسه كأنّها ظُلّة وظلّلته هو وصاحبه من حرّ الشمس كأنّها ممسوكة من أطرافها بين رجلين تتبعهما أينما توجّها كالمظلّة وهذا الأمر من أغرب ما يسمع وأعجبه ومنها بينما هما سائران في سفرهما ذاك إذ نزل عليهما المطر فقال الفقيه تمرو لخادم كان معهما ائتني بقبضة من التراب فناوله إيّاها فأخذها بيده وقرأ عليها بعض كلمات ثمّ نثر التراب حول رأسه فانقشع السحاب وصار المطر ينزل عن يمينهما ويسارهما وهما يمشيان في اليبس لا تنزل عليهما قطرة وممّا بلغني أنّ المساليط اقتتلوا مع الفلاّن في بعض الأحيان وهزموهم واقتفوا أثرهم ليستأصلوهم فعمل الفلاّن شيئاً من سحرهم فسحروا أعين المساليط حتّى إنّهم كانوا يرون أثر الذهاب معكوساً كأنّه أثر المجيء

٤٣،٤ ولقد بلغني من شيخنا الفقيه مدنيّ الفوتاويّ عليه سحائب الرحمة أنّ ملك البرنو كان له كاتب جليل القدر على غاية من التقوى والصلاح فجاء إليه الوزير الأعظم وقال له إنّ الملك يأمرك أن تكتب كتاباً لفلان مضمونه كذا وكذا فأبى الكاتب عليه وقال لا أكتب إلّا أن يقول لي السلطان بنفسه أو يرسل لي علامة تدلّ على صدق رسوله فذهب الوزير إلى السلطان وأخبره بما قاله الكاتب فدعاه السلطان وقال له قد أذنتك أن كلّما قال لك وزيري هذا اكتب لكذا أو كذا على لساني أن تكتب له

٤٤،٤ وكان الخاتم الذي تختم به الأوامر السلطانيّة مع الكاتب المذكور فامتثل أمره وصار يكتب له كلّما أراد حتّى إنّه جاء إليه يوم من الأيّام وقال له إنّ الملك يأمرك أن

١ أضيف للسياق. ٢ الأصل: فانفرد.

تكتب إلى فلان الملك أن يتوجّه إلى العامل فلان ويقتله ويستصفي أمواله ويرسلها صحبة رأسه فكتب له ذلك والسلطان لا يعلم بشيء من ذلك فما راعه إلّا وقد امتلأت البطحاء بالأموال والرقيق والبقر والإبل والغنم ورأس شخص موضوعة على سنّ رمح فسأل السلطان عن الخبر فأخبر أنّ هذا رأس فلان وهذا ماله وقد قتل حسبما أمرت فأنكر السلطان ودعا بالكاتب وقال من أمر بقتل فلان واستصفاء أمواله فقال له أنت فقال له في أيّ وقت أمرتك بذلك قال في الوقت الفلانيّ جاءني وزيرك فلان وقال لي اكتب إلى فلان الملك[1] بالجهة الفلانيّة أن يتوجّه إلى فلان العامل بالجهة الفلانيّة ويقطع رأسه ويرسلها على رمح ويرسل أمواله كلّها فقال لم آمره بذلك وكيف مع عقلك وحسن تدبيرك أنّك كتبت له بغير استئذان منّي فقال أيّدك الله مولانا إنّك قد دعوتني في اليوم الفلانيّ وقلت لي كلّما قال لك وزيري هذا اكتب لكذا أو كذا على لساني فاكتب له فامتثلت أمرك من ذلك الوقت وصرت أكتب له كلّ ما أمرني به

٤٥،٤ فغضب السلطان وقال إنّي لم آمرك أن تكتب له في مثل هذا الأمر المهمّ بل أمرتك أن تكتب له في الأمور التي لا ضرر فيها على الدولة. أَوَمثل هذا الأمر يكون بغير استئذان فقال الكاتب إنّ مولانا لم يستثنِ أمرًا من الأمور حين أمرني بطاعته فزاد غضب السلطان وأمر بالقبض على الكاتب فلم يقدر أحد على القبض عليه وما ذاك إلّا أنّه كلّ من مدّ إليه يدًا ليقبض عليه تيَبّس فلا يقدر أن يثنيها وتصير كأنّها قطعة خشب فلمّا رأى السلطان ذلك قال له اعف عن هؤلاء فقال لا أعفو[2] عنهم إلّا إن أعفاني السلطان من الخدمة فأعفاه من الخدمة وعفا عنهم هو أيضًا فلانت أيديهم ورجعت كما كانت وهذا مصداق قوله صلّى الله عليه وسلّم من خاف من الله خاف منه كلّ شيء ومن لم يخف الله خوّفه الله من كلّ شيء

٤٦،٤ وممّا ينخرط في سلك هذه العجائب[3] ما شاع على ألسنة أهل دارفور من أنّ هناك قبيلتين من رعايا الفور إحداهما تسمّى مساليط[4] والثانية تيموركه يتشكّلان بأشكال

١ الأصل: العامل. ٢ الأصل: اعف. ٣ الأصل: الاعجائب. ٤ الأصل: مسلاط

الحيوانات لكنّ المشهور أنّ مساليط[1] تتشكّل بشكل الضبع والهرّ والكلب وأمّا تيموركه فتتشكّل بشكل السبع لا غير وأعجب من ذا أنّ هذه القبيلة يقولون عنها إنّ الميّت منها يقوم بعد ثلاثة أيّام من قبره ويتوجّه إلى بلد آخر ويتزوّج بها ويعيش زمناً ولقد أشيع على ألسنة أهل دارفور أنّ للسلطان طائفة من هذه القبيلة يرسلها في مهمّات أموره وأنّ لها ملكاً حاكماً عليها ويبالغون في هذه الطائفة حتّى إنّهم يقولون إنّها تتشكّل بجميع أنواع التشكّلات حتّى الرجل منهم إذا ضاق عليه المجال وخاف من الضبط عليه يبقى ريحاً

٤،٤٧ ولقد أدركت حاكم هذه الطائفة وكان يسمّى عليّ كَرْتَب وكان رجلاً مسنّاً ضعيف الحركة من فقراء الجند لا يظهر عليه أثر الثروة ثمّ إنّه مات وولي ابنه مكانه وكان شابّاً جسيماً وَخْش الخلقة لكن يظهر عليه أثر الثروة وكان يركب العتاق من الخيل وله خدم وأبّهة فانعقدت بيني وبينه صحبة وذهبت إلى داره عدّة مرار وكان يسمّى عبد الله كرتب فاتّفق أنّي خلوت به في بعض المرار وسألته عمّا تقول فيه الناس من التشكّل وأنّه يسافر مسيرة عشرة أيّام في برهة فشاغلني بكلام آخر ولم يفدني بشيء فتركته في ذلك الوقت وسألته ثانياً في وقت آخر فتبسّم وقال سبحان الله ما كنت أظنّ أنّك تصدّق هذا القول ثمّ شاغلني بغير ذلك حتّى خرجت من عنده ثمّ أنكر معرفتي بعد ذلك وصار يمرّ عليّ ولا يلتفت لجهتي وتركته أنا أيضاً لما رأيت من تنكّره ولا أعلم لذلك سبباً سوى تكرار سؤاله في هذا الشأن

٤،٤٨ ولقد سافرت للغزو مع ملك من الملوك اسمه عبد الكريم بن خَمِيس عَرْمان وكان أبوه من أعظم وزراء السلطان ونقم عليه وأبّد سجنه حتّى مات وصار ولده خادماً للدولة حتّى أرسل للغزو في الفرتيت وكان لي عليه دين فذهبت معه لأستوفاه منه فتوغّلنا في بلاد الفرتيت مدّة ثلاثة أشهر وكنّا في محلّ لا يوجد فيه شيء من البقول ولا الخضراوات[2] فدعاني ذات يوم من الأيّام فلمّا دخلت عنده وجدت بصلاً أخضر وفقّوساً وكلّ منهما كأنّما أخذ من مقثأته الآن فسألته عنهما ومن أين وصلا له فقال

١ الأضل: مسلاط. ٢ الأصل: الخضروات.

من دارفور فسألته عمّن أتى له بهما وكيف بقيا طريّين مع بعد المسافة سيّما الفقّوس فإنّه كان غضًا بالكلّيّة فقال قد جيء بهما في أقلّ زمن وانظر إلى تاريخ هذا المكتوب فأخذت المكتوب منه ونظرت إليه فإذا هو من بعض أحبابه بدارفور وتاريخه صبيحة ذلك اليوم فبهت وصرت متعجّبًا من ذلك فلمّا رأى عجبي[١] قال لي لا تعجّب فإنّ معنا جماعة من التموركه وفيهم قوّة التشكّل يذهبون إلى أبعد محلّ في أقرب زمن فقلت أريد أن تريني أناسًا منهم فقال لك ذلك

٤٩،٤ ثمّ لمّا قفلنا نريد دارفور ووصلنا إليها بتنا بظاهر بلد من بلاد التموركه نسيت اسمها ولمّا كان عند الصباح جاءنا أناس كثيرون يسلّمون على الملك وأنا جالس معه فرحّب بهم وأكرمهم وكسا رؤساءهم ثيابًا حسنة ففرحوا بذلك ولمّا أردنا الرحيل قال رئيسهم إنّا نوصّيكم إن رأيتم في طريقكم سباعًا فلا تمسّوها بسوء لأنّ جميع ما ترونه من السباع في هذه الجهة منّا فقال الملك إذ ذاك نحن نريد أن نسمع من بعض أصحابك الآن فقال سمعًا وطاعة ثمّ ندب ثلاثة أنفار منهم سمّاهم فقاموا وتوجّهوا إلى الخلاء فغابوا قليلًا ثمّ سمعنا زئير أسد عظيم أزعج القلوب وأفزع الدوابّ فقالوا هذا صوت فلان ثمّ سكت وزأر أسد آخر يقرب منه ثلاث زأرات فقالوا هذا فلان ثمّ سكت وسمع بعد ذاك زئير أعظم من الزئيرين السابقين حتّى كادت أن تنخلع القلوب لسماعه فقالوا هذا صوت فلان سمّوه وأعظموا أمره ثمّ بعد قليل جاءوا على هيئتهم الآدميّة وقبّلوا يد الملك ففرح بهم وأكرمهم وحينئذ كساهم ثيابًا فاخرة وودّعناهم وارتحلنا وحينئذ قال لي الملك هؤلاء الطائفة هم الذين أتونا بالبصل والفقّوس ونحن في آخر دار فرتيت انتهى

٥٠،٤ وممّا يلحق بهذه العجائب ما يقوله الرمّالون حين يضربون تخت الرمل لأنّهم يقولون كلامًا وقع للإنسان لا يعلم به أحد إلّا الله تعالى ويقولون على أمور تقع كأنّه يراها بعينه فممّا دعاني إلى صدق أقوالهم أنّي حين أردت الانتقال من دارفور والسفر إلى دار واداي كان في البلدة التي كنت فيها رجل يقال له سالم له صهر في بلد

[١] الأصل: عجابي

آخر يقال له إسحاق ماهر في علم الرمل وكنت ضيق الصدر لتعسّر أمور السفر عليّ فقال لي سالم المذكور هل لك في أن تتوجّه معي إلى صهري إسحاق يضرب لك الرمل ويقول لك ما يظهر له فأجبته لذلك وتوجّهت معه لبلدة صهره المذكور فدخلناها ضحى فرأيناه غائباً في زرعه فصبرنا حتّى قدم فرحّب بنا وأكرمنا وأتى لنا بغداء[1] حسن ثمّ قال له صهره سالم إن الشريف قد جاء يلتمس منك أن تضرب له رملا فقال السمع والطاعة وضرب الرمل وقال لي كلاما كنت أكذبه فيه فوالله لقد وقع جميع ما قاله وكأنّه تكلّم من اللوح المحفوظ لم يخطئ في كلمة فمن ذلك أنّه قال لي إنّك ستذهب إلى دار واداي عن قريب بجميع أهل بيتك ما عدا امرأة أبيك فإنّها لا تذهب معك وكنت أكذّبه وأقول كيف لا تذهب مع أنّها أحوج الناس للذهاب فصدّق الله قوله فلم تذهب معنا وعملت علينا حيلة وهي أنّها بقيت معنا حتّى كانت ليلة الرحيل ففرّت وتركت ابنتها بنت سبع سنين فلمّا أصبحنا طلبناها فلم نجد لها أثرا وسافرنا ولم نستقرّ لها على خبر ومن ذلك أنّه قال لي ليلة قدومك على بيت أبيك يأتونك بجارية صفتها كذا وكذا فوقع كما قال ومنها أنّه قال لي لا تجتمع بأبيك في دار واداي فكان كذلك ولم أجتمع معه الّا في تونس ومنها أنّه قال لي إن بيت أبيك حيطانه حمر كأنّها طليت بمُغْرة فرأيتها كذلك والمغرة نوع حجر لونه أحمر هشّ يسحقونه ناعمًا فيطلى به البيوت ويصنعون به أيضاً الحبر الأحمر يخلط مع الصمغ في الماء ومنها أنّه قال لي إنّك تركب هناك جواداً أخضر فكان كذلك وقال لي إنّ السلطان ينعم عليك بجوار وغيرها فكان كما ذكر

٥١،٤ ومن أعجب ما وقع حين كنّا عنده أن[2] جاءته نسوة يتخاصمن مع بعضهنّ ويردن[3] أن يضرب لهنّ رملاً يظهر به مالاً ضائعاً لتعلم كلّ منهنّ من أخذه فضرب الرمل وقال قد ضاع لكنّ خرز أحمر منظوم في خيط وهو مخبّأً في رِتاج البيت الفلانيّ فقامت امرأة وأتت به من الرتاج المذكور كما قال لكن لم يقل من الآخذة له منهنّ وله في خطّ الرمل باع طويل

---

١ الأصل: بغذاء. ٢ أضيف للسياق. ٣ الأصل: ويريدن. ٤

ومن هذا القبيل ما حدّثني به عمّي السيّد أحمد زرّوق أنّ والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان لمّا كان صحبة المرحوم السلطان محمّد صابون في محاربة جبل تاما[1] ضاع له جمل بازل وأرسل العبيد والخدم ليفتّشوا عليه فذهبوا وغابوا طويلاً ثمّ رجعوا بالخيبة فيئس المرحوم والدي منه وكان ممّن صحبه رجل يعرف خطّ الرمل فقال له بعض الحاضرين إنّك رجل رمّال فإن كنت عارفا بيّن لنا الجمل يأتي أم لا فضرب الخطّ وقال إن الجمل هاهنا غير بعيد فقوموا وانظروه في إبل جيراننا فذهبت العبيد إلى إبل الجيران فوجدوا الجمل باركاً في وسطها وعرفوه وجاءوا به إلى محلّه وهذه غاية الإتقان في علم الرمل ٥٢،٤

ومن هذا القبيل أيضاً ما حكى لي بعض الأشراف في دار واداي أنّ جماعة من العلماء كانوا مجتمعين في محلّ وفيهم من يعرف علم الرمل معرفة خبير وفيهم من يدّعيه فتذاكروا في علم الرمل والذي يدّعيه يقول أنا ضربت الرمل لفلان الملك ولفلان القائد وأخبرتهما بكذا وكذا فطلب منه أحد الحاضرين أن يضرب له فضرب وقال كلاماً لا يُغْني شيئاً فالتفت العارف إلى الخطّ المضروب وتأمّله ثمّ قال إنّي مبشّرك أنّك في غد تقبض من السلطان ستّين رأس رقيق وكان الأمر كما قال ٥٣،٤

وإذ[2] انجرّ الكلام إلى علم الرمل فلنذكر منه نبذة يقف بها المتأمّل على ماهيّته وأشكاله وأسمائه والأشكال السعيدة والنحسة والمتوسّطة فنقول أمّا أشكاله فهي ستّة عشر شكلاً أوّلها الطريق وصورته هكذا ⁝ وهي جيّدة لمن أراد السفر وأجود منها لمن يسأل عن قدوم الغائب ورديّة لمن ⁝ كان مريضاً فإنّها تدلّ على طريقه للقبر ٥٤،٤

وثانيها الجماعة وصورتها هكذا ⁝⁝ وهو شكل سعيد إلّا في المريض فإنّه يدلّ على اجتماع الناس لجنازته ٥٥،٤

وثالثها اللّحيان وصورته هكذا ⁝ وهو شكل سعيد في جميع الأحوال ٥٦،٤

---

[1] الأصل: تامه. [2] الأصل: واذا.

ورابعها النكيس وصورته هكذا وهو شكل نحس في جميع الأحوال إلّا في الحامل فإنّها تلد ذكرًا ٥٧،٤

وخامسها الاجتماع وصورته هكذا وهو شكل سعيد في جميع الأعمال إلّا في قبض الدراهم ٥٨،٤

وسادسها العُقْلة وصورته هكذا وهو شكل نحس إلّا في السؤال عن الحامل ٥٩،٤

وسابعها العتبة الداخلة وصورته هكذا وهو شكل سعيد في جميع الأحوال فمن كان أوّل خطّه هذا الشكل أو ثانيه إن كان مغموماً زال غمّه وإن كان مترقّبا لمجيء غائب قدم عليه سريعاً وإن كان مُعْسِرًا زال عسره ٦٠،٤

وثامنها العتبة الخارجة وصورته هكذا وهو شكل نحس يدلّ على موت المريض وتعطيل الحاجة واضطراب الأمور وطلاق الزوجة ٦١،٤

وتاسعها القبض الداخل وصورته هكذا وهو شكل ممتزج يدلّ على قبض الدراهم والظفر بالعدوّ ولكنّه يدلّ على موت المريض وحبس المطلوب للحاكم ٦٢،٤

وعاشرها القبض الخارج وصورته هكذا وهو شكل يدلّ على عدم رجوع ما خرج من اليد وذهاب الآبق وإباق الرقيق لكنّه يدلّ على الخلاص من الحبس وعلى السفر والانتقال من مكان لآخر ٦٣،٤

وحادي عشرها البياض وصورته هكذا إلّا في المريض فإنّه يدلّ على الكفن ٦٤،٤

وثاني عشرها الحمرة وصورته هكذا وهو شكل يدلّ على إهراق الدماء وعلى القبر للمريض لكنّه سعيد للحامل فإنّها تلد ذكرًا ويدلّ على الثياب الحمر ٦٥،٤

كما أنّ البياض يدلّ على الثياب البيض

٦٦،٤ وثالث عشرها الجودلة وصورته هكذا ⁘ وهو شكل سعيد يدلّ على الفرح والسرور وأنّ الحامل تلد أنثى وأنّ الأمر يأتي على أحسن حال

٦٧،٤ ورابع عشرها نقيّ الخدّ وصورته هكذا ⁘ وهو شكل نحس ويدلّ على الشباب والعدوّ المجهول وطول المكث في الحبس وقبض روح المريض

٦٨،٤ وخامس عشرها النصرة الداخلة وصورته هكذا ⁘ وهو شكل سعيد يدلّ على النصر والظفر وقضاء الحاجة ونجاة المريض والمسجون والحامل

٦٩،٤ وسادس عشرها النصرة الخارجة وصورته هكذا ⁘ وهوشكل يدلّ على أمور حميدة إلّا في محاربة العدوّ فإنّه يدلّ على انهزام الجيش

٧٠،٤ فإذا أراد الإنسان أن يضرب الرمل المذكور يأتي برمل نظيف نقيّ ويبسطه على الأرض ثمّ ينقّط فيه بالإصبع الوسطى أربعة أسطر من غير عدد بالأسطر من اليسار إلى اليمين هكذا ⁘ ٧١،٤ ثمّ يتتبّعه زوجاً فزوجاً حتّى ينتهي إلى الآخر فإن كان الآخر زوجاً أثبته وإن بقي فرداً أثبته فيثبت ما تحصّل من السطر الأوّل أوّلاً وما تحصّل من الثاني تحته وهكذا حتّى تتمّ الأربعة أسطر فيتحصّل منها شكل من الأشكال الستّة عشر المتقدّمة ومن لم يجد رملاً ضرب الخطّ بفول أو حمّص وهو إنّه يأخذ قبضة من غير عدد ويسقطها زوجاً زوجاً ويثبت الأخير إن كان زوجاً أو فرداً

١،٥ وأمّا تولّدات أشكاله واتّصالاتها وما يتعلّق بها من الأسماء والحروف والكواكب والعاقبة وعاقبة العاقبة فذلك كلّه منوط بمؤلّفات علم الرمل فلا نطيل الكلام عليها وإنّما ذكرنا هذه النبذة اليسيرة ليكون للناظر في رحلتنا هذه إلمام بماهيّة الرمل في الجملة ولئلّا تخلو هذه الرحلة عن مثل هذه الفائدة والله عالم

وقد طبع بالحجر هذه النسخة الجليلة المنمّقة الجميلة بدار طباعة السيّد كَيْپْلَيْنْ
الفاخرة الكائنة بمدينة باريز الباهرة وذلك برسم وخطّ السيّد پَيْرُونْ
بنعمة الله وعونه وكمل طبعه على ذمّته ونظره وهمّته في سلخ شهر نونبر
سنة خمسين وثمانمائة بعد الألف المسيحيّة
والحمد لله في البدء والنهاية ونسأله من الخير بلوغ الغاية

آمين

NEW YORK UNIVERSITY PRESS
New York

Originally published in two volumes

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

Names: Tūnisī, Muḥammad ibn ʿUmar, author. | Davies, Humphrey T. (Humphrey Taman), translator, editor. | Tūnisī, Muḥammad ibn ʿUmar. Tashḥīdh al-adhhān bi-sīrat bilād al-ʿArab wa-al-Sūdān. | Tūnisī, Muḥammad ibn ʿUmar. al-adhhān bi-sīrat bilād al-ʿArab wa-al-Sūdān. English.
Title: In Darfur : an account of the sultanate and its people / by Muḥammad al-Tunisi ; edited and translated by Humphrey Davies.
Description: New York : New York University Press, [2018]- | Includes bibliographical references. | In English and Arabic.
Identifiers: LCCN 2017045322 (print) | LCCN 2017045917 (ebook) | ISBN 9781479811038 (v.1 ebook) | ISBN 9781479846634 (v. 1 ebook) | ISBN 9781479876389 (hardback)
Subjects: LCSH: Darfur (Sudan)--History--18th century. | Darfur (Sudan)--History--19th century. | Darfur (Sudan)--Description and travel.
Classification: LCC DT159.6.D27 (ebook) | LCC DT159.6.D27 T8613 2018 (print) | DDC 962.7/023--dc23
LC record available at https://lccn.loc.gov/2017045322

Series design by Titus Nemeth.

Typeset in Tasmeem, using DecoType Naskh and Emiri.

Typesetting and digitization by Stuart Brown.